

فَلِسْفَةُ التَّارِيخِ

تأليف
الدكتور عَوْسَتِيَاخْ لُوبُون

نقله إلى العربية
عَادِلُ رُغَيْتَر



منزل الطين والنسج
دار المعارف بمصر
١٩٥٤

فَلِسْفَةُ التَّارِيخِ

فَلِيسْفَةُ التَّارِيخِ

تَأَلِيفُ
الذِّكْرُوعُوْسْتِيَا فِ لُوِيُونِ

نَقْلُهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ
عَادِلُ زُعَيْتَرُ



مَنْزَمَةُ الطَّبَعِ وَالنَّشْرِ
دَارُ الْمَعَارِفِ بِمِصْرَ
١٩٥٤

إهداء الكتاب

إلى

صديق المفضل

ألبر دُلاتُور

العضو في المجمع العلمي

والقاضي السابق في مجلس الدولة

مع الاحترام الودي

غوستاف لوبون

مقدّمة المترجم

هذه ترجمة آخر كتاب للفيلسوف العلامة الفرنسي «غوستاف لوبون»،
فقد أُخْرِجَ للناس في سنة ١٩٣١، ومات مؤلّفه في سنة ١٩٣٢، وبهذا الكتاب
أكون، مع ما قدّمتُ من ترجمة كثيرٍ من كتب لوبون الاجتماعية
والتاريخية والفلسفية، قد أدخلتُ كتب لوبون المهمة، الآخذ بعضها
برقاب بعض، إلى العربية إدخالاً يُخَيِّلُ إلى الباحث معه أن هذا الحكيم
الجليل من العرب، ولا عَجَبَ، فلوبون واضحٌ سفيرٌ «حضارة العرب».
وهذا الكتاب، على ما يُرى من انسجامه مع ما ترجمنا من كتب لوبون،
يشتمل على موضوعاتٍ جديدةٍ زاخرةٍ لم تُعالج في مؤلّفات لوبون الأخرى.
وكتابُ «الأسس العلمية لفلسفة التاريخ» هذا ينطوي على مباحثَ
علميةٍ مؤديةٍ إلى تغيير الأفكار القديمة حول حوادث الحياة وأصل الإنسان
وتطور العناصر التي تكوّن منها تغييراً تاماً، كما ينطوي على مناهج تصلح
لتمثّل حوادث الماضي وعِللها.

وهذا الكتاب يساعد على وضع فلسفةٍ للطبيعة، ومن ثمّ للتاريخ،
تختلف عن الفلسفات التي سبقتها اختلافاً تاماً.

فلعلني أكون قد ملأتُ به فراغاً في حقلنا العلميّ الأدبيّ الذي
لا يزال كثير الشُّغرات.



الصورة الأولى - مسكوكات قديمة دالة على مشاعر زمنها ، وهي أوسمة ضربها
غريغوار الثامن وشارل التاسع تذكراً لمذبحة السان بارتلمى

المقدمة

الأسس الجديدة لفلسفة التاريخ

تتألف فلسفة كلِّ علم من مبادئه العامة ، وإذا تحوَّل هذا العلم تحولت فلسفته أيضاً .

ويعانى التاريخُ هذه السُّنةَ العامة ، وإذ تزول المبادئ التي كانت سنداَ له مناوَبَةً فإنه يَبْحَثُ عما يَعْتَصِصُ به من أسسه السابقة في التفسير .
وإذ يقتصر التاريخُ على عَرْضِ بسيطٍ للوقائع التي كان العالمُ مَسْرَحاً لها يُلُوْحُ كُدْساً من المُلتَبِسَاتِ الصادرة عن مصادفاتٍ مفاجئة ، وتُبَسِّطُ أهمُّ الحوادث فيه من غير صِلَةٍ بَيِّنَةٍ ، ويؤدِّي أدقُّ العِللِ وأصغرُها إلى نتائجٍ عظيمةٍ جداً .

ويُعدُّ عدمُ وجودِ صلةٍ منظورة بين تَفَهِّ العِللِ وعِظَمِ النتائج من أكثر حوادث حياة الأمم وَقَفاً للنظر ، ومن ذلك أن ظَهَرَ في صميم بلاد العرب سائق إبِلٍ اعتَقَدَ اتصاله بالرَّبِّ فأبدع بأخيلته ديناً ، فأقيمت ، بفعل الإيمان الجديد ، إمبراطورية عظيمة في سنين قليلة ، وتمضي بضعة قرون فيؤدِّي ما صدر عن مُلهمٍ جديدٍ من كلامِ نارِيٍّ إلى انقضاء الغرب على الشرق ، فتُقلَبُ بذلك حياة الأمم ، وفي أيامنا تصطرع دولةٌ بلقانيةٌ حقيرة وإحدى الدول العظمى فتُخَرَّبُ أوربة بأدَمَى الحروب التي سجَّلها التاريخ .

ويواصل هذه السلسلةَ للحوادثِ غيرِ المنتظرةِ نَفَرٌ من المهوسين الذين أعمتهم أوهامٌ سياسيةٌ مُجَرَّدةٌ ، كذلك ، من الأسس العقليةِ تَجَرُّدَ المعتقدات الدينية القديمة ، وَيَقْبِضُونَ على زمامِ روسية ، ولم تَلَبَثْ هذه الإمبراطورية العظيمة أن غَرِقَتْ في بؤس عميق .

ووقائعٌ مثلُ هذه مما يُبَلِّبُ العقل ، ولا رَيْبَ في أن لها عللها (ولعدم السِّيَاقِ عِلْلُهُ) ، ولكن تعيين هذه العِلَلِ هو من البُعْدِ والتعقيدِ أحياناً ما يُوضَعُ معه فوق وسائل التحليل .

* *

تنشأ الحوادث التي يتألف منها التاريخ عن عواملٍ مختلفة ، ومن هذه العوامل ما هو ثابت كالأرض والإقليم والعِرْق ، ومنها ما هو عارضٌ كالأديان والغزوات ، إلخ . . .

ومبدأُ العلة هذا هو من أكثر ما يَشْغَلُ بالَ الفلاسفة ، وَيَجِدُ أرسطو أربعةَ معانٍ مختلفةٍ لكلمة « العلة » ، وإذا ما نُظِرَ إليها من الناحية العملية وَجِدَ أنها تدلُّ على حادثة تؤدي إلى أخرى ، بَيَدَ أن المعلول لا يُعْتَمُّ أن يُصْبِحَ علةً بَدَوْرَهُ ، ويُرى العالم قد تألف من شبكةٍ ضروراتٍ يُمَثِّلُ كلُّ واحدةٍ منها معلولاً وعلّةً معاً .

وفي التاريخ تَبْلُغُ الحوادث من الانتظام ما يجب أن يُرْجَعُ معه إلى مَدَى بعيد جداً أحياناً ، وذلك لتعيين تعاقب العوامل التي أدت إليها .
ومن أعظم مافي معرفة التاريخ من مصاعب كون الحاضر الذي يكتنفنا ، ونراه جيداً ، صادراً عن ماضٍ بعيد لا نراه ، فيقتضى حُسْنُ

إدراك الحوادث أن يُرْجَع إلى سلسلة طويلة من العلل السابقة .
 وقليلٌ من الوقائع ما يمكن إفراده في التاريخ ، فمن الحوادث التاريخية
 وما تُشتقُّ منه تتألفُ سلسلةٌ متصلةٌ يتعذرُ فصلُ حلقاتها عنها ، فلو لا الحروبُ
 الأهلية في رومة لاستحال ظهور القياصرة .

وكان سببَ حرب سنة ١٨٧١ المباشرةً برقيةٌ دِبلُميةٌ ، وكانت مصادرها
 البعيدة معركةً بينا التي هي نتيجةُ الثورةِ الفرنسيةِ ، هذه الثورة التي هي
 نتيجةُ سلسلةٍ طويلةٍ من الحوادث السابقة ، ولو لا بينا ما كنا لتعرف
 الوحدةَ السياسيةَ الألمانية على ما يحتمل ، هذه الوحدة التي أوجبت سِدَان ،
 وهكذا نجدُ أن نابليون الأول أعدَّ الصراعَ إذا ما رجعنا إلى سلسلة العلل ،
 وكان إنذارُ النمسة إلى صربية ، الذي هو حادثٌ أوَّلِيٌّ للحرب العظمى ،
 نتيجةُ سلسلةٍ طويلةٍ من الوقائع لا يمكن إدراكه بغيرها ، وكانت عللها
 المباشرة ، وهي ما حدث من جدلٍ بين صربية والنمسة ، وما تبع ذلك
 من إعلان النفي العامِّ في روسية إلخ . ، من قلة الأهمية ما كان الدبلوماسيون
 يأملون معه منع وقوع الصِّراع ، ولم تكُ جهودهم مُجدية ، وذلك لأنه كان
 ينتصب خلفَ العلل الحاضرة الضعيفة عاملُ القوي المتراكمة نحو غرضٍ
 واحد منذ زمن طويل والتي كانت من شِدَّة الوَطءِ ما لا تدلُّه جهودُ
 التسكين .

وإذا ما اقتصر المؤرخُ في البحث عن مصادر الحرب الأوربية على
 المفاوضات الدبلوماسية ، التي أسفرت عن انقضاض بعض الأمم الأوربية الكبرى
 على بعضٍ ، لم يدرك شيئاً من تكوين هذه السكارثة الهائلة ، وهو يقول

في نفسه سائلاً لا ريبَ : إذا كان جميعُ هؤلاء الأقطاب قد انتهوا إلى الحرب على الرغم من جهودهم الواضحة التي تَهْدِفُ إلى حِفْظِ السَّلْمِ أَفْلا يكونون قد أُصِيبوا بجنون ؟ لقد نشأ عن سلسلة من العلل البعيدة وجودُ قُوَى أَشَدَّ من إرادتهم ، ومن العبث أن نَحْرَجَ كوا لإبقاء سَلْمٍ كانت تَفِرُّ منهم سريعاً ، ومن العبث أن أَبْدُوا يأساً عميقاً عندما ظهرت هُوَّةٌ مُقَدَّرَةٌ مفتوحة أمامهم ، فما كانوا ليسيظروا على الحال ماداموا غيرَ مؤثِّرين في الماضي .

ويَفْدُو التاريخُ أمراً مستحيلاً إذا ما وَجَبَتْ دراسةُ تعاقبِ العلل البعيدة التي تُعَيِّنُ كُلَّ حادثةٍ ، ولذلك يجب أن يُسَلِّمَ بدراسة العلل المباشرة ، ثم يبحثُ مُوجِزٍ في العوامل العامة التي كانت ذا أثرٍ في تكوينها زمنًا طويلاً ، أَجَلٌ ، تتألف حوادثُ التاريخ من الوقائع غيرِ المنتظرة كقيام أديان عظيمة قادرة على تغيير الحضارة وخضوع أوربة لضابط بسيط صار إمبراطوراً ، ولكنه يشاهدُ بجانب هذه الانقلابات العارضة تسلسلٌ على شيء من الانتظام في تطور الأمم ، وتَدَبُّعِ العناصرِ الأساسية للحياة الاجتماعية ، كالنظم السياسية والتملك والأسرة إلخ . ، سيراً وثيقاً كالذي تتحول به الخَلِيَّةُ الدنيا إلى بَلُوطةٍ خضراء ، فحالُ الأمة الحاضر يُعَيِّنُ بتعاقبِ أحوالها السابقة ، ويَخْرُجُ الحاضر من الماضي كما يَخْرُجُ الزهرُ من البذر .

* * *

وفي دَوْرٍ بعيدٍ قليلاً ، حين لَخَّصَ بوشويه مبادئَ زمنه في الكون والإنسان في رسالة مشهورة ، كان يُمكنُ فلسفةَ التاريخ أن تُصاغَ في بضعة أسطر

فيقال : إن قدرة صمدانية قاهرة كانت توجه مجرى الأمور وتُنظّم مصيرَ المارك فلا تقع أيةُ حادثةٍ خارجَ إرادتها .

وقد عدلَ العلماء عن هذا المبدأ على العموم ، ومع ذلك لا يزال منتشرًا ، ومن ذلك أن صرّح أحدُ رؤساء الوزارة البريطانية منذ سنينَ قليلةٍ ، من فوق المنبر ، بأن الحكمة الربّانية قصّت علانيةً بأن تحكّم إنكلترة في العالم ، وقبّل ذلك بقليل كانت هذه الحكمة الربانية قد فوّضت إلى الألمانية تمثيلَ هذا الدور كما قال إمبراطورها .

ومع أن تأثير العزائم الربّانية الموجهة لسير العالم لا يزال حيًّا في حياة الأمم يزول بالتدرّج أمام الجبرية التي تبصّر في الضرورة ما يسيرُ الأمورَ من روح .

وبما أن التاريخ ليس علمًا ، بل مرُكّبٌ من علوم مختلفة ، فإن مبداه يختلف بين جيلٍ وجيلٍ وبحكم الضرورة ، وتتضمن فلسفته الحاضرة ، بفضل مبتكرات العلوم ، بعضَ المبادئ الجوهرية في تطور العالم وطبيعة الإنسان ، وهكذا حَمَلْنَا على دَرَسِ موضوعاتٍ لا تُرى في كتب التاريخ عادةً وإن كانت أسسه الحقيقية .

* * *

وإلى دَوْرٍ حديثٍ نسبيًا ، مادام لا يفصلنا عنه غيرُ قرنٍ ونصفٍ قرنٍ تقريبًا ، كانت معارفنا ، فيما خلا مِنطقةَ الرياضياتِ والفلكِ ، لا تُجاوِزُ على الإطلاق ما يُعلّمهُ أرسطو تلميذه الملكيّ الإسكندرَ منذ أُنِي عام ، فكان يعدُّ الهواه والنار والتراب والماء ، دائمًا ، عناصرَ مُكوّنةً للعالم ، وكان

لا يَحْظُرُ بِيالٍ أَمْرُ الكَهْرَبَا وَالبَخَارِ وَجَمِيعِ القُوَى الَّتِي تَسِيطِرُ عَلَى النِّشَاطِ الحَدِيثِ ، وَكَانَ يَظَلُّ مَجْهولًا عَالَمُ الكَمِيَةِ الصَّغْرَى ، وَكَانَ يَبْقَى غَيْرَ مَعْرُوفٍ أَمْرُ المَوْجُودَاتِ الَّتِي ظَهَرَتْ عَلَى الكُرَّةِ الأَرْضِيَةِ قَبْلَ الإِنْسَانِ وَأُلُوفُ مَا قَبْلَ التَّارِيخِ مِنَ السَّنِينَ الَّتِي مَضَتْ قَبْلَ فِجْرِ الحَضَارَاتِ ، وَكَانَتْ الكُتُبُ الدِّينِيَّةُ تُبَسِّطُ تَارِيخَ كَرْتِنَا تَبْسِيطًا عَظِيمًا فَتَقُولُ مُؤَكِّدَةً إِنَّ إِلَهًا قَادِرًا أَخْرَجَ الأَرْضَ ، مِنْذُ سِتَّةِ آلَافِ سَنَةٍ فَقَطْ ، مِنَ العَدَمِ بَعْتَهُ مَعَ جَمِيعِ المَوْجُودَاتِ الَّتِي تَسْكُنُهَا ، وَكَانَ الفِلاسِفَةُ يَجْهَلُونَ وَحَشِيَّةَ جَيْلِ الكَهُوفِ فَيُعْجَبُونَ بِكَمَالِ المَجْتَمَعَاتِ الفِطْرِيَّةِ الخِيَالِيَّةِ ، وَكَانَ نَظَرِيوُ الثَّوْرَةِ الفَرَنْسِيَّةِ يَزْعُمُونَ إِعَادَتَهُمُ العَالَمَ بَعْنَفٍ إِلَى دَوْرِ السَّعَادَةِ الوَهْمِيَّةِ ذَلِكَ .

بَدَّدَ العِلْمُ جَمِيعَ هَذِهِ الأَوْهَامِ ، وَجَدَّدَ تَجْدِيدًا تَامًا أَفْكَارَنَا حَوْلَ أَصْلِ الأَرْضِ وَالبَشَرِ ، وَحَوْلَ حَوَادِثِ الحَيَاةِ وَتَطَوُّرِهَا ، وَحَوْلَ قَرَابَةِ الإِنْسَانِ مِنَ الحَيَوَانَ وَأَصْلِهِمَا المُشْتَرِكِ .

* * *

وَسُرْعَةُ تَحَوُّلِ الأَفْكَارِ العَجِيبَةُ مِنْ خِصَائِصِ الجَيْلِ الحَاضِرِ ، فَتَوَلَّدَ هَذِهِ الأَفْكَارُ وَتَنَمَّوْا وَتَدَوَّرُوا وَتَمَوَّتْ بِسُرْعَةٍ خَارِقَةٍ لِلْعَادَةِ ، وَتَلَاخَظَ هَذِهِ الدَّوْرَةَ فِي جَمِيعِ حَقُولِ المَعْرِفَةِ .

وَفِي عِلْمِ الحَيَاةِ تُتْرَكُ مَبَادِيُّ تَحَوُّلِ المَوْجُودَاتِ بِتَطَوُّرٍ مُسْتَمِرٍّ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ تُؤَثِّرُ فِي عَالَمِ العِلْمِ تَأْثِيرًا عَمِيقًا مِنْذُ نِصْفِ قَرْنٍ تَقْرِيْبًا ، وَيَحُلُّ مَحَلَّهَا مَبْدَأُ التَّحَوُّلاتِ المُفَاجِئَةِ .

وظَهَرَتِ التَّحَوُّلاتُ فِي الفِيزِيَاءِ أَعْبَدَ مَدَى ، فَقَدْ أَصْبَحَتْ ذَرَّةُ قَدَمَاءِ

الفزيويين الجالدة نظاماً شمسياً مُصَغَّرًا ، وَيَخْمَرُ الأثيرُ ، الذي عُدَّ عنصراً
جوهرياً لنقل النور ، وجوده ، وتُسْتَبَدَلُ به مؤقتاً معادلاتٌ لا تُظْهِرُ شيئاً
من الجواهر الذي يَصْلُحُ سَنَدًا لها .

وَتَحَوَّلَ علمُ الفلكِ الثابتُ تحولاً عظيماً ، فبعد أن كان يَعتَقِدُ بلوغه
حدودَ الأشياءِ يُظْهِرُ اليومَ خلفَ هذا السَّكُونِ المحدودِ أوفَ العوالمِ
البالغةِ الاتساعِ .

* *

ومن أهمِّ اكتشافاتِ العلمِ الحديثِ إقامةُ مبدأِ التقلبِ مقامَ مبدأِ
الثباتِ ، وقد خَسِرَتِ الأرضُ والموجوداتُ التي تسكنها ثباتهما الموهومَ ، وهما
يُمَثِّلَانِ مبانيَ تَحْرَبُ وتَتَجَدَّدُ ، وأبديَ تَقَلُّبِ العالمِ الدائمِ هذا من سُنَنِ
وجوده الأساسيةِ .

ولم تكن التحولاتُ في التاريخِ بالغةً ذلك العُمقِ ، ولكنه إذا ما نُفِذَ
في مِنطَقةِ الأسبابِ المظلمةِ ظَهَرَ أن أسبابَ الحوادثِ الحقيقيةِ تختلفُ كثيراً عن
التفسيرِ الوهميةِ التي عُدَّتْ عقائدَ قروناً طويلةً .

ومع ذلك لا يُمكنُ أن يطالِبَ التاريخُ بضبطٍ كالذي أخذت العلوم
تُحَقِّقُهُ ، وإذا ما نُظِرَ إلى طبيعةِ ذكائنا وُجِدَ أننا لا نُبْصِرُ هذا العلمَ إلا
على شكلِ حوادثٍ منفردةٍ ، ولا يُمكنُ أن يُدْرَكَ على وجهٍ يختلفُ عن
ذلك إلا من قِبَلِ ذكاءٍ يكون من السُّموِّ ما يُبْصِرُ معه كلَّ حادثٍ تاريخي
محاطاً بسلسلةٍ من العللِ التي أوجدهتُه ومن النتائجِ التي عَقَبَتْه ، وبما أن

دماغنا لم يُكَوَّنْ لإدراك مثل هذا المجموع فإنه لا بُدَّ من التسليم بإدراك
نُبْدٍ من الأمور .

* * *

وُجِدَ التاريخُ بترجيعاتٍ من الروح البشرية متأثرةً بعواملٍ شتى ، غير
أن طبيعة هذه الروح لا تكاد تكون معروفةً حتى الآن ، ولم يُوفَّقْ علم
النفس ، الذى هو أساسُ جوهرىٌّ لمعرفة التاريخ ، لغير إيضاح داراتها
حتى الآن .

ومن بين النتائج التى أوجبت تحويلَ إدراكنا للتاريخ يجب أن يُذكرَ ،
على الخصوص ، إدراكُ الحياة الباطنية التى بَحَثَ فيها علم النفس الحديث .
ومع أن هذا العلم لا يزال ابتدائياً إلى الغاية فإنه يساعد بالتدرج على
تغيير الآراء التى عُدَّتْ حقائقَ فيما مضى .

ومما كَشَفَه هذا العلمُ كَوْنُ اللاشعورىِّ ، الموروثِ أو المكتسبِ ، يُعَيِّنُ
عواملَ السيرِ غالباً ، وكوْنُ القُوَى الدينية والعاطفية ، التى هى أعلى من
القُوَى العقلية ، تهيمن على هذه المنطقه المظلمة ، وكوْنُ الوَحْدَةِ الذاتية
ليست غيرَ أمرٍ ظاهرٍ ، فهى تنشأ عن تراكيبٍ موقته تُجَهِّزُنَا بذاتيات
متعاقبة يسيطر كلُّ واحد منها تبعاً للحوادث ، وهكذا يكون ثباتُ الذاتيات
مرتبطاً فى ثبات البيئته .

ويدلُّ علم النفس ، أيضاً ، على أن خطأ الحكم فى الحوادث التاريخية
ينشأ ، على العموم ، عن كونه يُعزَى إليها تكوينٌ عقلىٌّ مع أنها تنشأ عن
عواملٍ عاطفيةٍ ودينيةٍ خاصة بكلِّ أمة ، عن هذه العوامل التى يظلُّ العقل

غير مؤثرٍ فيها ، وعلى أن المعتقدات الدينية ، والمعتقدات السياسية ذات الصبغة الدينية ، لا تقوم على العقول ، وعلى أن النفسية الجمّعية تختلف عن الذاتيات التي تتألف منها اختلافاً تاماً فلا يكون للعوامل المؤثرة في الكائن المنفرد أى تأثير في عين الفرد عندما يكون جزءاً من زمرةٍ لوقتٍ ما ، وعلى أن الأغاليط التي عدت حقائقٍ مثّلت في حياة الشعوب دوراً يجاوز أحياناً دورَ الحقائق الأكثر استقراراً .

وإذا عدوت قصة الحقائق التي تؤلف ناحية الحضارات المادية وجدت التاريخ يشتمل ، كذلك ، على دراسة الأوهام الدينية والسياسية التي وجهتها ، وما فتى تأثير هذه الأشباح العظيمة يكون وطيداً في العالم الحديث كما في العالم القديم ، وقد قلبت إمبراطوريات قوية ، وستقلب أخرى لا ريب ، إيجاداً لها أو قضاءً عليها .

ولا ينبغي لتقدم العقل أن يحمل على نسيان شأن الأوهام البالغ في حياة الأمم ، فالأوهام قد أوجدت آمالاً معزّيةً ومنحت الإنسان قوة سيرٍ لم يؤد إليها أى عامل عقليّ ، وهكذا ظهر غير الحقيقيّ موجباً كبيراً للحقيقيّ .

* * *

وإذ لم تكن فلسفة التاريخ غير آخر فصلٍ لفلسفة الكون العامة فإننا انتهينا إلى عرضٍ سريعٍ لبعض المبادئ الجديدة التي يسمّح تقدم العلوم بصوغها .

وإننا ، بدلاً من عزل الإنسان عن الماضي العظيم الذي هو إزهاره له ، ربطناه بمجموع الموجودات التي سبقته في سيّارتنا فأظهرنا أن العالم المعدنيّ

والعالم النباتيّ والعالم الحيوانيّ مراحلُ متعاقبةٌ لمجموعٍ واسعٍ ، فإدّة الأزمنةِ الأولى الجامدةُ ، التي هي تكأُفٌ بسيطٌ للطاقة ، تحولت تحولاً بطيئاً ، وابتقالاتٍ غير محسوسة ، إلى مادة حية ، وإلى مادة مفكرة في آخر الأمر . وبيانٌ مثلُ هذا كان ضرورياً لعرض التحولات العميقة التي تمّت في الفكر البشريّ حول مبادئٍ عدتْ خالدةً فيما مضى فكانت تصلح أسساً لتفسير التاريخ .

وبما أنّي لا أستطيع أن أُبين في هذا الكتاب جميعَ عناصر فلسفة التاريخ فإنني أردتُ دراسته إلى الأقسام الأربعة الآتية ، وهي :

(١) مباحثُ علميةٌ مؤدية إلى تغيير الأفكار القديمة حول حوادث الحياة وأصل الإنسان وتطور العناصر التي تكوّن منها تغييراً تاماً .

(٢) مبادئ متعاقبةٌ للمؤرخين حول مختلف وقائع التاريخ .

(٣) مناهجُ تصلح لتمثّل حوادث الماضي وعلما .

(٤) مباحثُ في شأن عوامل التاريخ العظيمة ، كالمعتقدات الدينية والسياسية والمؤثرات الاقتصادية ، إلخ . ، حول تقلبات الذاتية .

وإنا ، إذ ندرّس الفرضيات التي يُسوِّغ العلم صوغها حول القوى المُبدعة للكون وحول أصل العالم وعدم ثباته وطبيعة الإنسان وحوادث الحياة وأصل نشاط الموجودات والحياة الغريزية ، إلخ . ، نبصّر المذاهب القديمة التي عاشت الروحُ بها حتى الآن فازدهرت مناوبةً ثم استبدلتُ بها مبادئٌ جديدةٌ تماماً .

والتاريخُ إذ يقوم على هذه الأسس العلمية ينطوي على فائدةٍ غير

منتظرة ، فهوى يعرّض مُرَكَّبًا لجميع المعارف حَوْل الكَوْن والإنسان ،
وهكذا نساعد على وَضْع فاسفةٍ للطبيعة ، ومن ثمَّ للتاريخ ، تختلف عن
الفلسفات التي سبقها اختلافًا تامًّا .

البَابُ الْأَوَّلُ
فلسفة الكون الحاضرة
تقلب العالم وتطوره

الفصل الأول

القوى المُبدِعة

طبيعة الإنسان وحدودُ معارفنا الحاضرة

تعانى المبادئُ الأساسيةُ التي تَفدَى بها الفكرُ البشرىُ زمنًا طويلًا ، وذلك حَوْلَ أصلِ العالمِ وطبيعةِ الإنسانِ وقوى الكونِ المُبدِعةِ ، تحولاتٍ تامةٍ ، وإذ كان اكتسابُ معارفٍ علميةٍ جديدةٍ حَوْلَ هذه الموضوعاتِ يُوَدِّى ، على وجهٍ غيرِ مباشرٍ ، إلى تحولاتٍ مهمةٍ فى مبادئنا التاريخيةِ فإننا نُلَخِّصُ بعضَ هذه المبادئِ فى بضعِ كلماتٍ فنقولُ :

إن أولَ هذه المبادئِ القديمةِ التي قضى عليها العِلْمُ هو ما كان خاصًّا بِخَلْقِ العالمِ ، والعالمُ هو ما أخرجهُ مختلفُ الأديانِ من العدمِ طَوْعًا بِإِرادَةِ خالقٍ .

وعنعناتٌ متماثلةٌ لدى جميعِ الأممِ كانت تقولُ ، كذلك ، بأن الإنسانِ خُلِقَ خَلْقًا خاصًّا فَصِلَ به عن الموجوداتِ الأخرى فصلًا صريحًا ، وذلك أن خالقًا قادرًا أنعم عليه بالعقلِ مع روحِ خالدةٍ ، وأن الموجوداتِ الأخرى لم تَحْزُ غيرَ غرائزِ آليَةٍ لتَسِيرَ فى الحياةِ .

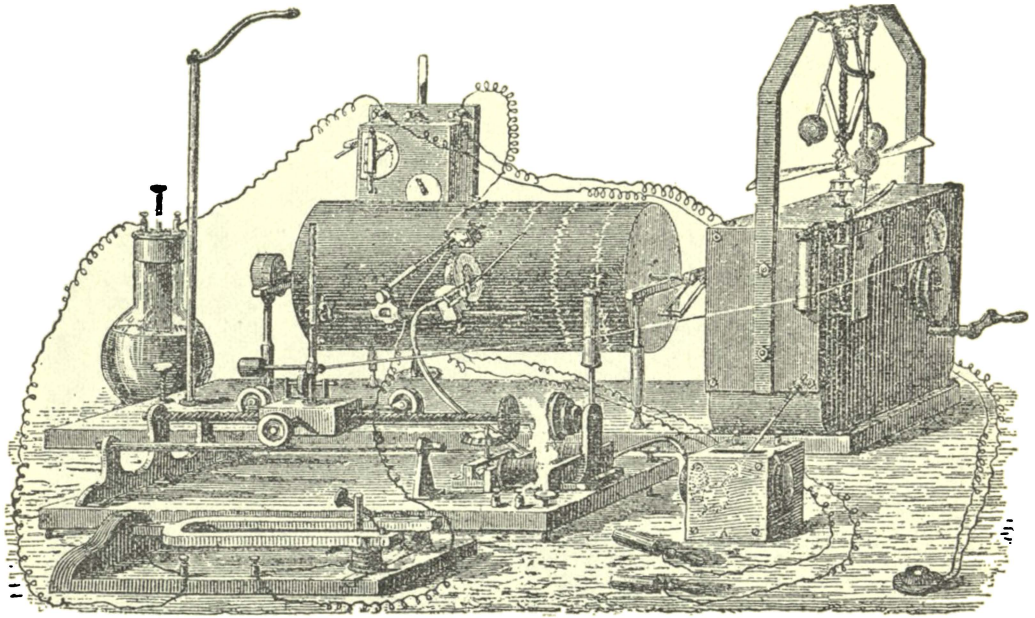
والعِلْمُ ، بعد أن أقصى الأرضَ إلى المرتبةِ الوضيعةِ التي تَشَعُّلُها فى العالمِ ، لم يُعْتَمَّ أن رَبَطَ الإنسانِ بسلسلةِ الموجوداتِ الطويلةِ التي سَبَقَتْهُ . وقد عَقَبَتْ نظريةُ التطورِ بالتحولاتِ المتعاقبةِ قديمَ الأفكارِ حَوْلَ التكوِينِ

ذاهبةً من مِكرُوب الأجيال الأولى حتى الإنسان ، وهكذا حَلَّ مبدأ التقلب محلَّ مبدأ الثبات القديم بالتدرّج .

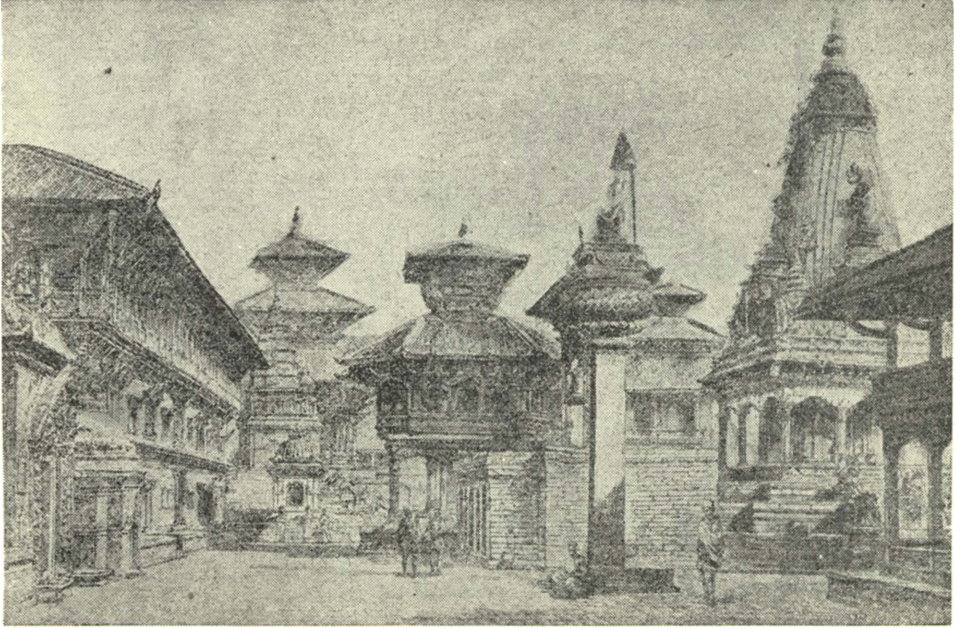
وكانت الموجوداتُ الأولى قد كوَّنت من خَلِيَّاتٍ بسيطةٍ صغيرةٍ إلى الغايةِ مشابهةٍ لِلْمِكرُوباتِ الحاضرةِ ، وهي لم تَلَبَثْ أن أدت إلى نباتاتٍ أكثرَ تعقيداً ، ثم إلى حيواناتٍ مختلفةٍ كالزَحَّافاتِ والأسماكِ التي كان بعضها من الضخامة والقوة ما يُبيدُ معه الأخرى ، وكان للملكِ الخَلْقِ المُوقَّتَيْنِ هؤلاءِ وجودٌ ذو دَيْمُومَةٍ بالغةِ الطولِ أحياناً ، ولكن من غير أن تمتدَّ امتداداً مطلقاً ، وإذا نُظِرَ إلى الأرقامِ التي قدَّمها مدير المتحف ، مسيو إ . بيير ، وَجِدَ : « أن العقارب وكراب البحر تَثَبَّتْ نحو اثني عشرَ مليونَ سنة ، وأن الخنافس البحرية الكبيرة تَرْتَقِي في خمسةَ عشرَ مليونَ سنةٍ ثم تضمحلُّ ، وأن خنافس الدقيق أُبِيدَتْ في آخر الأمر من قِبَلِ أصدافٍ أخرى تُعرَفُ بِالْبِلِينِيَّتِ » .

وتَلُوحُ آلافُ سِنِي الحاضرةِ الثمانيةُ قصيرةِ الأمدِ بجانب مثل تلك الأرقام . وظَهَرَ من المباحث الأخرى أنه يجب أن يُضَافَ ما بين خمسين ألفَ سنةٍ ومئةِ ألفِ سنةٍ على الأقلِّ ، تُعرَفُ بما قبل التاريخ ، إلى ما بين ثمانيةِ آلافِ سنةٍ وعشرةِ آلافِ سنةٍ تُعرَفُ بسِنِي التاريخ .

وكان لا بُدَّ لِلإنسانِ من جميع ذلك الزمن حتى يَتَخَلَّصَ ببطءٍ من العالمِ الحيوانيِّ الذي خَرَجَ منه ، وبما أنه كان يَجْهَلُ الزراعةَ والمعادنَ في ذلك الدَّوْرِ ، وبما أنه كان لا يَمْلِكُ من الأسلحةِ غيرَ قِطْعٍ من الصَّوَّانِ منحوتةٍ



الصورة الثانية - آلات المؤلف التي يقاس بها تقلب الذاتيات البيولوجية
المطابقة لتحول الذاتيات النفسية



الصورة الثالثة - مزيج من فن البناء يدل على تأثير العروق الأجنبية ، ميدان بهات غاؤن ،
التقط المؤلف صورته في أثناء رِياده نيبال، تدل هذه المباني على المؤثرات الصينية أول وهلة .

نحتاً غليظاً ، وبما أنه لم يكن له من المساكن غير المَعَاوِرِ ، فقد رَسَم مبادئ عظمتِه القادمة رسماً خفيفاً .

* * *

وعلى الرغم من جميع الاكتشافات لا تزال تُوجَد ، كما يُلَوِّح ، هُوَّةٌ لا تُمَلَأُ بين الحيوان والإنسان ، ولا بُدَّ من أن تُقَطَعَ مَسَافَةٌ جَدِيدَةٌ من الفكر لِيُعْرَفَ هل يختلفان ذكاءً ، ويقوم هذا التفاوت على مقدار هذا الذكاء ، لا على طبيعته .

وفي العلم الحديث أن الإنسان عاد لا يكون غيرَ آخِرِ حَدِّ لسلسلةٍ طويلةٍ من الموجودات التي ظهرت قبله ، وهو إذا كان يَفُوقُهَا في مِنطَقة الحياة العقلية بَقِيَ مساوياً لها في مِنطَقة الحياة العضوية ، وهو لا يمتاز منها إلا قليلاً في مِنطَقة الحياة العاطفية كما نذكر ذلك في فصلٍ آتٍ .

وتلوح الفروق العقلية التي تَفْصِلُ الإنسان عن الحيوان واسعةً عند مقابلتنا بين المتمدّن والحيوانات التي بَقِيَتْ ضِمْنَ دوائر التطور الأدنى ، وتزول الفروق ، أو تَخَفُّفٌ على الأقل ، إذا لم يقابلُ بين الحيوانات والإنسان الحاضر ، بل بينها وبين أجداده الذين عاشوا في الكهوف قرونًا طويلةً ، وذلك في وَسَطِ ذوات الثُدَيِّ التي كانوا لا يمتازون منها إلا قليلاً .

ويلوح أن المجتمعات الابتدائية التي تألفت من أجدادنا الفطريين لم تكن حائزةً لبنيةٍ أرقى كثيراً من البنية التي أظهرتها المباحثُ الحديثة في مختلف مجتمعات الحيوان .

والعلمُ ، بعد أن أهملَ دراستها زمنًا طويلًا ، انتهى إلى اكتشافه فيها

بِنِيَاتٍ مُحْكَمَةً جَدًّا وَسُنَنًا خُلُقِيَّةً وَثِقَةً إِلَى الْغَايَةِ وَبَعْضَ الْقَابِلِيَّاتِ الَّتِي تَنِمُّ عَلَى أَوْجِهِ مِنَ الذِّكَاءِ كَانَ الْإِنْسَانُ يُجْهَلُهَا فَيَدْعُوهَا بِالغَرِيْزَةِ عَنْ عَدَمِ إِيْضَاحِ لِلْأَمْرِ ، وَلَا يَبْدُو كَثِيرًا مِنْ مَجْتَمَعَاتِ الْحَيْوَانِ أَدْنَى مِنْ بَعْضِ الْعَشَائِرِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ كَعَشَائِرِ إِفْرِيْقِيَّةِ الْوَسْطَى مِثْلًا .

وَكَانَتِ الْهُوَّةُ ، الَّتِي افْتَرَضَتْ بَيْنَ مَجْتَمَعَاتِ الْإِنْسَانِ وَمَجْتَمَعَاتِ الْحَيْوَانِ ، تَنْشَأُ ، إِذَنْ ، عَنْ نَقْصِ الْمَلَاخِظَةِ فَقَطْ .

* * *

كَانَتِ الْمَبَادِئُ الْقَدِيمَةُ عَنْ خَلْقِ الْعَالَمِ وَطَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ تُشْتَقُّ مِنَ الْمَعْتَقَدِ الْعَامِّ ، لَدَى جَمِيعِ الْأُمَمِ وَفِي جَمِيعِ أَدْوَارِ تَارِيخِهَا ، الْقَائِلِ إِنْ الْأَرْضَ وَالْبَشَرِيَّةَ كَانَتَا تُسَيَّرَانِ مِنْ قِبَلِ مَوْجُودَاتٍ عُلُويَّةٍ مُسَيِّطِرَةٍ عَلَى الْكُونِ .

وَفِي أَيَّامِنَا انْتَهَى الْفِكْرُ الدِّينِيُّ وَالْفِكْرُ الْعِلْمِيُّ إِلَى اتِّبَاعِ اتِّجَاهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ اخْتِلَافًا بَيِّنًا ، فَفِي الْمَبَادِئِ التَّقْلِيدِيَّةِ يُوجِبُهُ الْعَالَمَ دَائِمًا آلَهُةٌ مَهِيْمُونَ مُجْبِرُونَ ، وَفِي الْمَبَادِئِ الْعِلْمِيَّةِ اسْتُبْدِلَ بِهِؤْلَاءِ الْآلَهُةِ الشَّخْصِيْنَ قُوَى غَيْرُ شَخْصِيَّةٍ يُمَكِّنُ تَذْلِيلَهَا .

وَكَثِيرٌ مِنَ الْمَشَاهِدَاتِ يُثَبِّتُ أَنْ التَّقَلُّبَ وَالتَّحْوِيلَ كَانَا شَرْطَيْنِ ضَرُورِيَيْنِ لِجَمِيعِ عُنَاصِرِ الْكُونِ بَدْءًا مِنَ الصَّخْرَةِ الَّتِي كَانَ يَلُوحُ تَمَحُّدِيَّهَا لَسَيْرِ الْأَزْمَانِ حَتَّى النُّجُومِ السَّاطِعَةِ الَّتِي تَتَلَأَلُ لَيْلًا ، فَالطَّبِيعَةُ لَا تَعْرِفُ السَّكُونَ ، وَمَا كَانَ الْمَوْتُ نَفْسُهُ لِيَضَعَ حَدًّا لِمَا يَعَانِيهِ جَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ مِنْ تَمَحُّوْلَاتٍ مُسْتَمْرَةٍ تَعُدُّ شَرْطًا أَسَاسِيَّةً لِتَطْوَرِهَا ، وَكَانَ الْمَوْتُ ، إِذَا مَا نَظَرَ إِلَيْهِ عِلْمِيًّا ، أَى إِذَا مَا قُطِعَ النَّظَرُ عَنِ الْمَعْتَقَدَاتِ الدِّينِيَّةِ ، يَلُوحُ فِيهَا مَضَى فَنَاءً نَهَائِيًّا ،

ويصبح الموت شكلاً جديداً للحياة إذا ما نُظِرَ إلى النظريات الجديدة التي تُعدُّ الشخصيةَ مجموعةً من الذاتيات الموروثة عن الأجداد .

* * *

والكونُ ، كما يَتَمَثَّلُه العلم في الوقت الحاضر ، يُلوح مؤلفاً من سلسلةِ ضروراتٍ تُعَيِّنُ تطوَرِ الموجودات والحوادث .

وشأنُ الوجوب ، كعنصرٍ مُبدِع ، يَبْدُو في جميع حوادث الطبيعة . ومع ذلك فإن هذا المبدأ الحديث لا يطابق مبدأ القَدَرِ القديمِ مطلقاً ، وإنما يَعْنِي أن كلَّ حادثةٍ مُعَيَّنَةٌ ببعض العلل تعيناً وثيقاً فقط .

ويتحول الفحمُ الأسود إلى ألماسٍ ساطع بحكم الضرورة إذا ما ظهر بعضُ شروط البيئة ، ويصبح الماء مائعاً أو جامداً أو بخاراً بفعل بعض العوامل الثابتة .

ومع ذلك فإن مبدأ الوجوب هذا لا يَتَضَمَّنُ تبسيطاً للحوادث ، وفي الحقيقة أن تفسيرها أكثرُ تعقيداً مما في الزمن الذي كانت الحكمةُ الربانيةُ تُقدِّمُ فيه إيضاحاً شاملاً للأشياء .

والعلمُ ، إذ يَعْجِزُ عن الإبداع ، يستطيع فقط أن يُنظِّمَ الضرورات التي تُعَيِّنُ حدوثَ الموجودات أو الأشياء ، وهكذا يعالج أمرَ الحرارة والكهربا والحياة من غير أن يَعْرِفَ شيئاً عن طبيعتها ، وأما عن الإيضاحات فيقتصر العلم على القول :

إن الحرارة قوةٌ مجهولةٌ في جوهرها قادرةٌ على تمديد الأجسام فُتَقَّاسُ بدرجة هذا التمدُّد ، وإن الثَّقَلِ قوةٌ مجهولةٌ في جوهرها قادرةٌ على جَذْبِ

الأجسام فيقاس بطاقة هذا الجذب ، وإن الكهرا قوةٌ مجهولةٌ في جوهرها ،
 قادرةٌ على إحداث بعض النتائج الضيائية الحارّة ، إلخ . ، فتُقاسُ ، أيضاً ،
 بشدة هذه النتائج ، فهذه المشاهداتُ تدلُّ على حدِّ معارفنا ، ولا يزال حقلُ
 العِلل مُغلَقاً .

* * *

وكان علمُ الهيئة لا يُحصي غيرَ بضعةِ آلافٍ من الكواكب في الفلك ،
 فاكتشف الملايين منها ، ويزيدُ هذا العددُ كلَّ يومٍ بزيادةٍ إتقانِ مناهجِ
 الرصد ، وتُدفعُ حدودُ الكونِ إلى الوراء دائماً ، والآن يجب أن يُفترَضَ
 الكون بلا حدود ، أى بلا أول ولا آخر .

وهل العالمُ مُسيَّرٌ بجبريةٍ مطلقةٍ مُلخّصةٍ بفرضيةٍ لِبَلاَسِ القائلةِ :
 يستطيع ذكاءٌ كافٍ أن يقرأ في السديمِ جميعَ الحوادثِ المتعاقبةِ في التاريخ ؟
 لامناصَ من السّير كما لو كانت هذه الفرضيةُ غيرَ موجودةٍ وإن أُثبتت .

والنجومُ ، إذ تعاني سنّةَ التطور التي تقضى على كلِّ شيءٍ بالتحوّل ، تواجهُ
 أطواراً من النشوءِ بحكمِ الضرورةِ متفاوتةً إلى الغاية ، ومنذ الآن يلوح ، على
 ما يحتمل ، كَوْنُ الموجودات التي تَسْكُنُ سطحها قد جاوزت ، أيضاً ،
 أدوارَ نشوءٍ متفاوتةً ، ولارِيبَ في أنه يُوجدُ بينها مَنْ ذكاؤه بالنسبةِ إلى
 ذكاء الإنسان كذكاء الإنسان بالنسبةِ إلى ذكاء الحشرة .

وبما أن السلطان المطلق من خصائص العِلْمِ المطلق فإنه يجب أن تكون
 قدرةُ تلك الموجودات غيرَ محدودةٍ ، وبما أنها تستطيع أن تَطَّلِعَ على الماضي

بسهولةٍ كالتى تطلع بها على المستقبل فإنها تحوز معارفَ لا نكاد نبصِرُ
مداها .

ففى سِرِّ تلك المناطق البعيدة الذى لا يُدركُ يُمكنُ الإيمانَ الدينىَّ فى
أيماننا أن يصعَّ الآلهةَ الذين لم تستغنِ الروحُ البشرية عنهم قطَّ .

الفصل الثاني

حوادثُ الحياة

وأشكالُ الذكاء المجهولة

ليس للتاريخ أن يُعنى ببنية الموجودات التي يُسجّل أعمالها ، ومع ذلك فإن من المفيد أن تُبين باختصارٍ طبيعة معارفنا عن حوادث الحياة والفكر التي يُشتقُّ منها جميعُ الأفعال البشرية وتفسيرها .

ومن العادة ألاَّ تُدرَس ظواهرُ الحياة إلاَّ في الحيوانات والنباتات ، كأنَّ المولِدَ المعدنيَّ يَبقى خارجَ دائرة الحياة .

وما كان هذا التمييزَ لِيَسْتَمِرَّ بفضل تقدم العلم .

ألَفَّت الحياةُ من مُجملةِ ترديداتٍ يُعدُّ بعضها ، كالحاسية ، مشتركاً بين جميع الموجودات من الحجر حتى البَشَر ، على حين لا يشاهدُ بعضُ آخَرٍ منها ، كالفكر ، في غير الموجودات العليا .

والحاسيةُ هي أبسطُ حوادث الحياة وأعمُّها ، فهي موجودةٌ في كلِّ مادة ، وقد أثبتت الملاحظاتُ الدقيقة أن الأجسامَ البالغةَ الصلابةَ الفاقدةَ الحِسِّ ظاهراً ، كقضيب الفولاذ مثلاً ، تُردِّد بفعل ارتفاع الحَرِّ جزءاً من مليون درجة ، أي الحرارةَ التي تُحدِثها شَمْعَةٌ موضوعةٌ على مسافة عشرة آلاف متر .

وحاسيةُ المادة هي نتيجةُ ملائمةٍ سريعةٍ لتقلبات البيئة التي تحيط بها ،

فَعَيْنُ الْجِسْمِ يَكْتَسِبُ تَحْتَ مُخْتَلَفِ تَقَلُّبَاتِ الْبَيْئَةِ سُكْلًا مَائِعًا أَوْ غَازِيًّا أَوْ بَلُّورِيًّا أَوْ غَرَوِيًّا لِيَلْتَمَّ الْعَوَامِلَ الْخَارِجِيَّةَ .

وكذلك يُمَكِّنُ أَنْ تُعَدَّ مَظْهَرًا حَيَوِيًّا لِلْمَادَةِ حَرَكَةُ الْجُزَيْئَاتِ الْمُرَكَّبَةِ مِنْهَا الذَّرَاتُ الَّتِي تُؤَلَّفُهَا ، فَكُلُّ ذَرَّةٍ تُتَأَفُّ ، مَعَ صِغَرِهَا الَّذِي لَا حَدَّ لَهُ ، مِنْ جُزَيْئَاتٍ تَدُورُ حَوْلَ مَرْكَزٍ كَمَا تَدُورُ السَّيَّارَاتُ حَوْلَ الشَّمْسِ ، وَتَلُوحُ الْقِطْعَةُ الْمُؤَلَّفَةُ مِنْ صَخْرَةٍ غَيْرِ مُتَغَيِّرَةٍ ، وَهِيَ كَذَلِكَ فِي مَجْمُوعِهَا لَوَقْتٍ مَعِينٍ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَلَكِنْ لَا مِنْ حَيْثُ الْأَجْزَاءُ الَّتِي تَتْرَكِبُ مِنْهَا مَا دَامَتْ تَتَأَثَّرُ بِأَدْنَى تَقَلُّبَاتِ الْجَوِّ^(١) .

* * *

وَيَعْرِضُ الْعَالَمُ النَّبَاتِيُّ فِي الْحَالِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ ، وَهُوَ أَعْلَى مِنَ الْعَالَمِ

(١) يجد القارئ هذه المسائل التي يمكن أن تجتذبه مفصلة في كتابي « تطور المادة » ، فقد انتهيت بمباحثي ، التي دامت عشر سنين فنشرت تفاصيلها في ثمان عشرة مذكرة ، إلى النتيجة القائلة ، خلافاً لجميع الآراء المسلم بها ، إن المادة مكونة من تكاثف جسيم للطاقة التي عينت درجة اتساعها ، وقد جاءت مباحث كثير من علماء الفيزياء مؤيدة لهذه النتائج التي ألفت حيرة في البداية ، وهي تلخص في مقالة للأستاذ بوتاريك نشرتها الناتور في ١٥ من أبريل سنة ١٩٢٩ ، وتشتمل هذه المقالة على الأسطر الآتية وهي : « إن تجارب روتفورد جاءت بدليل صريح مؤيد للفرضية التي أتى بها غوستاف لويون للمرة الأولى والتي تنص على أن الذرات مبان متقلبة مشتملة على ذخيرة عظيمة من الطاقة الكامنة التي يمكن إطلاقها عند تحطيمها » .

وتدل مباحث علماء الفيزياء الحديثة على أن الذرة السابقة المركبة من عناصر بسيطة جامدة هي على العكس معقدة جداً .

ويتألف كل واحد من هذه العناصر من أجزاء كهربية سلبية صغيرة إلى الغاية تعرف بالإلكترونات الدائمة الدوران حول مركزهربي إيجابي يعرف بالبروتون ، وذلك كالسيارات التي تدور حول الشمس . ولذلك يكون أعظم جزء من الذرة فارغاً ، وقد حسب أنه إذا ما اقترب من النقطة التي يمكن جميع عناصر الذرات أن تماس عندها وجد أن حجم الرجل الشاب الذي يزن مئة كيلوغرام يكون دون حجم رأس الدبوس بمراحل ، غير أن رأس الدبوس هذا يزن مئة كيلو غرام دائماً ، ويبدو أن هذا التقريب بين الذرات يتم في نجوم كثيرة ، ولا سيما رقيق الأبرق .

ولذلك نكون كثافة المادة هنالك أعظم من كثافة الماء بمخمسين ألف مرة .

المعدنيّ ببعض التريديّات ، حوادثَ يَتَجَلَّى تَرَكيبُها في العالمِ الحيوانيِّ فقط ، وهذا الاختلافُ في الدرجة هو أصلُ الفرقِ بين العالمِ المعدنيِّ والعالمِ الحيِّ .

ويَبْدُو عاملاً الحركة العظيمة في الحيوانات ، وهما اللذة والألم ، رسماً ابتدائيّاً في العالمِ النباتيِّ .

فالنبات يبتعد عن الألم ويبحث عن اللذة عند ما يضايقه الظلامُ فيتنغلب على عوائقَ كثيرةٍ لِيَجِدَ شُعاعَ الشمسِ الذي يحتاج إليه والذي تقوم عليه هئأته .

وتقترن حوادثُ الحاسيةِ هذه بحوادثَ أخرى من ذات المرتبةِ كمثل المنازعات الابتدائية ، في سبيل البقاء ، التي تشاهدُ حَوَلَ جذور بعض الأشجار ، كالكسّناء مثلاً ، حين تَسِيرُ بعيداً لتُنَارِعَ النباتاتِ الأخرى في التراب ما هو ضروريٌّ لها من الموادِّ الغذائية .

وقد ابتدعتْ كلمةُ « التروبيّة^(١) » للدلالة على تحويل هذه الظواهر إلى أفعالٍ آليّة في زمنٍ كان العلمُ يقيم فيه حواجزَ بين المادة والحياة ، غير أن تلك الكلمة تدلُّ على معلولٍ ، لا على علة .

وبين هذه الحواجز التي أقامها العلمُ في أوائله كانت تَظْهَرُ الفروقُ التي أوجبها الخيالُ في البُداءِ بين الحيوان والإنسان ، واليومَ تزول شيئاً فشيئاً .

وللساواة بين الإنسان والحيوان تامةٌ من حيث الحياةُ العضوية ، وتتمُّ

جميع وظائف الحياة الفيزيولوجية ، كالدورة الدموية والهضم والتنفس ، إلخ . ،
لدى أحقر ذوات الثدي كما تتم لدى الإنسان .

أجل ، إن الفرق بين الإنسان والحيوان كبير في منطقة المشاعر والأهواء ،
غير أنه ليس بعيد المدى ، وما يسير الإنسان من غيرة وحقد وحب
وأهواء أخرى يوجه الحيوان أيضاً .

والحياة العقلية وحدها هي الفارق بين الحيوان والإنسان ، والمسافة
بينهما في منطقة الحياة العليا هذه هي من الاتساع ما يفسر به اعتقاد
الإنسان أنه موضع خلق خاص .

* * *

وتتخذ المادة شكلاً خلويًا دائماً لتكون حية ، ففي باطن هذه الخلايا
تتحول الحرارة والكهربا ومختلف القوى التي يديرها الهواء والأغذية إلى
طاقات لا بد منها لنشر الحياة .

ويسير بعض القوى ، التي تتألف الحياة العضوية منها ، مثل عوامل
عني كالجاذبية ، وعلى العكس تبدو قوى أخرى مدبرة ، ببصيرة عجيبة ،
أعمالاً أعلى ، بما لاحد له ، من التي يمكن أن يدركها ، لأن يحققها ،
أرقى العقول ، وهي إذا ما قيست بمستوى مداركنا البشرية دلت على ذكاء
مدبر خارق للعادة .

ويظهر أن ذكاء عالياً يدير العمل الخلوي ، وما كان لعالم ، ضمن
نطاق العلم الحاضر ، أن يفك معضلات الفيزياء والكيمياء الهائلة التي يوجد
لها حل بالخلايا الوضيعة في كل ثانية .

وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَاسَ أَيُّ مِنْ ذَوَاتِ الثُّدِيِّ بِمُصْنَعٍ وَاسِعٍ مُشْتَمِلٍ عَلَى
مِلْيَارَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْخَلَايَا الْمِكْرُوسُكُوبِيَّةِ يُمَثِّلُ كُلُّ زَمْرَةٍ مِنْهَا جَمِيعَةً مِنَ
الْعَمَالِ النُّشْطَاءِ^(١) ، وَقَدْ وُضِعَتْ هَذِهِ الزُّمَرُ تَحْتَ إِدَارَةِ مَرَاكِزٍ عَصَبِيَّةٍ
يُمْكِنُ أَنْ تُسَمَّى مَرَاكِزَ الْإِدْرَاكِ الْحَيَوِيِّ .

وَتَقُومُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الزُّمَرِ الْخَلَوِيَّةِ بِوُضُوفٍ مُخْتَلِفَةٍ مُعَيَّنَةٍ
تَمَامًا ، وَتُصَنَعُ جُمُوعٌ مِنْ صِغَارِ الْكِيمَاوِيِّينَ بَيْنَهَا ، بِلَا انْقِطَاعٍ ، مُرَكَّبَاتٍ
مُعَقَّدَةٍ فَتُوَزَّعُهَا أُخْرَى حَفْظًا لِلْأَعْضَاءِ .

وَالْعَمَلُ دَاخِلَ الْمُصْنَعِ الْعَادِيِّ سَهْلٌ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ عَامِلٍ يَقُومُ
بِذَاتِ الْأَعْمَالِ دَائِمًا ، وَأَمَّا فِي الْمُصْنَعِ الْحَيِّ فَعَلَى الْعَامِلِ أَنْ يُغَيِّرَ عَمَلَهُ
بِاسْتِمْرَارٍ تَبَعًا لِلْأَحْوَالِ ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ حَيَوَانًا إِذَا مَا حُقِنَ بِسُمِّ مَا أَمَرَتْ
مَرَاكِزُ عَصَبِيَّةٌ مَجْهُولَةٌ بَعْضَ الْخَلَايَا بِصُنْعِ مُرَكَّبٍ يُسَمَّى أَنْتِيكُورَ وَيَخْتَلِفُ
بِاخْتِلَافِ طَبِيعَةِ السُّمُومِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُدْفَعَ .

وَهَكَذَا نَفْتَرِضُ فِي الْخَلَايَا الْحَيَّةِ وَجُوهَ مَعْرِفَةٍ أُسْمَى مِنْ ذَكَائِنَا بِمَرَاكِلِ ،
وَلَكِنَ مَعَ الْاِقْتِصَارِ عَلَى أَغْرَاضٍ مُعَيَّنَةٍ .

وَلَا يَزَالُ نِظَامُ هَذِهِ الْقُوَى مَجْهُولًا لِدِينَا جَهْلَانَا لَطَبِيعَةِ الْقُوَى الَّتِي
تُفَجِّرُ مِنَ الْخَلَايَا الدِّمَاغِيَّةِ مَبَانِيَّ مِنَ الْفِكْرِ خَارِقَةً لِلْعَادَةِ .

* * *

(١) عِدَدُ هَؤُلَاءِ الْعَمَالِ الصِّغَارِ يَشِيرُ الْعَجَبُ ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ عِدَدَ كَرِيَّاتِ الدَّمِ يَتَرَجَّحُ بَيْنَ أَرْبَعَةِ
مِلْيَارَيْنِ وَخَمْسَةِ مِلْيَارَيْنِ فِي كُلِّ مِلِيْمَترٍ مَكْمَبٍ ، فَبَعْدَ أَنْ تَقْطَعُ مَا بَيْنَ الْقَلْبِ وَمُخْتَلَفِ الْأَعْضَاءِ مِنْ مَسَافَةِ فِي
مَرَّاتٍ تَتَرَجَّحُ بَيْنَ ٤٠٠٠٠٠٠ و ٥٠٠٠٠٠٠ تَكْدِرُنَ قَدْ خَمِئَتْ حَيَاتُهَا فِي الطَّحَالِ وَقَامَتْ مَقَامَهَا كَرِيَّاتٍ
جَدِيدَةٍ .

ويدلُّ علم الأجنَّة وعلم المُستحاثات على أن الأشكال الحاضرة عيَّنتُ بحالاتها السابقة ، فوجودُ كلِّ فردٍ يَبْدَأُ بِحَلِيَّةٍ مِمَّا لَتَى كَانَتْ نَقْطَةً بَدْءِ الحَيَاةِ فِي المَاضِي البَعِيدِ ، وَلَكِنْ مَعَ الفَارِقِ القَائِلِ إِنْ الطَّرِيقَ الَّتِي وَجَبَ مَرُورُ أَكْدَاسٍ مِنَ القُرُونِ لِمَجَاوَزَتِهَا تُقَطَّعُ فِي أَسَابِيعٍ قَلِيلَةٍ فِي رَجَمِ الأُمِّ ، وَلَا يَفْعَلُ المَوْجُودُ فِي حَالِهِ الجَنِينِيَّةِ غَيْرَ رَسْمِ أَشْكَالٍ مُتَوَسِّطَةٍ ثَبَّتَ أَمْرُهُ بِهَا فِي أَثْنَاءِ حَيَاتِهِ الموروثَةِ عَنِ الأَجْدَادِ .

ولست هذه العواملُ الخفية المسيطرةُ ، التي تَحْكُمُ عَلَى العَالَمِ بِأَن يَتَحَوَّلَ دَائِمًا ، غَيْرَ مَظَاهِرَ مُنْظَوْرَةٍ لِمُضْرُورَاتٍ غَيْرِ مُنْظَوْرَةٍ ، لَطَبِقَةٍ مَجْهُولَةٍ مِنَ الأُمُورِ تَجْمَعُهَا كَلِمَةُ الطَّبِيعَةِ .

ومع أن جميع الملاحظات التي يشتمل عليها هذا الفصلُ تَبْتَعِدُ عَنِ فِلسَفَةِ التَّارِيخِ ظَاهِرًا فَإِنَّهَا تَرْتَبِطُ فِيهِ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا ، وَهِيَ تَدُلُّنَا عَلَى مَقْدَارِ مَا وَجِبَ تَرَكَهُ مِنَ الأَزْمَانِ حَتَّى انْتَقَلَتْ ذَرَاتُ السَّيْمِ الإِبْتِدَائِيِّ ، الَّتِي يُشْتَقُّ مِنْهَا عَالَمُنَا ، مِنَ الحَيَاةِ المَعْدِنِيَّةِ إِلَى الحَيَاةِ المَفْكُورَةِ مَقْدَارًا فَمَقْدَارًا .

الفصل الثالث

أصلُ نشاطِ الموجودات

حياةُ الحيوانِ والإنسانِ غيرِ الشاعرة

يُمْكِنُ أَنْ تَرَدَّ عِلْلُ نَشَاطِ الْمَوْجُودَاتِ إِلَى وَاحِدَةٍ ، وَهِيَ الرَّغْبَةُ فِي بُلُوغِ اللَّذَّةِ وَاجْتِنَابِ الْأَلْمِ ، وَلَيْسَ مِنَ الْعَبَثِ ، إِذَنْ ، أَنْ يُدْرَسَ تَأْثِيرُ الْعُنْصُرِ النَّفْسِيَّةِ الْمُحَرِّكَةِ لِأَفْعَالِنَا فِي كِتَابٍ خَاصٍّ بِالتَّارِيخِ .

وَقَدْ يَبْدُو هَذَا الزَّعْمُ حَوْلَ الْمَبْدِئِ الْأَوَّلِيِّ لِكُلِّ نَشَاطٍ ثَقِيلًا أَوَّلًا وَهَلَةً ، وَذَلِكَ لِخْتَلَفِ الْمَعَانِي الَّتِي تُعْزَى إِلَى كِلْتَا اللَّذَّةِ وَالْأَلْمِ .

حَقًّا ، يُمْكِنُ أَنْ يِعَارِضَ ذَلِكَ بَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُعْنَى بِالْمَرَضِ الْمُعْدِي ، وَبَأَنَّهُ لَا يُبْقِي نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ أَوِ النَّارِ إِتْقَانًا لِصِنْوِهِ ، عَنِ لَذَّةٍ ، غَيْرَ أَنْ كَلِمَةَ اللَّذَّةِ تَدُلُّ فِي هَذِهِ الْحَالِ ، كَمَا فِي سِوَاهَا مِمَّا يَمِثَلُهَا ، عَلَى رَاحَةٍ يُشْعَرُ بِهَا ، فِي الْحَقِيقَةِ ، عِنْدَ تَلْبِيَةِ أَحَدِ الْوَاجِبَاتِ ، وَعَلَى الْعَكْسِ يَكُونُ الْأَلْمُ عِنْدَ الْامْتِنَاعِ عَنِ الْقِيَامِ بِذَلِكَ .

وَكَذَلِكَ لَا يُرَى ، أَوَّلَ وَهَلَةٍ ، أَيُّ دَوْرٍ يُمْكِنُ أَنْ تُمَثِّلَهُ اللَّذَّةُ فِي عَمَلِ احْتِضَانِ الْبَيْضِ الَّذِي يُكَلِّفُ الطَّيْرُ نَفْسَهُ بِهِ ، وَلَا يُرَى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فِيمَا تَحْتَمِلُهُ الْحَشْرَةُ مِنْ مَشَقَّةٍ لِإِعْدَادِ غِذَاءِ الدُّودَةِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ بَيْضَةٍ لِاتْرَاهَا تُنْقَفُ (١) .

(١) نقف الفرخ البيضة : نقبها وخرج منها .

والحقُّ أن الغريزة التي تدفع إلى مثل هذه الأفعال هي رغبةٌ ثَبَتَتْ أمرُها بالوراثة ، فيقوم الألم على عدم الخضوع لها .
 فاللذةُ والألمُ ، إذَنْ ، أصلُ جميع التلقينات التي تُشتقُّ منها أفعالُ العالمِ الحَيِّ ، ويتوقف طَبْعُ هذه التلقيناتِ الحتمِيَّةِ على درجة تطور الموجودات ، وهي ما يَخضعُ لها الفطريُّ من قُوَّره ، أى من غير تفكير ، وذلك كما صَنَعَ عَيْسُو حين باع حَقَّ البِكْرِيَّةِ بطبقٍ مُجَهَّزٍ من العدس ، وُتَعَلَّمُ الحضارةُ ترويضَ الاندفاعاتِ الضارةِ معارِضَةً قِضَاءَ رغبةٍ حاضرةِ بصورةٍ نتيجةٍ بعيدة .

وإذا قَضَى إِلَهُ قَادِرٌ على اللذةِ والألمِ زالت الحياة عن وجه الأرض بسرعة ، فلا يَقْدِرُ أَى دَاعٍ ، ولو كان عقلياً ، على إخراج الموجود الحَيِّ من جمودِ خَلِيٍّ يَكُونُ الموتُ نَتِيجَتَهُ المَقْدَّرَةَ إذا عاد لا يَعْرِفُ الجوعَ ولا العطشَ ولا الحُبَّ ولا أَى دافعٍ إلى العمل .

* * *

ومع أن القياساتِ بين حياة الموجودات العضوية وحياةِ المادةِ على شىء من التباعد فإنه يُمكن أن يقال ، عند النظر إلى أن الرغبة جَذِبُ والألمُ دَفْعُ ، إن هذين الحادثين يشاهدان في العالمِ المادِيِّ ، والواقعُ أن القُوَى الفِزِيَوِيَّةَ ، كالثَقَلِ والحرارةِ والكهربا ، تتجَلَّى بالجذبِ والدفعِ في باطنِ المادةِ ، وبالجذبِ والدفعِ يُمكن أن يُعبَّرَ كذلك عن قُوَامِيِ العالمِ ، وهما : الحركةُ ، أى القوةُ ، ومقاومةُ الحركةِ ، أى السكون .
 ومع ذلك لا ينبغي أن تُدْفَعُ هذه القياساتُ إلى مَدَى بعيد .

ومع ذلك فإن من قلة المعرفة بحياة الموجودات أن يُقْتَصَرَ على دراسة عناصر نشاطها الأساسية ، فاللذة والألم يُمكن أن يَصْدُرَا عن طائفةٍ من العلل ، وهذه هي العللُ المختلفةُ : الاحتياجاتُ والأهواءُ والمشاعر التي يَجْدُرُ أن تُعرَفَ إذا ما أريدَ تعيين أصول الحوادث التي تتألف منها لُحْمَةُ التاريخ .

* * *

كان علمُ النفس القديمُ يقتصر على دراسة العقل الواعي فلم يبالِ بالعواملِ غيرِ الشاعرة التي هي ، بالحقيقة ، مصدرُ جميع أفعال الحيوان حتى الإنسان ، وكان ذلك العلمُ يَفْصِلُ الغريزة عن العقل فصلاً تاماً ، وكانت قد ابْتَدِعَتْ إحدى النظريات الدينية التي لا يزال العلم مملوءاً بها تفسيراً لسير الحيوانات ، وذلك أن الطبيعة العَطُوفَ أنعمت عليها بقابلية خاصة ، أى بالغريزة التي تَسِيرُ بها من غير عقل ، وكان يُفَرِّقُ بين الغريزة والعقل مع القول بأن الغريزة تنطوي على نظامٍ يَحْمِلُ الحيواناتِ ، دائماً ، على القيام بالأمر نفسه على وجهٍ ثابت لا يتغير ، وكان كثيرٌ من العلماء ، ولا سيما ديكارتُ ، يُعدُّون الحيوانَ آلةً بسيطةً تُكْرَرُ الأفعالَ نفسها بلا بصيرة ومن غير أن تستطيع تبديلها .

ونظريةٌ مثلُ تلك مما لا يُمكن الدفاعُ عنه في الوقت الحاضر ، فإذا ما نُظِرَ جَيِّداً إلى الحيوانات المترجحة بين أرقى ذوات الثديِّ وأحقر الحشرات وُجِدَ أنها تُغيِّرُ أفعالها وَفَقَ ما تَهْدِفُ إليه من غَرَضٍ ، وهذه هي صفةُ العقل البارزة التي تناقِضُ الغريزةَ الآلية .

واعتقد كثيرٌ من علماء الطبيعة أن من الممكن عدَّ الغرائز متراكباتٍ

بسيطة وراثية ، ومن الأحوال كثير لا يستطيع هذا التفسير أن يُنيرَه ، ومنها تلك البصيرة البارة التي تُصِيبُ بها بعضُ الزناير حَشَرَاتٍ أُخْرَى بالفالج فلا تُبْدِي حَرَاكًا ، وَتَظَلُّ هَكَذَا حَتَّى تَبْلُغَ دَوْدُ الزناير من النمو ما تغتذى معه بها .

أَجَلٌ ، يُمَكِّنُ أَنْ تُوصَفَ أفعال هذه الطبيعة بالغرزية تمامًا ، بيد أنه يوجد من هذه الأفعال ما يختلف سيرُه وَفوقَ الأحوال فيُبدى من الصفات الأساسية ما هو خاصٌ بالعقل من حيث النتيجة ، وهذا ما جعلَ بعضَ علماء الطبيعة ، ولاسيما الأستاذ بُوْفِيَه ، يقول إن الحشراتِ تَعْقِلُ كالإنسان ، وأصحُّ من ذلك أن يُفترَضَ ، بالحقيقة ، كونُ الحيوان لا يَعْقِلُ كالإنسان ، ولكنه يَمْلِكُ من طُرُزِ المعرفة ما يختلف عن طُرُزنا ، وتلك هي التي تُعَيِّنُ سلوكَ بعضِ البعوض ، ولاسيما بعوضُ البلاد الشمالية ، فأثناء تحمُظِ بيضها أسابيع كثيرةً ، عن تَوَرِيصٍ^(١) ، إذا لم تتصرف بماء كاف تَضْمَنُ به حياة صِغَارِها ، ولذا يكون وَضْعُ البَيْضِ لديها أمرًا اختياريًا ، وهكذا يُنظَرُ إلى مصلحة النوع البعيدة فقط ، وكذلك طبائعُ النحل لا تَدْخُلُ ضِمْنَ نطاق التعاريف القديمة ، وذلك لأن النحل لا يُغَيِّرُ مناهجَ بنائه وادِّخارِ غذائه على حسب الإقليم فقط ، بل يتصف ، أيضاً ، باستعدادٍ عجيب لتغيير جنس دُودِه كما يريد بتغييره تركيبَ غذائه كيميائيًا ، وإذا حَدَثَ ما تُحْرَمُ به خَلِيَّةُ النحل مَلِكْتها قَدَّمَ النحلُ من الغداء ما يُحوِّلُ به دُودَةً إلى مَلِكَةٍ جديدة .

والملاحظاتُ التي هي من هذا القبيل كثيرةٌ ، ومنها يُعَلَمُ أن الغريزة عادت لا تُعدُّ ضَرْبًا من الخصائص الثابتة التي تُنعمُ الطبيعةُ بها على الحيوانات

(١) ورست الدجاجة : وضعت البيض بمرة .

عند خَلْقِهَا ، فهي قِسْمٌ من تلك القُوَى غيرِ الشاعرة التي يُمكن أن تشاهد عند الحيوان وعند الإنسان ، قسمٌ من تلك الخصائص التي أخذ العِلْمُ يَتَمَثَّلُ أهميتها فقط .

* * *

ويَظْهَرُ أنه يمكن تقسيمُ الحَيَاةِ غيرِ الشاعرة إلى لاشعورٍ عضويٍّ ولاشعورٍ فزيويٍّ .

ويُبدى اللاشعورُ العضويُّ نشاطاً فائقاً ذا طبيعةٍ مجهولةٍ تماماً ، ويقوم بوظائفَ حيويةٍ كالدورة الدموية والتنفس والهضم ونشوء الأعضاء ، إلخ . ، وما يؤدي إليه من أفعالٍ هو من التعقيد ، كما ذكرنا ، ما لم يرَ العالمُ معه ، بَعْدُ ، ظهورَ عِفْرِيَتٍ قادرٍ على إدراكه .

ويَبْدُو اللاشعورُ الفزيويُّ ، المجهولُ في جوهره كالسابق أيضاً ، أساساً للوظائف الذهنية ويَدَّخِرُ عملها ، وتُشْتَقُّ كلُّ تربيةٍ من الانتفاع به ، وهو ، لِمَا يتصف به من جَمْعِ الانطباعات وحفظها ، يُزَاوِلُ به كثيرٌ من الأمور بلا جُهْدٍ بَعْدَ تَعَلُّمِهَا بِجُهْدٍ ، ولذلك تكون التربيةُ فنَّ إدخالِ الشعورِ إلى اللاشعورِ كما حاولتُ بيانَ ذلك في كتابِ آخَرَ .

ومع أن العلم لم يَتَقَدَّمْ كثيراً في دراسة اللاشعور فإنه يُقرَّرُ بالتدرج أنه يَنْضَجُ في هذا الحقل عواملُ كثيرٌ من الأفعال التي كانت تُعزَى إلى العقل وحده ، وفي كتابِ آخَرَ شَبَّهْتُ الحَيَاةَ العقلية الخالصة بتلك الجُزَيَّاتِ البارزة على سطح البحار المحيطة ، فلا تَكُونُ في الغالب غيرَ ذرِّي لُجبالٍ عظيمة مغمورةٍ بالبحار ، فالجبالُ العالية غيرُ المنظورة تُمَثِّلُ اللاشعورَ ،

وَتَمَثِّلُ الذَّرْمَى الصَّغِيرَةَ الَّتِي لَا تَكَادُ تُرْمَى تِلْكَ الْحَيَاةَ الشَّاعِرَةَ .
 وَتَتَجَلَّى أَفْضَلِيَّةُ الْإِنْسَانِ الْبَالِغَةِ عَلَى الْحَيَوَانِ فِي كَوْنِهِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَخْرُجَ
 قَلِيلًا مِنَ الْحَيَاةِ الْفَرِيزِيَّةِ اللَّاشَاعِرَةِ الَّتِي ظَلَّ هَذَا الْأَخِيرُ غَارِقًا فِيهَا ، وَهُوَ
 إِذَا مَا خَرَجَ مِنْهَا كَانَ ذَلِكَ نَاقِصًا ، وَلَيْسَ لَزْمِنِ طَوِيلٍ مُطْلَقًا .
 وَالْحَضَارَةُ تَنْفَعُ فِي زَجْرِ التَّلْقِينَاتِ اللَّاشَعُورِيَّةِ الَّتِي تَضُرُّ الْفَرْدَ وَالْمَجْتَمَعَ ،
 وَالدَّسَاتِيرُ ، وَلَا سِيَّامَا الدِّينِيَّةُ مِنْهَا ، تُجَهِّزُ بِرُسُومٍ بَاطِنِيَّةٍ رَادِعَةٍ ، أَيْ بِتَلْقِينَاتٍ
 ثَابِتَةٍ قَادِرَةٍ عَلَى زَجْرِ التَّلْقِينَاتِ الْمُتَقَلِّبَةِ الَّتِي تُحَرِّكُهَا الشَّهَوَاتُ .

* * *

وَيَسِيطِرُ عَلَى تَارِيخِ الْأُمَّمِ مَا بَيْنَ انْدِفَاعَاتِ الْحَيَاةِ الْعَاطِفِيَّةِ اللَّاشَعُورِيَّةِ
 وَمُؤَثِّرَاتِ الْحَيَاةِ الْعَقْلِيَّةِ الشَّعُورِيَّةِ مِنْ صِرَاعٍ ، فَمِنَ الْحَيَاةِ الْعَقْلِيَّةِ تَتَفَجَّرُ عَجَائِبُ
 الْعِلْمِ الَّتِي تُعَيِّنُ تَقَدَّمَ الْحَضَارَةِ ، وَمِنَ الْحَيَاةِ الْفَرِيزِيَّةِ تَوْلَدُ الشَّهَوَاتُ وَجَمِيعُ
 الْمَنَازَعَاتِ الَّتِي تُزَعِّجُ حَيَاةَ الْأُمَّمِ ، وَسَيَبْقِي الْأَمْرُ ، لِأَرِيْبَ ، هَكَذَا حَتَّى
 الْيَوْمِ الَّذِي تَتَخَلَّصُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِيهِ مِنَ الْحَيَاةِ اللَّاشَاعِرَةِ الْوَرِاثِيَّةِ فَتَبْلُغَ مِنْ
 التَّطَوُّرِ الْكَافِي مَا يَكُونُ الْعَقْلُ مَعَهُ مَسِيطِرًا ، وَلَمْ تُبَلِّغْ هَذِهِ الْمَرِحْلَةَ بَعْدُ ،
 وَلِذَلِكَ يَشْتَمَلُ التَّارِيخُ عَلَى قَلِيلٍ مِنَ الْحَوَادِثِ الَّتِي أَوْحَى بِهَا الْعَقْلُ الْمَحْضُ ،
 أَجَلٌ ، إِنْ الْإِنْسَانُ أَقَامَ مَبَانِيَّ وَعَيْنَ سِيرَةِ النُّجُومِ ، غَيْرَ أَنْ تَأْثِيرُ الْمُنْطِقِ
 الْعَقْلِيِّ ظَلَّ ضَعِيفًا دَائِمًا فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي تَتَأَلَّفُ مِنْهَا حَيَاةُ الْأُمَّمِ .

وَهَانِحْنَ أَوْلَاءَ بَعِيدُونَ جَدًّا مِنَ الْمَبْدِئِ الْقَائِلِ إِنْ الْحَيَاةَ اللَّاشَاعِرَةَ وَقَفَّ
 عَلَى الْحَيَوَانَاتِ ، وَيَكْفِي أَنْ يُنْعَمَ النَّظْرُ لِيُرَى أَنَّهُ يَتَأَلَّفُ مِنْهَا أُسَاسُ
 حَيَاتِنَا الْفَرْدِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ ، فَمِنَ الْعَادَاتِ اللَّاشَعُورِيَّةِ تُشْتَقُّ أَخْلَاقٌ حَقِيقِيَّةٌ ،

ويقوم ثباتُ الحضارة على عاداتٍ أصبحت لاشعورية .
وتمثّلُ هذه العاداتُ دوراً عظيماً في حياة المجتمعات ، وهي تُوجدُ وحدةَ
الفكر والعمل اللذين لا يُمكن أن تدوم بغيرها حضارة ، فمتى خَسِرَتْ أمةٌ
ما يوجّهُ نشاطها من عاداتٍ ارتبجتُ وَفَقَ المصادفة وسقطتُ في الفوضى ،
ولولا العاداتُ اللاشعورية التي وَجَّهت حياة البشرية ما كان لها تاريخ .

الفصل الرابع

تقلب الذاتيات الفردية والجماعية

بعد ثبات الذاتية من المبادئ النفسية التي توشك أن تزول .
وكانت تُفترَضُ هذه الذاتية وحيدة ، فأخذت تبدو بالتدرج مُنوعَةً
مركبةً من عناصرٍ يَمْنَحُهَا ثباتُ البيئَةِ وحدهُ وَحَدَةً ظاهرةً .

وكان يَبْدُو مبدأً ثبات الذاتية القديمُ سائغاً بإظهار كلِّ فردٍ عدداً من
التريدات التي تُكْرَرُ في الحياة العادية من غيرِ كبيرِ تغييرٍ ، ومما لا ريب
فيه أنه كان يلاحظُ ما يطرأ على طبع الفرد عينه من تَقَلُّبٍ ، ولكن
جهلَ طبيعةِ هذا التقلبِ وما يَصْدُرُ عنه هذا التقلبُ من عواملٍ حقيقيةٍ
كان يوجب وصفه بكلمة « الأهواء » الغامضة .

وكان الوهم حول الذاتية الثابتة يقوم ، أيضاً ، على الوهم حول ثبات
الجسم ظاهراً ، والواقعُ أن الذاتية الفيزيوية التي تَصْلُحُ أن تكون إطاراً
للذاتية الخلقية تتحول بشيء من البطء لتوحى بطابع الثبات .

وفي الحقيقة أن الذاتية البدنية تتحول دائماً ، وينشأ ثباتها الوهمي عن نقصٍ
في وسائل ملاحظتنا فقط ، فلا بُدَّ من انقضاء سنين على العين البشرية
لتحقيق ماتدلُّ عليه آلةٌ دقيقةٌ في بضع دقائق .

وسواءً علينا أنظرنا إلى الذاتية الفيزيوية أم إلى الذاتية الخلقية لا

نُبْصِرُ الموجودَ عينه مرتين ، وما نَعْرِفُه عن الناس الذين يحيطون بنا وما يَعْرِفُه هؤلاء الناسُ أنفسهم يَنِمُّ على ذاتياتهم الممكنة فقط .

ومع ذلك فإن من الحَقِّقِ كونَ هذه التقلبات لا تزيل تأثيرَ الوِراثَةِ الثابتِ ، فكلُّ خَلِيَّةٍ جديدة واثرةٌ نخليةٌ سابقة ، وهى تحتفظ بعددٍ من خصائصها كَرَهًا ، وهذه العناصرُ الموروثة تَمْنَحُ الفردَ خصائصَ جِبِلِّيَّةً يَكُونُ بعضها مشتركاً بين جميع الموجودات فى الفصيلة عينها أو العِرْقِ عينه . وتكون تقلُّباتُ الذات محدودةً لدى الأمم التى ثَبَّتْ أمرُها منذ زمن طويل بمصالحٍ ومعتقداتٍ مشتركة ، ومن ثمَّ يَحْجُزُ الإنكليزُ أو الألمان أو الفرنسيون ، إلخ . ، فى بعض المسائل ، مجموعةً من المشاعر والأفكار المشابهة لِمَا عند مواطنيهم ، ولكن مع اختلافها اختلافاً بَيْنًا بين أمةٍ وأخرى ، وتتحوَّلُ الذاتيةُ باستمرارٍ لدى الأمم التى لم يَثْبُتْ أمرُها ، كالصَّقالبة مثلاً .

وإذا عَدَوْتَ هذا الثباتَ العميقَ فى بعض عناصر العِرْقِ وجدتَ كثيراً من تحوُّلاتِ الذاتية يَقَعُ بلا انقطاعٍ فى أثناء الحياة اليومية ، حتى إنه يُمكنُ أن يقال إن الفردية اليومية تختلف باختلاف الحوادث وعلى حسب الموجودات التى نعاشرها ، وتُعَيِّنُ نفسيةً هذه الموجودات نفسيتنا كما تؤدى تقلباتُ الجَوِّ إلى تقلبات مقياس الحرارة .

وتُعَيِّنُ هذه الملاحظاتُ على إيضاح حوادث تَظَلُّ مُبْهَمَةً بغيرها ، ومن ذلك أننا إذا ما أبصرنا فى ذاتِ النهار ذاتَ الشخص يأتى باقتراحاتٍ متفاوتةٍ القيمة أيقنًا ، على الرغم من الظواهر ، بأننا كنا بالتتابع أمام

موجودين مختلفين لا يشتركان في غير الصورة .

* * *

وَتَتَوَقَّفُ عِلَّةُ تَقْلِبَاتِنَا الرَّئِيسَةَ عَلَى تَحَوُّلِ صُورِنَا النَّفْسِيَّةِ ، فَعِنهَا تَصْدُرُ
 آرَاؤُنَا وَمَسَرَّاتُنَا وَالْأَمْنَا ، وَيَكُونُ أَعْظَمُ مَحْسِنِ الْإِنْسَانِيَّةِ مَلَائِكَةً قَادِرِينَ
 عَلَى مَنْحِ النَّاسِ قُوَّةً يَبْتَدِعُونَ بِهَا ، كَمَا يَشْتَهُونَ ، صُورَةَ سَعَادَةٍ نَفْسِيَّةً بِاللُّغَةِ
 التَّأثيرِ كَالَّتِي تَوْجِبُهَا الْحَقَائِقُ ، وَإِذَا مَا أُقْنِعَتِ الْمَوْجُودَاتُ بِذَلِكَ عَلَى هَذَا
 الْوَجْهِ غَدَّتْ تَامَةً السَّعَادَةَ لِمَا يَلُوحُ مِنْ تَحْقِيقِ أَحْلَامِهَا ، فَهِيَ تَصِيرُ مَسَاوِيَةً
 لِأَقْوَى الْمُلُوكِ مِنْ فَوْرِهَا وَتَسْكُنُ أَزْهَى الْقُصُورِ كَمَا تَشَاءُ .

وَلَمْ يُحَوَّلْ جَمِيعُ مُؤَسَّسِي الْأَدْيَانِ ، كَبُدَّهَهُ (بُودَا) وَعَيْسَى وَمُحَمَّدٌ ، إلخ . ،
 الْعَالَمَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ أَنْعَمُوا عَلَى النَّاسِ بِقُدْرَةٍ يَبْتَدِعُونَ بِهَا صُورًا نَفْسِيَّةً قَرِيبَةً
 مِنَ الَّتِي تَصْدُرُ عَنِ الْحَقِيقَةِ ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الصُّورَ كَانَتْ مَوْصُوفَةً ، وَمِنْ ثَمَّ
 حَتْمِيَّةً ، مَا جَعَلَتْ النَّفْسَ مَذْبَذِبَةً بَيْنَ شِقَاءٍ دَائِمٍ وَنَعِيمٍ جَازِمٍ ، وَكَثِيرٌ مِنَ
 النَّاسِ لَبَّؤُوا صُورًا نَفْسِيَّةً فَضَحَّوْا بِحَيَاتِهِمْ نَصْرًا لِأَوْهَامٍ كَانَتْ تَسِيْطُرُ عَلَيْهِمْ .
 يُمَكِّنُ أَنْ يُسَدَّنَتَجَّحَ مِمَّا تَقْدَمُ كَوْنُ الصُّورَةِ النَّفْسِيَّةِ لَهَا مِنَ التَّأثيرِ مَا
 لِلْحَقِيقَةِ وَأَنَّهَا تَسْتَطِيعُ إِبْدَاعَ ذَاتِيَّةٍ جَدِيدَةٍ فِجَاءً .

* * *

يُوجَدُ لِذَاتِيَاتِنَا الْمُنَوَّعَةِ مَصَادِرُ مُخْتَلِفَةٌ ، وَهِيَ : (١) عُنَاصِرُ الْأَجْدَادِ
 الْمُنْتَقَلَةُ بِالْوَرَاثَةِ ، (٢) الْعُنَاصِرُ الْمَكْتَسِبَةُ أَوْ الْمَفْرُوضَةُ مِنَ الْبِيئَةِ وَالتَّرْبِيَةِ ، إلخ .
 وَتُسْتَقْتَقُ مِنَ الْعَوَامِلِ الْإِرْثِيَّةِ الْمُقَدَّرَةِ صِفَاتُ الْخُلُقِ الْبَالِغَةُ الثَّبَاتُ كَرَهًا
 وَالتِّي تُوْجِبُ قُوَّةَ الْأَفْرَادِ أَوْضَعْفَهُمْ كَمَا تُوْجِبُ قُوَّةَ الْأُمَمِ أَوْ ضَعْفَهَا ، وَتَبْقَى

ذاتيةُ الأجدادِ مجهولةٌ من قِبَلِ الذاتيةِ المكتسبةِ وإن أمكنها أن تنازعها ، ويمدُّ كلُّ موجودٍ حَيٍّ مقبرةً يَرَقُدُ فيها أجدادٌ كثيرٌ لِيُفِيقُوا أحياناً ويَبْدُوا عزائمَ متجبرةً .

وبما أن نفسيتنا المكتسبةً ، التي نَبَتَ أمرها بالتربيةِ والبيئةِ والمعتقداتِ الدينيةِ ، إلخ . ، ما استطاعت ، لم تَحْزُ صلابَةَ الروحِ الموروثةِ عن الأجدادِ فإنها تكونُ عرضةً لتقلباتٍ عظيمةٍ ، والواقعُ أن الذاتيةِ الخُلُقِيَّةِ ، وهي تُمَثِّلُ ترديداً لمرُكِّباتٍ من ذاتيتنا وذاتيةِ الأشخاصِ الذين تَقَعُ معهم علاقاتٌ ، تَبْدُو متحولةً ، على الخصوص ، من الحينِ الذي نُضطرُّ فيه إلى ملاءمةِ حوادثٍ مفاجئةٍ .

ويكون التاريخ ، في أثناء الأزماتِ الاجتماعيةِ الشديدةِ ، مملوءاً بتلك التحولاتِ المفاجئةِ ، ومن ذلك أن أبطالِ الثورةِ الفرنسيةِ السَّفَّاحينِ الذين سَلَبُوا ضرائحَ الملوكِ وقطعوا رؤوسَ المئاتِ كانوا في الأوقاتِ العاديةِ من البرُّجوازيةِ المسلمينِ ، كانوا من القضاةِ والمؤثِّقينِ والمحامينِ إلخ . ، فلما سكنتِ الزَّوْبَةُ لم يَفْقَهُوا شيئاً من الأعمالِ التي اقترفوها ، وكيف كان يُمكنُهُم أن يُدْرِكُوا أمرها بعد أن عادتِ الذاتيةُ المؤقتةُ ، التي حملتهم على إتيانِ تلكِ المُنكَرَاتِ غيرِ موحودةٍ ؟

وتحولاتٌ نفسيةٌ عظيمةٌ كذلك لا تُلَاحَظُ في أثناءِ الانقلاباتِ التاريخيةِ كالحروبِ أو الثَّوراتِ فقط ، بل يُمكنُ أن تَظْهَرَ ، أيضاً ، بفعلِ معتقدي دينيٍّ قويٍّ جداً أو بفعلِ أهواءٍ شديدةٍ كالحبِّ مثلاً ، وليست الأفعالُ ، بل الأفعالُ ، هي التي تَكْشِفُ ، إذ ذاك ، عن ذاتيةِ الساعةِ .

وَتَشَأُ عَنْ مُعْظَمِ الْأَدْيَانِ تَحولاتٌ مُفاجئةٌ فِي الذاتيةِ بالغةٌ من الشدَّةِ ما يَكْفِي لِحَمَلِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى التَضحيةِ بِحَيَاتِهِمْ نَصْرًا لِمَثَلِهِمُ الدِّينِيَّ الْأَعْلَى .
 وتملأُ الذاتياتُ المُفاجئةُ ، التي تَظْهَرُ بِفعلِ الحُبِّ ، حياةَ مجتمعاتنا أيضاً ، فُيَنْتَفَعُ بِهَا مِنْ قِبَلِ وَاضِعِي المَآسَى فِي جَمِيعِ الْأَزْمَنَةِ ، وَيَصْدُرُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِينَ أَمْثَلَةٌ بَارِزَةٌ عَنْ نَظْرِيَةِ تَعَدُّدِ الذاتياتِ مَعَ جَهْلِهِمْ بِإِهَا ، وَمِنْ ذَلِكَ ، عَلَى الْخِصُوصِ ، قِصَّةُ سَيِّدَةِ أَفْسُوسِ الْمُخَلَّفَةِ عَنْ الْعَالَمِ الْيُونَانِيِّ الرُّومَانِيِّ الْقَدِيمِ وَالْمُقَسَّرَةِ فِي الْغَالِبِ مِنْ قِبَلِ بَطْرُونٍ حَتَّى لَا فُؤُونَتَيْنِ ، وَمِنْ ذَلِكَ ، أَيْضاً ، رِوَايَةُ رِيشارْدِ الثَّالِثِ لَشَكْسِپِرِ التي تُرَى فِيهَا سَيِّدَةٌ شَرِيفَةٌ تَنْسَى فِي بَضْعِ دَقَائِقَ مِشاعِرَ حَقْدِهَا عَلَى قَاتِلِ زَوْجِهَا الْمَعْبُودِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ تَابُوتُهُ قائماً حِوَالِيهَا .

* * *

وتَقَلُّباتُ الذاتيةِ تَلْازِمُها تَقَلُّباتُ فِرْيُولُوجِيَةِ دائِماً .
 وَكُنْتُ ، مِنْذُ حِينٍ ، قَدْ صَنَعْتُ عِدَّةَ آلاَتٍ ، أَنْشَرْتُ صُورَةَ بَعْضِهَا هُنَا ، لِقِيَاسِ هَذِهِ الْأَخِيرَةِ ، وَالْمَناهِجُ التي تُسْتَعْمَلُ هِيَ مِنَ التَفْصِيلِ ما لَا نَرَى مَعَهُ بَيانَها هُنَا ، فِيها يَتَضَحُّ تَحْوُلُ الذاتيةِ الْبَالِغِ^(١) .
 وَالذاتيةُ ، فَضْلاً عَنْ هَذِهِ التَقَلُّباتِ الْعادِيَةِ ، تَتَحَوَّلُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوالِ

(١) يعرض بعض ترديدات النظام العصبي (التي قيست بالشركة المرنة المسجلة للجزء الواحد من المنة) حالاً من التقلب ما يسفر معه القياسان المتتابعان عن أرقام يمكن أن تتحول من البسيط إلى المركب تقريباً ، وقد قدم عن ذلك مثال بدوام الزمن الضروري للنظام العصبي حتى يقاوم أحد المهيجات ، ويعرض قياس المعادلة الشخصية ذات التقلبات ، ومع ذلك فقد شاهدت ثباتاً عظيماً في معدل الملاحظات المتعاقبة ، وذلك على أن يقوم هذا المعدل على نحو خمسة عشر من الأرقام .
 ويؤدي أقل اضطراب إلى تقلبات كبيرة في الذاتية البيولوجية ، ولا سيما الضغط الشرياني ، ومع ذلك فإن هذا الموضوع هو من الاتساع العظيم ما لا يمكن حتى الإلمام القليل به هنا .

المَرَضِيَّة نتيجةً لبعض الانحرافات في العناصر العصبية ، فهذه الحوادثُ الناشئة عن أصلٍ مَرَضِيٍّ تَشَاهَدُ في أدوار التاريخ المضطربة على الخصوص ، وذلك لدى التَّبَعَةِ المجاورين لحدود الحماقة ، فهم يَضْرِبُونَ الرُّصَادَ الذين يبالغون في تأثيرها غالباً .

ويجب أن يُنْتَفَعَ بنتائج هذا النَّهْجِ ، ولكن بتحفِظٍ ، في تفسير الحوادث وفي دراسة رجال التاريخ دراسةً نفسيةً .

ومن المؤرخين ، مِثْلُ مِيشْلِه ، من أسهبوا كثيراً في بيان هذا النَّهْجِ ، وقد بالغ بِسْكَالٍ بعضَ الشيء حينما قال مؤكداً إن العالمَ كان يتغيَّر لو كان أنفُ كليونوباترة أقصرَ مما هو عليه ، وإن النصرانية كانت تُنْحَرَبُ لولا حَبُّ الرمل في مثانة كرومويل ، ومع ذلك فإن مما لا يُنْكَرُ كونَ تَغْيِرَاتِ الذاتية تَغْيِراً مَرَضِيّاً قد مَثَلَتْ دوراً عظيماً في سلوك كثيرٍ من الملوك ، فاذْهَبْ من قياصرة الرومان إلى شارلوكين فإلى فليپ الثاني الإسباني تَجِدُ أمثلةً كثيرةً على ذلك ، وذلك إلى أن من الممكن جداً أن يكون مِثْلُ هذه الانحطاطات قد أدى إلى مشاريع زَيْدَتْ تلك العهود ، وفي أيامنا اتَّفَقَ لبعض الحركات الشعبية ، كالْبُلْشِيفِيَّةِ في روسية والشيوعية في فرنسة ، على الخصوص ، دُعَاةٌ ممن تَغَيَّرَتْ ذاتيتهم تغيراً عميقاً بعوامل مَرَضِيَّةٍ .

وتكون تقلباتُ الذات ، التي تلاحظُ لدى الأفراد وهم منعزلون ، أبرزَ من ذلك كثيراً في الجموع ، كالاتِّجَاعَاتِ الشعبية والبرلمانات ومجالس الحرب ، إلخ . ، فهناك تَتَكَوَّنُ في كلِّ زمرةٍ روحٌ عابرةٌ كنتُ قد بَيَّنْتُ أوصافها عند ما درستُ روحَ الجماعات .

وَيَبِينُ أَظْهَرَ مَا تَتَصَفَّ بِه هَذِهِ الذَّاتِيَّاتُ الْجَمْعِيَّةُ الْمُوقْتَةُ نَعْدُ سُرْعَةَ التَّصْدِيقِ
وَعَدَمَ التَّسَامُحِ وَالْعُنْفِ وَتَعَدَّرَ السَّيْرَ بِلا نَفْوَذِ زَعِيمٍ ، وَمَا لِلجِئَاعَةِ مِنْ حَالٍ نَفْسِيَّةٍ
يُعَبِّدُ ذَاتِيَّةً كُلَّ عَضْوٍ فِي هَذِهِ الْجَمَاعَةِ تَعْبِيداً تَتَحَوَّلُ بِهِ تَمَاماً ، فَيُمْكِنُ
الْمُسَالِمَ ، حَيْثُذِ ، أَنْ يَصْبِحَ مَفْتَرَساً وَالبُخِيلَ مَبْدِراً ، إلخ .
وَتُمَثِّلُ الذَّاتِيَّةُ الْقَوْمِيَّةُ ذَاتِيَّةً جَمْعِيَّةً ثَبَتَ أَمْرُهَا بِعَوَامِلَ شَتَّى ، وَهِيَ :
الْمَعْتَقَاتُ الدِّينِيَّةُ وَالْأَخْلَاقُ وَالْعَادَاتُ ، إلخ . ، وَمِنْ بَيْنِ مَخْتَلَفِ الْعُنَاصِرِ
الَّتِي تُعَيِّنُ تَارِيخَ إِحْدَى الْأُمَمِ تَجِدُ ذَاتِيَّتَهَا الْقَوْمِيَّةَ ، الَّتِي تَنْطَوِي عَلَى ذَاتِيَّةِ
قَادِمَتِهَا وَذَاتِيَّةِ مَقُودِيَّتِهَا ، تُعَيِّنُ مَجْرَى مَصِيرِهَا تَعْيِيناً وَثِيقاً .

البَابُ الثَّانِي
تَفَاسِيرُ التَّارِيخِ الْمُخْتَلِفَةِ

الفصل الأول

مبادئ التاريخ الروائية واللاهوتية

والفلسفية

كان قدماء المؤرخين ، كهيرودوتس ، قليلي الاكتراث لصحة الحوادث ، وكان شأنهم مقتصرأ على استنساخ ما يسمعون من أقاصيص ، وكانت هذه الأفاصيص تتألف حصراً من ذكريات باقية في ذاكرة الناس ، والتاريخ ، إلى وقت حديث ، تألف من شهادة المعاصرين فقط .

ولم تبدُ أولى الكتب عن تاريخ رومة وأثينة ، ولا سيما تأليفُ بلوتارك وتيطس ليفيوس ، أكثر دقةً ، وإن وُضعت بعد يسوع ، فمن هذه المؤلفات يُعلم ، على الخصوص ، أن ابنه ، بن أنشيز وفينوس ، الفارَّ من خرائب تروادة زار لسنيوم وتزوج ابنة ملك لاتينوس ، وأن هر كول هجم على أفنين ليقتل اللص كاكوس ، وأن رومولوس وريموس أرضعاً ذئبةً ، وأن أراسيوس كوكليس دافع وحده عن جسر سبلسيوس تجاه جيش كامل من الإتروسك ، فجميع هذه الأفاصيص لها من القيمة كما لقصة مفاسد الغول المعروف بالمينوتور والمولود من اقتران بازيفايه بثورٍ قتلته تيزه بالسيف السحري المأخوذ من أريانه بنت مينوس .

وليست الأحاديثُ عن الأزمنة التي عَقبت تلك أكثر صحةً في الغالب ، وإذا كنا لانجادل فيها فذلك لأنها تلوح أقلُّ بُعداً من الصواب ، ويعدُّ

أصلحُ مؤرخى الرومان ، مثلُ تاسيتَ ، التاريخَ فنّا يجب أن يُزَيِّنَ الكاتبَ ، والتاريخُ ، خاصةً ، هو عند هذا الأخير « عملُ الخطيب » ، وهؤلاء المؤرخون كانوا يعالجونه كخطباءٍ إذنٌ ، فيرتّبون الوقائعَ ترتيباً يُسوِّغون به رأيهم ، أو يُزوِّدون الأعقابَ بأمثلة حسنة ، وكذلك لم يتردّدوا ، قطُّ ، أن ينسبوا إلى المحاربين والأبطال والأباطرة أقوالاً ، وأن يَضَعُوا في فهمِ خطبائهم رائعةً ، ومُناجياتٍ نفسيةً أيضاً ، كالتى جعلت على لسان أوتون وفسبازيان ، إلخ . ، وكانت هذه الأفاصيصُ الوهمية تؤلّفُ استناداً إلى بضعِ قطعٍ من الحقيقة تُجمَعُ مصادفةً وإلى كثير من الخيال ، فتعدّها الأجيالُ صحيحةً بقوة التكرار .

ولم يَنْقُصْ مبدأُ التاريخِ الروائى بانقضاءِ قدماءِ المؤرخين ، فقد عاش بعد جميع الانتقادات ، وقد ظلّ باقياً قوياً حتى في أيامنا ، ومن السهل إيرادُ أمثلةٍ مشهورةٍ على ذلك ، فإذا عدّدت وصفَ المنظر لم تجدْ سطوراً كثيرةً صحيحةً في « حياة يسوع » لرينان على ما يحتمل ، ولكن يالها من قصة مقبولة !

ومع ذلك فإن نجاح مثل هذه الكتب لا يقوم إلا على روايتها ، وفي التاريخ يَبْحَثُ القارئُ العادئُ ، على الخصوص ، عن المغامرات العجيبة المروية بشاعرية الدعاء والغضب والتفاؤل ، أى بموسيقا الكلمات المُسَكِّرة ، ولرينان الباعُ الطويل في هذا المضمار ، فليس لهيامه حدٌّ في « دعاء الأكرؤبول » ، حتى إنه يَهْدِي فيه بعض الهديان ، « فياكورا : أنتِ وحدك فتاة ، أيتها العذراء : أنت وحدك طاهرة ، أنى إيجي : أنتِ

وحدك قديسة ، أيا نصرّة : أنت وحدك قوة ! » ، ومن الواضح أنه لا يوجد لهذه الكلمات غير معنى مُبهم ، ولكن القارئ يجد هذا الجَمع من الأوصاف الرفيعة ، وتساعد هذه الغنائية على بيان قدرة الخيال المُبدعة ، ولم تكن أثينة حينما زارها رينانُ غيرَ قريةٍ عَفراءٍ قَدرة ، وقد رآها من خلال ذكرياته الكلاسيّة مع ذلك ، فكتب يقول : « إن ما ألقته أثينة من أثرٍ فيّ يفوق جميع ما أحسسته في حياتي بدرجات ، فكان واحداً ، لا مكانان ، هو ما يتجلّى فيه الكمال ، ذلك هو المكان ، ولم يحدث قطُّ أن تمثّلتُ نظيراً له » ، فياله من شاعر ! سيُقرأُ زمناً طويلاً ، ولكن كما تواصلُ قراءة « ألف ليلة وليلة » ، أى من غير أن يُصدّق كثيراً ، وذلك مع الاحتراز إلى الغاية من تصويراته وتصنيفاته ، والواقع أنه ليس من تصوير الأمور تصويراً صحيحاً أن يُوصَفَ نيرُونُ بالمشعوز ، وأن يقال مع التوكيد إن مرّك أورييل رمزٌ لنهاية العالم القديم الذى ظلّ باقياً قروناً كثيرة بعده فى الحقيقة ، ومن المُمتنع على وجهٍ آخر ، ولكن مع الصعوبة ، أن يُبيّنَ كيف تحوّل هذا العالم بدلاً من بيان نهايته .

وبالتشويهاً الحماسية والمسرحية تنالُ وهمَ حقيقةٍ يعرّف المؤرخُ الفيلسوفُ جيداً أنه لا يستطيع بلوغها .

ثم إن من الواضح أن المؤرخ كلما كان متفناً قلّ تدقيقه ، فالواقعُ أن عيانه الشخصى البالغ الشدة يقوم مقام الحقائق ، ويكفى عددٌ قليل من المبادئ غير الثابتة لتزويد خياله .

ويدلُّ هذا الدورُ الخصب ، الذى يمارسه الخيال فى الأفاصيص التاريخية ، على السبب فى كون إدراك الحادث عينه يختلف باختلاف المؤرخين تبعاً لمبادئ كلِّ زمن .

* * *

كان الأغاقرّة ، فى عصور البُطولة على الأقل ، يجعلون الآلهة تتدخل فى الأعمال البشرية بلا انقطاع ، فى كلِّ صفحة من قصص أوميرس تُبصر عملَ أهلِ الألبِ ، وليس أقلَّ من هذا ظهورُ الربِّ فى الكتب اليهودية ، وكان الرومان يَحْطُون الآلهة بحوادث البشر .

ويُسْفِرُ انتصار النصرانية عن مبدأ لاهوتى خالص فى التاريخ ، ويتحرك هذا المبدأ قرناً بعد قرن .

قال غيزو : « تَصَفَّحُوا تاريخ ما بين القرن الخامس والقرن الثامن عشرَ تَجِدُوا أن علم اللاهوت هو الذى يسيطر على الروح البشرية ويوجِّهها فتطَبَّعُ جميعُ الآراء بطابع علم اللاهوت ، ويُنظَرُ إلى المسائل الفلسفية والسياسية والتاريخية من الوجهة اللاهوتية دائماً . . . والروحُ اللاهوتية من بعض الوجوه هى الدَّمُ الذى جرى فى عروق العالم الأوروبى حتى بيكُن وديكارت » .

وتدلُّ الكتبُ التاريخية التى أُلِّفَتْ فى ذلك الزمن الطويل على درجة ما يُمكنُ العوامل الدينية أن تؤثرَ به فى أفكار الناس وعلى مقدار بساطة المبدأ العامِّ عن الكون فى ذلك الحين .

وكانت تسيطر على مجرى التاريخ قدرة ربّانية عاطفة أو ساخطة ،

فكان لا بُدَّ من خشيتها أو التَّصَرُّعِ إليها بلا انقطاع ، وكان أقوى الملوك يرتجفون أمامها ، ومن ذلك أن كان لويس الحادى عشرَ يُنْفِقُ لُبَّ ماله محاولاً أن ينال ، بأئمن التَّقَدِّمات ، حمايةَ العذراء وأبرارِ الفِرْدُوسِ ، قانعاً ، على رواية مؤرخ له ، بأنهم يتَدَخَّلُونَ فى أعمالِ الإنسان دائماً قادرين وحدهم على ضمان الانتصارات الحربية أو الدَّبْلُمية .

وإلى وقتٍ قريبٍ نَسِيّاً كان على هذا الاعتقاد الصببانيّ فلاسفةٌ فضلاء ، وقد ساق هذا الاعتقاد لَبِنَتَزَ إلى أفكارٍ كثيرةٍ التفاؤل ، فكان يقول إن العالمَ بالغُ الصلاحِ بحكم الضرورة ، وذلك لأنه لا حدَّ لحكمة الربِّ وكرمه . ولم تأخذ مبادئُ التاريخِ اللاهوتيةُ فى الزوالِ إلّا بعد أن أثبت تقدمُ العلمِ كونَ جميعِ حوادثِ العالمِ خاضعةً لِسُنَنِ وثيقةٍ لا تُعرِفُ الهوى .

* * *

وبما أن المبادئَ الروائيةِ واللاهوتيةِ تُرِكَتْ وَجَبَ اكتشافُ مبادئٍ أخرى لإيضاحِ مجرىِ الحوادثِ ، وقد نشأ عن هذا الواجب ما يُمكنُ تسميتهُ مبدأً التاريخِ الفلسفى .

ويقول لنا هذا المبدأُ إن الحوادثِ تابعةٌ لضروراتٍ غريبةٍ عن المصادفةِ أو عن عزائمِ علويةٍ ، ويَجِدُّ العلمُ فى تعيينِ هذه الضروراتِ ، ولكنها من التعقيدِ مالا يُرْجَى معه تعيينها فى كلِّ وقتٍ .

وكلُّ حادثةٍ تاريخيةٍ عقليةٌ ضَمِنَ المعنى القائلِ بصدورها عن عليةٍ ، ولكن هذا لا يَعْنِي أنها ملائمةٌ لِخِطَّةٍ ما ، وإنما يَدُلُّ على وجودِ بعضِ العِللِ العامةِ دلالةً واضحةً تأثيرُ العواملِ الكبرى المتجبرة كوجوب القيصرية

في الحياة الرومانية حيناً من الزمن ، وكسائر بلدان أوربة المختلفة نحوَ الوَحدة في زمنٍ معين ، وكالإصلاحات التي تَعَقَّبُ الثَّورات ، إلخ . ، ومع ذلك فالتاريخ مملوءٌ بالحوادث التي أمكن أن تكون بالغَةِ الاختلاف عن التي وَقَعَت ، وذلك لأنه لم يُوجِبْ ضرورتها أيُّ سُنَّةٍ ثابتة .

ومن المحتمل أن كان تطوُّرُ إنكلترة يقع على وجهٍ آخر لو خَسِرَ الثَّورمان معركةَ هَسْتِنغْس ، والواقعُ أنهم كادوا يَخْسِرُونها لولا أن تَصَوَّرَ الدوك وِلِيم في الدقيقة الأخيرة فقط خُدعةً حربيةً حال بها دون نكبةٍ كانت تؤدي ، لارِيَبَ ، إلى القضاء على فكرة النورمان في تجديد غزوهم ، ولو وُقِّقَ أنيبال في تَجَرِبته حين حاول الاستيلاء على رومة تحويلاً لها إلى مستعمرةٍ قرطاجية لتغير جميعُ مجرى التاريخ القديم وشكل الحضارة تغيراً عميقاً .

وفي زماننا كان مصيرُ أوربة يتمُّ على خلاف ما وَقَع لو لم يُكْرِه الإمبراطور غليومُ بسفرانه أمريكة على الاشتراك في الصِّراع العالمي .

* * *

ويظَهَرُ أمراً حقيقياً ، إذَنْ ، كونُ التاريخ ينطوي على عللٍ عامة ، ثم على مالا يُحْصيه عَدُّ من العلل الصغيرة الاستثنائية التي يُمكن أن تُشْتَقَّ من الأولى ، ولكن من غير أن تنشأ عنها في كلِّ وقت .

ومن العلل العامة ، ولا سيما ثِقَلُ الماضي البالغ ، ما أدى بعد انقلابات الثورة الفرنسية ، بحكم الضرورة ، إلى عَوْدِ مَلَكِيَّةِ سبقتة دِكْتاتورية ، ولو لم يكن ذلك الطاغية بوناپارتَ لكان مُورُو أو غيره ، ولكنه إذ يكون وقتئذٍ

أقلَّ عبقريةً ، ومن ثمَّ أقلَّ نفوذاً ، فإنه يكون أقلَّ دواماً ويُرجع إلى الملكية بما هو أسرعُ من ذلك .

ومن المحتمل ، أيضاً ، ألاَّ يُفكِّر القائد العاديُّ ، الذي يكون قد ظهر ، في تأسيس آلٍ ، فلا يظهرُ في فرنسا نابليونُ الثالث ولا تقعُ معركةُ سيدان ولا الغزوُ ولا الكومونُ ولا الوحدةُ الألمانية ، فهذه الحوادثُ قد نشأتُ قسماً ، إذن ، عن تلك العلة الاستثنائية المستقلة عن كلِّ سُنَّة منظمة ، أى عن تفوُّقِ قائدٍ ظافرٍ كان قد مات منذ نصف قرن ، وفرضياتٍ مثلُ هذه تدلُّ دلالةً واضحةً على شأن العرضيِّ في التاريخ .

الفصل الثاني

التعميمات في التاريخ

يَضْعُبُ جِدًّا أَنْ تُعْرَفَ العِلْلُ الحَقِيقِيَّةُ لِحَوَادِثِ التَّارِيخِ ، حَتَّى أَكْثَرُهَا وَقَفًا لِلنَّظَرِ ، وَسُنْبِيْنٍ فِي فَصْلِ آخَرَ أَنْ الشَّهَادَةَ ، الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مَنَاهِجِ المَاضِي اسْتِعْمَالًا ، أَقَلُّ هَذِهِ المَنَاهِجِ صِدْقًا ، وَالوَاقِعُ أَنْ قِيَمَتَهَا ضَعِيفَةٌ إِلَى الغَايَةِ ، لِأَمْصَابِ حُسْنِ المَشَاهِدَةِ فَقَطْ ، بَلْ لِأَنَّ المَشَاهِدَاتِ الَّتِي تَقَعُ تُؤَدِي إِلَى تَعْمِيَّاتٍ خَادِعَةٍ أَيْضًا .

وَقَدْ أَدَّى التَّعْمِيمُ ، كَنَهْجٍ تَارِيخِيٍّ ، إِلَى أَحْكَامٍ مُتَنَاقِضَةٍ تَنَاقُضًا يَجْعَلُ الحَقِيقَةَ أَمْرًا يَضْعُبُ تَمييزَهُ ، وَذَلِكَ فِي مَوْضُوعَاتٍ أُسَاسِيَّةٍ كَحَالِ فَرَنْسَةِ قَبْلِ الثَّوْرَةِ .

وَكَيْفَ يُكَوِّنُ رَأْيٌ صَحِيحٌ حَوْلَ حَالِ الفَلَاحِيْنَ اسْتِنَادًا إِلَى شَهَادَاتٍ بِالغَرِّ التَّنَاقُضِ كَالشَّهَادَاتِ الآتِيَةِ الَّتِي قَيَّدَهَا مَسِيو شُومِهْ ، وَهِيَ :
« إِنْ لَابْرُوِيْرُ يُشَبَّهُ الفَلَاحِيْنَ الفَرَنْسِيِّينَ بِالحَيَوَانَ الوَحْشِيِّ المُنْتَشِرِ فِي الحَقْلِ ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَى . »

وَيُؤَيِّدُ سَان سِيمُونُ هَذَا التَّقْدِيرَ فيقولُ : « يُقْتَاتُ بَعْشَبُ الحَقُولِ فِي نُورْمَانْدِيَةِ فِي أَثْنَاءِ تَبْذِيرَاتِ شَانِيَّيْ » ، وَمِثْلُ هَذَا حُكْمُ مَاسِيُونِ القَائِلِ :
« يَعِيشُ أَهْلُ أَرِيافِنَا بِأَسْيِنِ أَشَدَّ البُؤْسِ » . وَيَقُولُ دَارْجِنْسُونُ مِنْ نَاحِيَتِهِ : « حَدَّثَنِي سِنِّيُورَاتُ تُورِينِ أَنَّهُمْ يَرِيدُونَ إِهْلَاءَ الأَهْلِيْنَ بِأَعْمَالٍ فِي

الأرياف مياومةً فيجدونهم من الهزال وقلة العدَد ما لا يستطيعون معه العمل بذرُعانهم .

وفي الوقت نفسه كان يوجد من الشهود من يصوغون أحكاماً في ذلك مختلفةً اختلافاً تاماً ، ومن ذلك ما قاله رَحَّالةٌ في سنة ١٧٢٨ : « لا يُمكن أن يُتصوَّرَ مقدارُ سعادة الفلاحين ، فالقرى زاخرةٌ بفلاحين أقوياءٍ سَمَّانٍ لابسين ثياباً حسنةً وبياضاتٍ نظيفةً . . . » ، وقالت الليدى مُنتاغيو : « لا يُمكن أن يُتصوَّرَ مقدارُ ما هو منتشرٌ في الملكة من رخاءٍ وسرورٍ » ، ومثلُ هذا قولٌ ولُقول : « أجدُ هذا البلد غنياً غنيَّ عجبياً ، ويبدو على أحقر القرى طابعُ البركة » ، وقال فولتير : « وكيف يُمكن أن يقال إن ولاياتِ فرنسا الجميلة بورٌ ؟ يحسبُ الإنسانُ نفسه في الفردوس ! » ، وأما أرثور يانغ ، الذي استشهدَ تينُ به كثيراً ، فمن يُكلِّف نفسه بقراءته يَعلم ، بعد أن يستخرج من « سياحاته » ما يُمكن من النصوص عن بؤس الأرياف الفرنسية عشيَّة الثورة ، إمكانَ استنباطه رخاءها أيضاً من النصوص البالغةٍ مثلَ هذا المقدار على الأقل .

ويمكن أن يُزاد عددُ هذه الاختلافات في الرأى إلى ما لا حدَّ له ، وتجدُ مثلَ هذه الاختلافاتِ أيضاً لدى المؤلفين الذين عرَّضوا نتائج الإدارة النابليونية في إيطاليا .

فإليك كيف يُعبِّرُ شاتوبريان عما في نفسه :

« إن نابليون عظيمٌ لِمَا كان من سُمُوِّ بعثه وتنويره إيطالية » .

ويختلف عن هذا حُكمُ فاعيه حيث قال :

« مَنِ حُكِمَ الإمبراطورية الأولى في إيطالياً بجبوطٍ ذَرِيعٍ ، فقد أُصِيبَتْ في ست سنين بالإفلاس والفضى والبؤس والجوع والإفقار ، وَبَلَغَ ما عَتَرَى جَمِيعَ الثَّرَوَاتِ الكُبرى من إفلاس ثمانين في المئة ، وأصبح عدد السائلين ثلاثةَ أضعاف ، وزاد عددُ قُطَاعِ الطَّرِيقِ في الأرياف عشرةَ أضعاف ، ومات السُّوقَةُ جوعاً ، ونَقَصَ عددُ سكان رومة بمعدَّلِ الخُمسِ في خَمْسِ سنين . »

ومع ذلك فإن هذه التقديرات المتناقضة تُفسَّرُ بشيء من السهولة لدى النظر إلى أن ذينك المؤلفين التزما زمنين مختلفين ، فلما دَرَسَ شاتوبريان حال إيطاليا كانت الإدارة الإمبراطورية صالحةً تقريباً على الرغم من قسوتها ، ومن ثمَّ كانت أفضلَ من عِصَابَةِ النهب التي أرسلتها حكومة الديركتوار .

والأمرُ كما قال فاغيه : « كانت إيطاليا تقاسى في عهد الديركتوار فجوراً مستمرّاً ، وكانت رومة تشاهدُ ، باسم الجمهورية الرومانية ، قنصلَ ومحامين عن الشعب وأعضاءِ سِنَاتِ يَسْرِقُونَ ويغتنون ويَقْصُفُونَ ويكيدون ويرتكبون المُنْكَرَ وَيَسْفِكُونَ دماً كثيراً في الرِّيفِ الرومانيِّ وَيَسْلُبُونَ القصورَ والمتاحفَ والمكتباتَ وَيُفْرِطُونَ في فَرَضِ الضرائب فيأخذون نصفَ أموالِ الأغنياءَ ورقيقِ الحالِ عَلَى السواء ، وانخلاصةُ أنهم كانوا مزبلةً كريهة من اللصوص والقراصين والأشرار . »

* * *

وإذا عَدَوْتَ عِلَلِ الأغاليط الناشئة عن تعميماتٍ خاطئة فاذْكَرِ الأغاليطَ الناشئة عن تكرارها من قِبَلِ كتابِ ذوى نفوذ ، كما هي حال الآراء العامة

التي صِيغَتْ زَمَنًا طويلاً حَوْلَ مَا افْتَرِضَ من قِضَاءِ البرابرةِ على الإمبراطورية الرومانية .

ولم يَحْتَجِ المؤرخُ العالمُ فُوسْتِلَ دُو كُولَنْجِ إلى غير قليلٍ من البحثِ في أُسُسِ هذا الاعتقادِ حتى يَعْرِفَ مقدارَ ما كان يَشُوبُه من خطأ ، فقد بَيَّنَّ أن الغاراتِ التي قرَعَت خيالَ المؤرخين كثيراً لم تكن غيرَ أعمالٍ منفردةٍ من قَطْعِ السابِلةِ لا غَدَ لها ، وأنه لم يَحْدُثْ قَطُّ أن حَدَّثَتِ البرابرةُ نفسَهُمَ بهِذِمِ الإمبراطوريةِ الرومانيةِ التي كانوا يَبْدُونُ مُبَجِّلينَ إياها تبجيلَ إعجابٍ ومحاولينَ انتحالَ لغَتِها ونُظْمِها وفنونِها ، فإذا وَقَعَ في نهايةِ قرونٍ كثيرةٍ أن قَضَوْا ببطءٍ على الحضارةِ الرومانيةِ لم يَكُنْ هذا قَطُّ نتيجةَ غاراتٍ عنيفةٍ دُفِعَ مُعْظَمُها بسهولةٍ من قِبَلِ برابرةٍ مرتزقينَ لدى الرومانِ ، بل كان بوسائلَ سَلْمِيَةٍ ، وبما أن هؤلاءَ الأهلينَ المتأخرينَ الذين أُدخلوا إلى العالمِ الرومانيِّ كانوا عاجزينَ عن ملاءمةِ حضارةٍ تَعْلُمُهمُ عُلُومًا كبيراً فإنهم خَفَضُوها إلى مستواهم بحكمِ الضرورةِ ، ولذلك لم يُقَضَ على الحضارةِ الرومانيةِ بَغْتَةً ، بل أُخِذَ مكانُها شيئاً فشيئاً .

ثم إن الرومانَ أَنفَسَهُمُ هم الذين أوجبوا هذه الغزواتِ السَلْمِيَةَ حينما أصبحوا بالغيِ الغِنَى متمردينَ على الزواجِ فأدخلوا أجانِبَ إلى جيوشهم وإداراتهم بالتدريجِ ، ولما صارَ المرتزقةُ جنودَ رومةِ حَصراً وصارت رومةُ تُدِيرُ ولاياتِها من قِبَلِ رؤساءٍ من البرابرةِ أصبح هؤلاءَ الرؤساءُ مستقلينَ شيئاً فشيئاً ، ومع ذلكَ كان نفوذُ عظمةِ الرومانِ من القوةِ ما عَدَّ هؤلاءَ الرؤساءُ أَنفَسَهُمُ معه من موظفي رومةِ دائماً وإن غَدَوْا أصحابَ سيادةٍ ، ومن

ذلك أن . بَدَا كَلُوفِيسُ فَخُوراً بَلَقِبَ الْقَنْصَلُ الرُّومَانِيَّ الَّذِي أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ
الإمبراطورُ المقيمُ بالقسطنطينية في ذلك الحين ، وَتَمَضَى ثَلَاثُونَ سَنَةً
على موت كَلُوفِيسَ فَيَتَلَقَّى خَلْفَاؤُهُ مَا يُمْلِكُهُ الأباطرة من قوانينَ ويراعونها ،
وكان لا بُدَّ من حلول القرن السابع حتى يَجْرُؤَ رُؤَسَاءُ الْعُؤُل من البرابرة
على إحلال صُورِهِمْ عَلَى النُقُودِ محلَّ صورِ أباطرة الرومان .

ولم يَشْعُرِ المعاصرون بزوال سلطان الرومان لوقوعه بطيئاً تدريجياً إلى الغاية ،
ولذلك يكون المؤرخون قد بدءوا تاريخَ فرنسة قبل الزمن الحقيقيِّ بقرنين
واختلقوا لنا اثني عشرَ ملكاً .

* * *

ولم تكن غَزَوَاتُ البرابرة السَّلميةُ وحدها كافيةً لتحويل الحضارة
الرومانية لو لم تنحلَّ هذه الحضارةُ بفعل الروح الجديدة التي جاءت النصرانية
بها ، فقد تَحَوَّلَت هذه الحضارة من عسكريةٍ إلى لاهوتيةٍ بالتدريج ، وقد
تقدَّم الفنُّ في بَرِزْنَةِ التي نُقِلَت إليها ، ولكن مع انقباض آفاق الفكر الإنسانيِّ ،
ويستفيد التُّرك من المناقشات اللاهوتية التي كانت تستغرق جميعَ نشاطِ البرِزَنْطيين
فيستولون على تلك المدينة العظيمة .

ومما يلاحظُ ، مع ذلك ، كونُ التاريخِ يُعَوِّزُهُ ما يَكْفِي من الوثائق
عن أعظم الحوادث .

ومن ذلك كونُ التاريخِ يَضْطَرِبُ في بيانِ السببِ في اعتناق العالمِ الرومانيِّ
للنصرانية في قرنين أو ثلاثة قرون ، ومن الواضح أن كان هذا الدين يستهوى
العبيدَ لجمعه إياهم مساوين لسادتهم ، ولكن ألمَ يكن من الضروريِّ أن يَبْدُوَ

بغضاً بُغْضًا مطلقاً لدى هؤلاء السادة الذين يُقَلِّبُ أحوالَ حياتهم الاجتماعية رأساً على عَقَبٍ ؟ إن جميعَ الإيضاحاتِ حَوْلَ حادثِ عظيمٍ كهذا ظَلَّتْ فاقدةَ القيمةِ حتى الآنَ ، فوَجَبَ أن يُلجأَ إلى مبادئِ علمِ النفسِ الحديثِ لِيُذَرَكَ أمرُها .

* * *

يُرى مقدارُ عدمِ الصحةِ في الأفكارِ التي استقرتِ وَفَقَ تعميماتِ تقليديةِ عن بعضِ أدوارِ التاريخِ ، ويلاحظُ هذا ، أيضاً ، في مسائلَ أكثرَ حِدَةً من تلكِ بمراحلِ ، ومن ذلكِ أن عُدَّ لويسُ الثالثَ عشرَ ، لزمانٍ طويلٍ ، صاحبَ نَفْسٍ ضعيفةٍ يسيطرُ عليها رِيشليوُ سيطرةً تامةً .

وعَلَى العكسِ يُظهِرُهُ نَشْرُ رسائلهِ مشتملاً على نَفْسِ صافيةِ حازمةِ مشيرةٍ عَلَى رِيشليوُ أكثرَ من أن تُوجَّهَ بهذا الأخيرِ ، مُدَبِّرٍ بها مملكتهِ تديباً صحيحاً بين حروبٍ كثيرةٍ ودسائسٍ ومؤامراتٍ يوميةٍ كان يشترك فيها أخوه والأُمُّ لِلِلكةِ والبرلمانِ ، وأخيراً تَرَكَ هذا الملكُ لوارثه لويسَ الرابعَ عشرَ فرنسةَ قويةً مَوْحَدَةً بفضلِ صرّامتهِ ، وكان قد تَلَقَّها غارقةً في الفوضى .

ومن السهلِ أن يُطلَعَ عَلَى أمثلةٍ أخرى عن التعميماتِ التاريخيةِ غيرِ الصحيحةِ ، حتى إنه يُمكنُ أن يُسألَ عما يَبْقَى من التاريخِ الكلاسيِّ إذا ما وُضِعَ عَلَى مَحَكِّ النقدِ بأسرِهِ ، فمن المحتملِ حينئذٍ أن يَتَحَوَّلَ تحوُّلاً تاماً ما يَدُورُ من مبادئِ حَوَلِ الأزمنةِ ، حتى الحديثَةِ ، التي يُلوحُ أنها دُرِستِ درساً خيراً من غيرها كدَوْرِ الثورةِ الفرنسيةِ .

ولا يكتسبُ التاريخُ صحّةً ظاهرةً إلا بارتدادهِ إلى الماضيِ مقداراً فقديراً ،

وبما أن مُفسِّرى الوقائع القديمة قليلو العدد فيه إلى الغاية فإنه لا مناصَ من قبول ما يَقْصُونَ ، ولا يُمكن أن يجادل في بعض الأحاديث ، كالتى دارت حَوْلِ الِيلُوبُونيز مثلاً ، ما كان لهذا الدَّور مؤرخٌ واحد فقط :
توسيديد .

ويجب ، لتفسير الحوادث التى يتألف منها التاريخ ، ولا سيما تكوينُ الأحوال التى تنشأ عنها ، أن يُستعان بمناهج الاستقصاء التى تختلف اختلافاً كبيراً عن المناهج التى اقتصر عليها المؤرخون زمناً طويلاً ، وقد خصَّصنا فصولاً كثيرةً من هذا الكتاب للبحث فى هذه المناهج .

مصادر الخطأ في التاريخ ما يُمكن تبصّره وما لا يُمكن

اليومَ يعترف المؤرخون ، على العموم ، بما لمنهج البحث القديمة من قيمةٍ ضعيفة ، ومن ذلك ما قاله مسيو سِنْيُوبُوسُ في كتابٍ لَخَّصَ فيه دروسه التي ألقاها في السَّرْبُون :

« تقوم مبادئ التاريخ على ما لم نشاهد من وقائعٍ موصوفةٍ بعباراتٍ لا تدعُ لنا عَرْضَها عَرْضاً دقيقاً » .

وما كان الأمرُ لِيُظْهَرَ غيرَ هذا ، فبما أن الملاحظاتِ التي انتُفِعَ بها في الماضي مجردةٌ من قواعدٍ قويمَةٍ فإنها لا تدلُّ على غير آراء مؤلفيها .

ويجب أن تنمُوَ روحُ النقدِ في التاريخِ قَبْلَ أن تُقَوِّمَ الأغاليطُ القديمة ، ولا سيما تعينُ ما يكون عاماً في الأحوال الخاصة .

والأمرُ كما لاحظَ فُسْتِلُ دوكولنجُ القائلُ : « ولكن روح النقد منذ ١٥٠ سنة كانت تقوم ، في الغالب ، على عادة الحكم في الأمور القديمة من حيث احتمال وقوعها ، أي من حيث مطابقتها لِمَا نراه ممكناً أو قريباً من الصدق ، وإذا أدركت روح النقد على هذا الوجه لم تكن أمراً غيرَ الرأى الشخصيِّ أو العصريِّ القائم مقام رأى الماضي الحقيقيِّ ، فحُكْمٌ وَفَوْقَ الشعور ومنطق الأشياء الذين لم يُوضَعاً قَطُّ وَفَوْقَ المنطق المُطلق ، ولا وَفَوْقَ عادات الشعور العصريِّ » .

ولا يوجد غير عددٍ قليلٍ جداً من ذوى النفوس النَّفَّاذَةِ بعضَ الشيء من يستطيع أن يُفسِّرَ الوقائعَ ، أى أن يَمَيِّزَ الأفكارَ تحت الكلمات والمشاعرَ تحت النصوص ، وأن يُفرِّقَ بين العوامل الحقيقية للحوادث التى يَقُصُّهَا كثيرٌ من المؤلفين من غير أن يُذَرِّكُوها ، وقد جَدَّدَ فُسْتَيْلُ دُو كُولَنْجُ الذى استشهدتُ به جميعَ تاريخِ العصر المِירוْفَنَجِيِّ مع بعضِ الخلاصاتِ القصيرة التى لم يُبَصِّرْ أسلافه شيئاً منها على الإطلاق .

* * *

وبدأ المؤرخون المعاصرون يُذَرِّكون ضعفَ قيمةِ الوثائق التى كَتَبَ التاريخُ استناداً إليها .

أجل ، ظَلَّتْ سذاجتُهُمُ عَظِيمَةً ، ولكنْ من غير أن تُساوَى سذاجةَ أسلافهم فى القرون الوسطى حين كانوا يَعُدُّونَ من الحقائق جميعَ الأوهام التى يَرَوُونَهَا ، وقد كان عندهم من الاستعداد العجيب ما يستخرجون به من أى نَصٍّ أبعدَ التفسير من الحقيقة وما يُبَدِّينونَ به أدعى المستحيلات إلى الدَّهْشِ . وقد كان ، حتى القرنِ السادسِ عشرَ ، يُعَلِّمُ ، كحقيقةٍ لا جِدَالَ فيها ، كَوْنُ الفرنسيين من نَسْلِ فرَنْكُوسِ بنِ هِكْتُورِ الذى فرَّ من حصارِ تَرْوَادَةِ ، وكونِ اسمِ عاصمةِ فرنسة من اسمِ پاريسِ بنِ پَرِيَامِ ، وكونِ التَّرَوَادِيِّينَ بَنَوَا المدينةَ الفرنسيةَ تَرْوَا ، وأن محمداً كان كَرْدِينَالاً فَغْضِبَ لعدم انتخابه بابا فصار مُلْحِداً وأقام ديناً جديداً ، وأن يهوذا كان قد قتل أباه ليتزوج أمه ، إلخ .

ومن الواضح أننا أقلُّ سذاجةً فى الوقت الحاضر، ولكن مع بقاء العِلْمِ

التاريخيِّ سلبياً على الخصوص ، ويُدرك هذا العلمُ ، تقريباً ، أن من المتعذر حدوثَ بعض الأمور كما كان يُقَصُّ خبرُها ، وذلك من غير أن يُحسِّنَ معرفةَ الوجه الذي وَقَعَتْ به

* * *

ومهما تكن درجةُ المؤرخ من اللقائَةِ فإنه يَصُعبُ عليه أن يتخلص من العوامل الناشئة عن عقائده السياسية والدينية ، ولا سيما المشاعرُ الصادرة عن البيئة التي يعيش فيها ، فالمؤرخُ يختار من الوقائع ، غالباً ، ما يُلوح أنه يُسوِّغُ به أفكارَه وأهواءَه وعقائدهَ حاذقاً غيره .

قال سِنْيُوبُوسُ أيضاً : « والواقعُ أنه يقوم بين النصِّ والنفسِ الميَّالَةِ التي تَقْرُوهُ صِراعٌ فظيعٌ ، وتأبى النفسُ إدراكَ ما يناقض رأيها ، والنتيجةُ العاديةُ لهذا الصراع أن تخضع النفسُ لصراحةِ النصِّ ، ولكن الذي يقعُ هو أن النصَّ يُذعنُ وَيَثْنِي وَيَرْضَى بالرأى المُبتَسَّرَ الذي يساور النَّفسَ . . . » .

حتى إن الوقائعَ المُودَعَةَ في الوثائق لو كانت صحيحةً جداً لم يتألف منها غيرُ موادٍّ لبناءٍ يَجِبُ أن يُقامَ فيما بعد ، وتكون الاستعلاماتُ الكثيرةُ عن الحوادثِ التاريخيةِ ، الحديثةِ نسبياً ، متناقضةً ، ومن المحتمل أن يُكْتَشَفَ فيها دائماً تسويغٌ لرأيٍ ما ، ولا شيءَ في التاريخِ أسهلُّ من تأييدِ رأيٍ مخالفٍ لذلك ، وهذا ما يكاد يتعدَّرُ في العلومِ حيث لا قيمةَ لقضيةٍ إلا عند تسويغها بالملاحظة أو التجربة .

قال مَسِيو بَواسِيَه : « لا يَرِغِبُ علماءُنا الشُّبَّانُ أن يُزْعِجُوا أنفسهم كثيراً بتكرار ما قيلَ قَبْلَهُم بعد أن يَعضُوا أياماً كثيرةً في المكتباتِ ومخازنِ

المستندات مطالعين الأوراق القديمة ، وهم يَرَوْنَ أن طُرُفة الآراء شاهدةٌ على عمق الأبحاث فيحاولون إعادة الاعتبار إلى من حُكِمَ عليهم من الأعيان جاعلين فخرهم في تبديل الآراء الدارجة .

وهكذا أمكن أن يُقرَّرَ كونُ نَيْرُونِ خَيْرَ الأبناء وأكثرَ الأباطرة إنسانيةً ، وكونُ رُوبِسِييرِ رجلاً كثيرَ الحِلْمِ نزوعاً إلى جعلِ الناسِ يعتقدون أفكاره بالإقناع ، وهكذا يحاول أساتذة شُبَّانٍ ، أيضاً ، أن يُثبِتُوا لنا كَوْنَ جانِ دَرَكِ ولويسِ الرابعِ عشرِ لم يتصفا بأية مزية كانت ، وأن دُيْلِكْسَ لم يَكُنْ غيرَ دَيسِيسِ خسيس ، بلخ ، ويسعى آخرون أن يثبتوا لنا كونَ شكسبيرِ وكُرْنِيِ ولا رُشْفوكُلْدِ قد اقتبسوا أفكارَ كتابِ سابقين فقط .

* * *

واليومَ نَرَى ببطءٍ ، ولكن مع اطمئنانٍ ، كَوْنَ دراسة التاريخ تُصَبِّحُ من عمل العلماء مع أنها كانت من عمل الأدباء فقط ، ويقوم التدقيقُ التاريخيُّ مقامَ أهواء الخيال .

والعلمُ هو الذي يُسَوِّغُ ، على الخصوص ، تركَ الأفكار الغربية المنتشرة في زمن رُوشو عن صلاح الإنسان صلاحاً أصلياً وعن كمال المجتمعات الفطرية ، أي تركَ هذه الأفكار التي وجَّهتْ مُحَرِّكى الثورة الفرنسية .

وقد استطاع علمُ المستحاثات وعلمُ وصف الإنسان برسمهما تطورَ الإنسان جسماً وذهناً أن يستبدلا بالمباحث الأدبية وثائقَ صادقةً يتلاشى أمامها جميع تفصيلات رجال البيان .

وعاد لا يبقى للمؤرخين حَصراً غيرُ حَلِّ النصوص والمخطوطات ، وليس هذا عملاً غير نافع تماماً لاريب ، ولكن ما أشدَّ شحوبه بجانب النتائج التي تُسفرُ عنها استقصاءاتُ العلم الحديث !
 وفي التاريخ حلٌّ مبدأ التطور التدريجيُّ محلُّ التحولات المتقطعة والمفاجئة .
 والأمرُ كما لاحظته مسيو سِنْيُوبُوس حَوْلَ الزمن المعروف بعصر النهضة ،
 فقد قال :

« إذا كانت قد وُجدت نهضةٌ في الفنون لم يُمكن وقوعها في غير عهد شارلمان في القرن التاسع ، لافي القرن السادس عشر ، فقد جدد الماثورُ في القرن التاسع ، وعاد غير منقطع ، ولا تُبعثُ الفنون والآداب ، ولكنها تواصلُ تطورَها ، حتى إن فنَّ البناء بَلَغَ أعلى مراتب إبداعه وقوته في فرنسا في أوائل القرن الثالث عشر مع الفن القوطي » .

* * *

وتسيطر على الحادثات العلمية سُننٌ وثيقة تجعل إدراكَ الأمور قبل وقوعها أمراً سهلاً ، وهكذا يُمكن أن تُعيَّن حركة السيَّارات ومحلَّها في زمنٍ ما ، وأن يُعيَّن تاريخُ الكسوف الصحيح ، إلخ .
 ولا يَعْرِفُ التاريخ مثلَ هذا الإحكام ، فالعللُ التي توجب الحوادث هي من الكثرة ، ومن البعدِ أحياناً ، ما يُحْظَرُ عاينها معه مثلُ تلك البصائر حَوْلَ علم الفلك .

ومعرفةُ المستقبل ، وإن كانت تتعذر في الأحوال الخاصة التي تتكرر على وجهٍ واحد نادراً ، تصبح سهلةً نسبياً حَوْلَ الأحوال الجمعية ، ومن

ذلك أن علم الإحصاء وُلِدَ من تطبيق هذا المبدأ ، وتَبَدُّو نبوءاته من الصحة كنبوءات علم الفلك ، أَجَلٌ ، لا يُمكن تعيين الوقت الذي يموت فيه فردٌ من جيلٍ ما ، غير أن وضعَ جداولَ عن الوَفَيَاتِ يُوَدَى إلى تحديد عدد مَنْ يموتون من أفراد ذلك الجيل في كلِّ سنة ، وفي الغالب يَسْمَحُ انتظامُ بعض الحوادث الاجتماعية بأن يُدَبَّأَ بها منذ إحلال البصائر عن الجَمْعِ محلَّ البصائر عن الفرد .

وإذا عَدَوْتَ تلك البصائرَ عن الجَمْعِ وَجَدْتَ من البصائر ما يُمكن وصفه بالبصائر النفسية ، فلم تكن هنالك ضرورةٌ ، مثلاً ، إلى أن يكون الإنسان ذا نظر ثاقب ليرى نموُّ شبحِ بونابارت وراء الاضطرابات الثورية ، ولا ليُحَسَّ أن وعيدَ الاشتراكيين في سنة ١٨٤٨ أدى إلى ظهور دِكتاتورٍ جديد استُقبِلَ مثلَ منقذ .

وهذه التقديراتُ النفسية سهلةٌ نسبياً ، ومنها ما صُغِّتْه بنفسى قَبْلَ الحرب عندما قلتُ مؤكِّداً في كتابي « روح السياسة » إن حَرَبنا القادمة مع ألمانية هي ، خلافاً لجميع ما ينادى به دُعَاةُ الإنسانية ، « ستكون صراعاً فاقَدَ الرحمة فُتخَرَّبَ به ولاياتُ بأسرها فلا يبقى قائماً فيها شجرٌ ولا حجرٌ ولا بشر » ، وفي كتابٍ آخرٍ أُبديتُ الأسبابَ التي استندتُ إليها في هذه النبوءة .

* * *

وفي بعض الأحيان يُمكن أن تُبَصَّرَ الحوادثُ الخاصةُ قبل وقوعها إذا ما كانت نتيجةً محتملةً لحوادثٍ سابقة ، فلو كان لدى قَتَلَةِ قيصَرَ حِسِّ

تاريخيُّ أدقُّ مما عندهم لأدركوا أن القيصرية لم تكن من صنْع قيصر ، بل نتيجة منازعات اجتماعية وحروب أهلية ومقاتلٍ أمرَ بها سيلاً ومارزيوس وسلسلةٍ من الاضطرابات كانت تحمِل كلَّ مواطنٍ أن يَرَجُوَ ضمانَ حياةٍ هادئةٍ له .

وإذْ أَعْمَتَ رجالَ السياسة أوهامهم السياسية فإنهم يَبْدُونَ على العموم مُجَرَّدِينَ كثيراً من مزية البَصَرِ في الأمور ، ولو كان ذلك حَوْلَ أقربِ الحوادث ، وإذْ لم يُدْرِكِ المُعْتَقِدُ العالَمَ إلا من خِلالِ رُوحِ مَعْتَقَدِهِ السِّياسِيِّ أو الدِّينِيِّ المُشَوِّهِ فَإِنَّهُ يَعِيشُ ضِمْنَ دَائِرَةٍ خِيَالِيَةٍ وَيَظَلُّ غَرِيباً عَنِ الحَقَائِقِ . وأربعةٌ من خمسة ملوك حَكَمُوا في فرنسة في غُضُونِ القرنِ التَّاسِعِ عَشَرَ ذَهَبُوا ضَحيَةً عَدَمِ التَّبَصُّرِ النَّاشِئِ عَنِ أَغَالِيطِ نَفْسِيَةٍ .

ويتألف من مُعْظَمِ الحوادثِ العظيمةِ في غُضُونِ الحربِ الأخيرةِ ، كَمَعْرَكَةِ المارنِّ والتدخُّلِ الأمريكيِّ والخيانةِ الروسيةِ والانكسارِ الألمانيِّ وزعامةِ الولاياتِ المتحدةِ ، سلسلةُ أمورٍ لم تَحْطُرْ بِبِالِ إنسانٍ ، فغيرُ المنتظرِ في هذا الدورِ هو الذي سَيَطَّرُ على التاريخِ .

الفصل الرابع

روح النقد في التاريخ

رأينا في الفصول السابقة مقدارَ الارتباب في تفسير الوقائع التاريخية القديم ، حتى التي تُعدُّ أكثرها شهرةً .

وكان يجب للحكم فيها في بدء الأمر أن تُحدَفُ العواملُ القومية والدينية والسياسية ، التي تُعينُ مُعْظَمَ الأحكام ، حَدْفًا تامًّا ، وما كُتِبَ في مختلف البلدان من مؤلِّفاتٍ حَوَّلَ الحوادثِ نَفْسِها يشتمل ، بفعل سلطان تلك العوامل ، على تقديراتٍ مختلفةٍ أشدَّ الاختلاف .

وفي المؤلفين تؤثرُ المُبَسَّراتُ^(١) الدينية على الخصوص وإن اعتقدوا تَمَلَّصَهُم منها ، وهكذا انتهى كثيرٌ من المؤرخين ، مثلاً ، إلى آراءٍ شديدةٍ الخطأ حَوَّلَ قيمة الحضارة الإسلامية ، ويظلُّ التحاملُ على العالم الإسلاميِّ السابق مستعصياً حتى الوقت الحاضر ، فيحتاج تاريخ القرون الوسطى إلى تجديدٍ في جميع أجزائه الخاصة بانتقال الحضارة القديمة إلى الأزمنة الحديثة . ويَهْدَفُ مؤرخون كثيرٌ إلى التخلُّص من التفاسير الشخصية فيريدون تأليفَ حوادثِ زَمَنِ ما تأليفاً مجدِّداً بسلسلةٍ من البِطَاقَاتِ مشتملةٍ على مقتطفاتٍ من الوثائق ، أى الشهاداتِ ، وسنبيِّنُ في فصلٍ آتٍ نقصَ هذه الوسيلة في الاستقصاء .

* * *

وكما كَمَلتْ مناهجُ دراسة التاريخِ شوهِدَ تعيين معظمِ الحوادثِ بسلسلةٍ من العُلل الخفية ، ولا يُحَدِّثُ التاريخُ عنها مطلقاً مع أنها هي التي توجدُ التاريخ .

وينشأ أحدُ مصادر الخطأ الكبرى في تفسير الحوادث الماضية عن محاولة المؤلفين إيضاح الوقائع بأفكار الحاضر بدلاً من تقديرها وفق أهواء كلِّ زمن ومشاعره المتقابلة .

وليس العملُ سهلاً ، فيجب ، مثلاً ، أن يُوصَلَ إلى إدراك روح المؤمن المسيطر عليه اعتقاده ، وإدراكِ كون روح البارون الإقطاعي المهتدة حياته دائماً غيرَ مشابهةٍ لروحنا ، وإدراكِ روح الثوريِّ المنوم بأحلامه ، إلخ . ، وكيف يكون تأثير الرجل في أيامنا بالناقشات حول العناية الربانية التي هزّت الفرنسيين المثقفين هزاً عنيفاً في زمن اليَسُنُوسية ؟ وكيف مُنْتَحَلُ حالُ رجال القرون الوسطى ورجال الهولِ النفسية ؟ لا ريبَ في كون العالم المحقق يشعُرُ في مكتبه بكثير من المشقة حتى يُبصرَ الضرورات التي حَمَلتْ سيلاً وماريُوس على إهلاك ألوف المواطنين من الرومان ، وحمَلت قيصراً على عبور نهر الرُوييكون وشارل التاسع على معاناة إرادة الشعب التي تُعدُّ سبباً حقيقياً لمذبحة السان برتلمى .

ويجب لحسن إدراك معنى هذا الحادثِ التاريخيِّ أو ذاك أن يُوصَلَ إلى إحياء ما يُمكن أن يدعى « روح الزمن » ، هذه الحساسة المتقلبة إلى الغاية والمؤثرة حيناً ثم الدارسة الخلوعة حيناً آخر .

وتتحول فرنسا في الدور القصير الممتد بين آخر عهد لويس السادس عشر وإعادة الملكية تحوُّلاً أعظم مما في عهدى لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر .

* * *

واليوم يُمكن أن تُبيِّن ، على الرغم من كلِّ تقدمٍ علميِّ حديث ، درجة تجرُّد المناهج المتخذة لتعيين الحقائق التاريخية من روح النقد ، وذلك بالاستقصاء الطويل الغالي الذي أمر به اليربشتاغ وُصُولاً إلى معرفة علل هزيمة الألمان ، وكانت اللجنته التي فُوِّض إليها هذا الاستقصاء مؤلَّفة من رجالٍ فضلاء ، وقد عمِلَ هؤلاء ثمانية أعوام وأنفقوا مبالغ طائلة ، فكانت النتيجة التي وُصِلَ إليها هي : « انه يجب أن تُعزى عللُ الهزيمة إلى تفوق الحلفاء الحربى والاقتصادى ، وانه لا يُمكن أن يُنسب أىُّ خطأ إلى قادة الألمان » .

إن هذه النتيجة مختلفٌ فيها ، وذلك لأنه إذا كان من الصعوبة الشديدة أن يُصاغ رأى قاطع عن علل هزيمة الألمان فإن من الممكن أن يلاحظ صدورُها عن عاملٍ نفسىِّ أساسىِّ ، لا ريب ، غفَّلت عنه اللجنته ، وهو ضياعُ الثقة بالنصر النهائى ، وكان ضياعُ الثقة هذا ينشأ عن نقصٍ بصيرة إمبراطور ألمانيا الذى أدت أغاليطه النفسية إلى تدخُّل جيشٍ أمريكىِّ يزيد كلَّ يوم ، وكان الشأنُ الحربىُّ لهذا الجيش الذى ارتُجِلَ على عَجَلٍ فى حُكْمِ المردوم ، ولكنه كان بالغَ النفوذ ، فلم يلبث أن قُطِعَ أملُ مدنيِّ الألمان والجيشِ الألمانىِّ من نيِّلِ نصرٍ على مثل هذا الجَمْع ، فغلبت

ألمانية في آخر الأمر بعوامل نفسية أكثر تأثيراً من المدافع .

* * *

ومهما يَبْقَ من نقصٍ في المناهج التاريخية التي تُشْتَقُّ منها أحكامنا فإنها حَقَّقَتْ تقدُّماً جديراً بالذكر مع ذلك ، ويشاهدُ هذا التقدمُ عند المقابلة بين الآراء الحاضرة في بعض النظم ، كالإقطاع مثلاً ، وما كان يُصاغُ في موضوعه من آراء منذ نحو نصف قرنٍ من قَبْلِ كتابِ كثيرين ، ولا سيما المؤرخُ المشهور غيزو ، فقد قال :

« لم تَشْعُرِ الشعوبُ بغير الحبِّ والشكر حينما كانت تقام الحصون الإقطاعية ، فهي لم تُبْنَ ضِدَّهَا ، بل من أجلها ، وكانت هذه الحصونُ مركزاً عالياً يقوم بالحراسة فيه مُحامَةٌ يترقبون العدوَّ ، وكانت مستودعاً أميناً لمحصلاتها وأموالها ، وكانت ، إذا ما وقعت غاراتٌ ، ملجأً لنساءها وأولادها ولأنفسها ، والحقُّ أن كلَّ حصنٍ قوى كان ينطوى على سلامة كورةٍ .
« وعادت الأجيالُ الحديثة لا تَدْرِي ما الخطرُ ولا الحاجةُ إلى النجاة » .

إذن ، كان النظامُ الإقطاعيُّ ضرورةً في زمن ظهوره ، أي في زمن الغزوات ، وكانت الخِدْم التي يقوم بها تُسَوِّغُ التكاليفَ المفروضةَ مبادلةً ، ولم يُنْقِمْ هذا النظامُ إلاَّ بعد أن صار غيرَ نافعٍ فزَعَمَ أنه يحافظُ على امتيازاتٍ لم يَبْقَ مايسوِّغُها ، وقد جاء زمنٌ أَثَقَدَ الإقطاعُ فيه فرنسة التي تَخَلَّتْ عنها السلطةُ المركزية ، ثم جاء زمنٌ عاد الإقطاعُ لا يَنْفَعُ فيه لغير البغي على البلد ، وهذا الذي جعله ممقوتاً .

* * *

والتاريخُ ، فيما عدا الحوادث الصغيرة التي يختلف تفسيرها بكل اتجاه جديد ، يتألف من آراء عامة لا تلبث أن تستقرَّ حَوْلَ كلِّ دَوْرٍ ، فهذه الآراء العامة هي التي تُعرِّفنا الكتبُ بها .

وقد تنوّعت هذه الآراء العامة كثيراً لفقدان روح النقد ، حتى إنه يُرى ، عند عدم النظر إلى غير الحوادث التي وقعت منذ ١٥٠ سنة ، أن هذه الحوادث أدت إلى أكثر التفاسير تناقضاً حَوْلَ تكوينها ونتائجها ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما جاء في تاريخ الثورة الفرنسية التي عدَّت في ثلاثة أرباع قرنٍ حادثاً عجيبياً لإصلاحها جميع شؤون الحياة ، فقد حرَّرت فرنسا من نير الطُّغاة ، وألغت الامتيازات ، ووضعت من المبادئ الجديدة ما يكون به مختلفُ الشعوب سعيداً باعتمادها ، وصارت المذاهبُ الثورية دُستورَ العالم بفضل حربٍ دامت عشرين عاماً في طول أوربة وعرضها .

وقد بقيَ هذا المبدأ ، الدينئُ حقاً ، عن دَوْرٍ من أكثر أدوار التاريخ شؤماً ، ثابتاً لا يتزعزع إلى أن أوجبت مناهجُ النقد الدقيق ، التي حمل لواءها مؤرخون كثيرٌ ، ولا سيما تينٌ ، استبدالَ الحقيقة بالأوهام ، وهناك رُئيَ أن الامتيازات التي ألغتها الثورة الفرنسية كانت سائرةً نحو الزوال قبل حدوثها ، وأن المساواة أمام القانون كانت تُوشِكُ أن تُفرض في كلِّ مكان ، وهناك رُئيَ أيضاً مقدارُ الوهم في الإكليل المجيد الذي كان للمؤرخون الروائيون يتوجون به هذا الدَّور ، فقد رُدَّ « غيلانُ المهدي » إلى نِسبِ عادلة وظَهَرَ المستوى وَضِعاً جيداً ، بعد أن ثبَّت أن أوهامهم كانت كبيرة وأن أحكامهم كانت حقيرة .

أجلّ ، إن الثورة الفرنسية أوجدت مساواةً في حقوق المواطنين لا عهد
لماضى بمثلها ، غير أنها قضت على كلِّ استقلال في الحياة الإقليمية البالغة
النشاط فيما سلف ، فصار لا يُتصوَّرُ اليومَ وجودُ مجلسٍ للمديرية ، أو وجودُ
مجلسٍ عامٍّ مَثَلًا ، يقاوم الأوامرَ الصادرةَ عن وزارة الداخلية ، وكانت
مقاومة مُختلفِ البرلمانات للأوامر الملكية ، ولا سيما رفضُ الموافقة على
ضرائبٍ جديدةٍ ، من عادات العهد السابق اليومية ، ويكفي للدلالة على
ذلك أن يُذكرَ من بين ألف مثالٍ وَضَعُ بَرلمانٍ غرينوبل الذي رَفَضَ
الخضوعَ للراسيم الملكية ، وإليك العبارة التي ذكرت بها إحدى الصحف
هذا الحادث منذ عهدٍ قريب :

« حَدَثَ في سنة ١٧٦٠ أن حَمَلَ محافظُ دُوفينه ، الكونت مَرَسِيو ،
بالقوة على تسجيل مرسومٍ ملكيٍّ يَفْرِضُ ضرائبَ جديدةٍ ، وَحَدَثَ في
سنة ١٧٦٣ أن جَرَّوُ بَرلمانٍ دُوفينه على إقامة تظاهرات تجاه السلطة
الملكية ، وَحَدَثَ في سنة ١٧٨٦ أن رَفَضَ مُجدِّدًا تسجيلَ مرسومٍ ،
وَحَدَثَ في سنة ١٧٨٧ أن دعت الحكومة أعيان الولاية إلى اجتماعٍ لإحباط
عمل البرلمان ، فأعلن هذا البرلمانُ للملك وللأمة خيانةً من يشترك في ذلك
الاجتماع ، فأبَعِدَ القضاةُ في سنة ١٧٨٨ ، وكان سَفَرُهُم سببًا لعصيان
الأهلين ، ويجتمع الأعيان في دار بلدية غرينوبل ، ويقررون الاحتجاج على
تعدّي البلاط ، ويطالبون بحفظ امتيازات البرلمان الدُوفيني .

« وَيُدْعَرُ البلاطُ فيرسل كتابًا ، وهناك يقيم ممثلو الطبقات الثلاث
بقلعة فيزِيل التي تَدْخُلُ في التاريخ . »

ثم إن استقلال القضاء كان في العهد السابق أوسع بمراحل مما في الوقت الحاضر ، ويُمكن أن يُحكَم في هذا بالأمر الآتي الذي جاء في إحدى الصحف الكبرى والقائل ، على حسب تقرير وزير العدل مسيو راوول بييه ، إنه تلقى في بضعة أشهر ٨٠٠٠ رسالة من رجال البرلمان يلتمسون فيها أوسمةً أو ترقيةً للقضاة .

ويذكرُ تحريرُ الفلاحين كإحدى النتائج الكبرى التي أسفرت عنها الثورة الفرنسية ، ولكن مثلَ هذا التحرير قد تمَّ من قِبَلِ حكوماتٍ ملكية في البلدان الأخرى ، ومن ذلك أن لُوْحِظَ بحقِّ كونِ حكومةٍ فينه الإمبراطورية قد حققت تحريرَ الفلاحين هذا ، وكونها جمعت التجارة والمواصلاتِ عصريةً في هُنغارية ، وفي أياونا أتت رومانيةٍ مثلَ هذا التطور من غير أن تقع أيةُ حركةٍ ثورية .

وهل يكون للأمة عِوضٌ في تعجيل إصلاحٍ ، كان يُحقَّق مع الزمن تحقيقاً غريزياً ، مما تكون قد عانتَه من عنفٍ وتخریبٍ نتيجةً لثورةٍ تَهْدِفُ إلى إنجاز ذلك الإصلاح بسرعة ؟ يتوقف على الجواب عن هذا السؤال ما يمكننا أن نُصدِرَ من أحكامٍ حَوْلَ الثورة الفرنسية وحَوْلَ عصر الانقلابات التي تُعدُّ أصلاً لها .

أجل ، إن الحماسة العمياء السابقة حَوْلَ ذلك الدَّوْر دامت زمناً طويلاً ، ولكنها ضَعُفَتْ في أياونا كما يُلوح ، وتَسَوَّغُ روحُ النقد استنباطَ معارفٍ كثيرةٍ من هذه الأزمة الكبرى ، ولاسيما ما يجب على الأمم ، الراغبة في اجتناب الثورات ، من أن تُلأَم بالتدرج مقتضياتِ الزمنِ

الجديدة التي تنشأ عن تحولات العالم المتصلة .

* * *

وتساعدُ الملاحظاتُ السابقةُ على بيان مقدار ما تتحول به مبادئُ التاريخ القديمة بظهور روح النقد .

فَبَيْنَا كان مؤرخو الماضي يُفسِّرونُ الحوادثَ على حسب مشاعرهم الشخصية ومعتقداتِ زمانهم يعتقدُ مؤرخو الوقت الحاضر بالتدرُّج مبدأَ الضرورات التي تُقَيِّدُ العالمَ ، وسواءً أكانت هذه الضروراتُ حربيةً أم دينيةً أم اقتصاديةً فإنها تختلف باختلاف الزمان ، فيقومُ عملُ المؤرخِ على تعيين الضرورات التي تؤثرُ في الأممِ في مختلف مراحل تطورها .

وَتَمَهَّدُ مصاعبُ تلك التفسيراتِ بعضَ التمهيدِ بفضل الوثائق التي تُلقَى شيئاً من اليقين على حوادث الماضي ، فالكتبُ الحجرية كالمباني والتماثيل والخطوط ، وكذلك المؤلفاتُ التي يُفترَضُ أنها وليدةُ الخيال الخالص كالأقاصيص والروايات والأحاديث ، زاخرةٌ بالمعارف الدقيقة ، فقد صدر التاريخ الصحيح عن وثائقٍ لم يُبَحَثْ عنه فيها .

البَابُ الثَّالِثُ
اصْلَاحَاتُ التَّارِيخِ الْعِلْمِيَّةِ

الفصل الأول

أشكال التطور الاجتماعي العامة

تاريخ الأمم حافلٌ بالأحوال العَرَضِيَّة التي لا يستطيع عقلٌ أن يُبصِرَها ، ولكن نُظْمَها وعاداتِها تعانى تطوراً منتظماً انتظاماً كافياً ، وبما أنى كنت قد درستُه في كتابٍ آخر^(١) فإنتى أكتفى بإحالة القارىء عليه ، ففيه يرى كيف ظهرَ ونما التملكُ والأسرةُ والحقُّ والأخلاقُ ومختلفُ عناصر الحياة الاجتماعية .

ومعرفةُ ماضى البشرية حديثة ، وبلغَ من جهله في زمن الثورة الفرنسية ما كان يُقترَح معه اتخاذُ المجتمعاتِ الابتدائيةِ قُدوةً . وقد صُحِّحَت مراحلُ التطورِ الاجتماعيِّ ، التي قُطِعَت بالتتابع ، وفقَ مناهجٍ متنوعةٍ ، ومن أكثر هذه المناهج فعلاً دراسةُ الأممِ الوحشية التي بَلَغَتْ وجوهاً من التطورِ مختلفةً .

ومع ذلك فإنه يُمكن أن يُبصَرَ بعضُ أشكالِ ابتدائيةِ البشرية بدراسة الولد في السنين الأولى من حياته ، فهذا المتمدنُ المُقبِلُ ، إذ يُكرَّرُ متعاقبَ المراحل حياة الأجداد الطويلة ، لا يكون في البُداء سوى موجودٍ مندفعٍ يجهل الرحمةَ والحَدَرَ ومحبةَ الآخرين ولا يَعْرِف غيرَ قانونِ الأقوى ، ولا يَعْلَمُ جميعَ الصفاتِ المفروضة على الإنسان بتكديسٍ من الجهود المكررة

(١) « الإنسان والمجتمعات ، مصدرهما وتاريخهما » ، ويقع في مجلدين .

في قرون كثيرة ، وهو يَسِيرُ بِقَسْوَةِ الهمجى ، وضعفه وحده هو الذى يَحُولُ دون ظهوره خَطِراً .

وإذا نُظِرَ إلى الولد من الناحية الذهنية وَجِدَ أقربَ إلى الأجداد في العصر الحجريّ منه إلى آبائه الأَدْنَيْنِ ، ويَظَلُّ ذَكَوَهُ ابتدائياً زمناً طويلاً ، ولا تقوم معارفه في بدء الأمر على غيرِ تسلسلٍ غليظ ، شأنُ معارفِ الفطرى .

* * *

ولا يتمُّ تقدم البشرية في غُضُونِ الأجيالِ إلا بتكديسِ بطيء من التحولات المختلفة باختلاف شروط الحياة ، ومن ذلك أن الأهلين الذين يجهلون الزراعة ولا يعيشون بغير ما يُنتِجُهُ صيدُهُم كانوا يَرَوْنَ من الواجب الطبيعى أن يَقْتُلُوا ، وأن يأكلوا أحياناً ، من يَهْرَم من أقربائهم اتِّبَاعاً لَسَيْرِ العشيرة غيرِ المنقطع .

ومن بين مناهج تصحيح الماضي تَبْرُزُ الأحاديثُ والأفاصيصُ أيضاً ، أى تَبْرُزُ أولى رسوم التاريخ ، فهى تَكشِفُ عن الضرورات التى عَيَّنَت العاداتِ والنُظْمَ ، ولاسيما الأمومةُ وتعددُ الأزواجِ من الذكور ، وإذا ما قرأنا في إحدى الحماسيات الهندية كونَ دَرُوبَدِي الحسنة قد تزوجت أبناء الملك بانْدُو الحسةَ أمكننا أن نستخرج من هذا أن عدد النساء في البلد الذى تَمَّت فيه هذه الاقتانات أصبح أقلّ من عدد الرجال ، كما يلاحظُ هذا حتى الآن في بقاعٍ كثيرةٍ منعزلة ككَشْمِيرِ مثلاً .

ومن الطبيعى أن يختلف الزمنُ اللازمُ لتحقيقِ أحد التحولات الاجتماعية بالتطور باختلاف نفسية كلِّ أمة ، فعند بعضها تَجِدُ دَوْرَ الحجر المنحوت ،

الذى هو صفة أوائل ما قبل التاريخ ، قد امتدَّ حتى أيامنا ، وقد لَقِيتُ بعضَ بقايا هذا الدَّورِ في أثناء رحلتي في الهند على الخصوص ، فالإنسانُ إذا طاف في شبه الجزيرة الكبرى هذه أمكنه أن يرى انتشارَ أدوارِ الإنسانية المتعاقبة المترجِّحة بين عَصْرِ الكهوفِ وعَصْرِ الهاتفِ .

وكانت مراحلُ التطورِ المَدَنِيِّ الأولى بعيدةَ المَدَى إلى الغاية فلم يُجَاوِزْ إلا في زمنٍ طويلٍ جداً ، وكان لا بُدَّ للإنسانِ الابتدائيِّ أن يُكَدِّسَ جهوداً قَبْلَ أن يُحَقِّقَ تقدماً كثيراً البساطة ظاهراً كصنْعِ النارِ وحرثِ الأرضِ وزرعها وجمْعِ بضعِ كلماتٍ يتألفُ منها رسمٌ لغويٌّ ، إلخ . ، فلما تَمَّت الخُطواتُ الأولى سار التقدمُ سيراً ثابتاً سريعاً ، ومع ذلك فإن الزمنَ الضروريَّ لبلوغِ الإنسانِ الابتدائيِّ درجةَ أبسطِ الحضاراتِ يُقدَّرُ بمدةٍ تترجَّحُ بين خمسين ألفَ سنةٍ ومئة ألفِ سنةٍ .

وصار التقدمُ بالغَ السرعةِ في زمنٍ بالغِ الجِدَّةِ فقط ، فقد كان القرنُ الأخيرُ شاهداً ، في مختلفِ فروعِ المعرفةِ ، على اكتشافاتٍ أعلى بمراحلٍ من جميعِ الاكتشافاتِ التي تَمَّت في أثناءِ تعاقبِ الأجيالِ التي سَبَقَتْه ببطءٍ^(١) . وما وقعَ من تحقيقِ عن تطورِ الأممِ ظلَّ مجهولاً زمنياً طويلاً ، فلم

(١) قدر بسبعمئة مليون سنة (؟) مامر من زمن بين ظهور المستحاثات التي تدل على حياة الموجودات الأولى ، والتي يجب أن تكون الموجودات الحاضرة قد خرجت منها بعد ما لا يحصى عد من التحولات ، وقدرت بخمسين ألف سنة على العموم مدة ما قبل التاريخ ، أى الزمن الذي اقتضاه أجدادنا الأولون ليخرجوا من الحيوانية الأولى ، وقدر الزمن الذي مر بين أوائل الحضارات الأولى والزمن الحاضر بما بين سبعة آلاف سنة وثمانية آلاف سنة على الأكثر ، ويعد دور الاكتشافات الكبرى ، كالبخار والكهربا ، إلخ . ، التي قلبت حياة الأمم حديثاً جداً ، فهو لا يكاد يبلغ ١٥٠ سنة ، فهذه الأرقام تدل على بطء التقدم الأول المتناهي وسرعة التقدم الذي ظهر تنويعاً له .

يَزَلْ مؤرخون من ذوى الفضل ، كَرِينَانَ ، يتصورون إلى وقتٍ قريب
 كونَ الأغارقة ظهروا فى التاريخ حائزين بفتةً حضارةً رفيعةً ، واليومَ نَعْلَمُ
 أن أم كَلْدَةَ ومصرَ كانت قَبْلَ الأغارقة بزمنٍ طويلٍ قد أَنْضَجَتْ على
 مَهْلٍ كُلِّ تقدمٍ ظَهَرَت الحضارةُ الإغريقيةُ إزهاراً له ، والحقُّ أنه كان لا بُدَّ
 لإعدادِ هذه الحضارة من جهودٍ أربعة آلاف سنة ، أو خمسة آلاف سنة ،
 موزعةٍ بين سهول كَلْدَةَ ووظائفِ النيل ، وكانت الثَّقافة اليونانية فى الأزمنة
 القريبة من بِرِكْلِسُ تُمَثِّلُ حاصلَ حضاراتٍ كثيرةٍ صُهِرَتْ فى واحدة ،
 فى آسية وشمال إفريقيا ، لافى بلاد اليونان ، كان أصلُ الحضارة الإغريقية
 . إذنْ .

ويصبح تطور إحدى الأمم رَجْعِيًّا بعد أن كان تقدمياً ، فهذا الرجوع
 تُبَصِّرُ جميعُ الحضاراتِ ختامَ دَوْرَتِهَا .

وتتجلى معلولاتُ مثلِ ذلك الانحطاط لدى مختلف الأمم ، ولا سيما
 المعاصرون ، بالعودِ من الحياة الفردية إلى الحياة الجَمْعِيَّة ، والواقعُ أن الانتقال
 من حال الهمجِ الفطريين إلى الحياة الفردية كان من تقدم البشرية ،
 فالحضارةُ تميل إلى الزوال إذا ما عاد الإنسان إلى الحال الأَلْيِيَّة ، أى إذا ما
 خَضَعَ لعوامل العدد مقداراً فمقداراً ، وتعدُّ الاشتراكيةُ ، والشيعويةُ التى
 هى طَوْرُهَا الأخير ، مَظْهَرَيْنِ خالصينِ لهذا الميل الرَّجْعِيِّ .

* * *

وعلى العموم تَتَطَوَّرُ الأممُ تطوراً يلائمُ الضرورات التى توجبها الأحوال ،
 وعندما يصبح مزاجها شديداً المحافظة فيتحول دون تطورها بسرعةٍ كافيةٍ

لا تتمُّ الملائمةُ الضروريةُ إلاَّ بثورةٍ عنيفةٍ ، ومن ذلك حالُ الثورةِ الفرنسيةِ التي ألفتْ آخِرَ امتيازاتِ الأشرافِ بعد أن عادتْ لِاتسوّغِها أيةُ خدمةٍ خاصةٍ .

أجلُ ، إن الثوراتُ تُغيِّرُ حالَ الشعبِ الحاضرةِ ، ولكن بما أنها لا تستطيعُ مَسَّ الحالِ الماضيةِ فإن هذا الماضي لا يَلْبَثُ أن يسترِدَّ نفوذَه ، ويدلُّ تاريخُ الانقلاباتِ المتنوعةِ التي وقعت في فرنسا في القرن الذي عَقَبَ الثورةَ الكُبْرَى على سلطانِ هذا النفوذِ ، أى وطأةِ القُوَى الموروثةِ اللاشعوريةِ التي تُوجِّهُ المشاعرَ ، ومن ثمَّ توجِّهَ السَّيرَ .

وتدلُّ الثورةُ الروسيةُ مرةً أخرى على أن المبادئَ ، التي يتمُّ الانقلابُ الاجتماعيُّ باسمها ، تَعُودُ غيرَ مرَّعيَّةٍ من قِبَلِ الثوريين الظافرين ، وهكذا انتهى الشيوعيون ، الذين كانوا يريدون جعلَ العِلكِ جَمْعِيًّا ، إلى إعادةِ العِلكِ الفرديِّ ، وقد انتهوا ، أيضاً ، إلى الحكمِ بأساليبِ الشُّرطةِ الإرهابيةِ التي كان يُطبِّقُها القياصرة السابقون .

* * *

ومن الطبيعيُّ أن تَبْدُو شروطُ العيشِ الماديةِ ، التي تخضعُ لها المجتمعاتُ ، بين العواملِ التي تُعيِّنُ تَطَوُّرَ هذه المجتمعاتِ ، ومن الطبيعيُّ أن تختلفِ أساليبُ العيشِ باختلافِ الأممِ الصائدةِ والزراعةِ والتجارةِ ، إلخ .

وكان يَلُوحُ عدمُ استحقاقِ هذا الأمرِ الجبليِّ ، الذي لا جدالِ فيه ، لأىِّ إثباتٍ ، ومع ذلك فقد انتفع به في وَضْعِ المذهبِ المنعوتِ بالماديةِ التاريخيةِ لقيامه على تفسيرِ التاريخِ تفسيراً اقتصادياً حَصراً ، فبعد أن

قَرَّرَ واضعوا هذا المذهب ، كما صُنِعَ غيرَ مرة ، أن الحوادث الاقتصادية تُقَيِّدُ الوقائعَ كثيراً قالوا مؤكِّدين إن جميع حوادث التاريخ المهمة تُشْتَقُّ من النظام الاقتصاديِّ لحينه ، فالحياةُ الاقتصاديةُ تُفسِّرُ الحياةَ السياسيةَ ، حتى الأفكارَ والمعتقدات .

وقد أدت هذه المبادئُ المُبسَّطَةُ ، التي كان كارل ماركس رسولها الأكبر ، إلى ديانةٍ جديدةٍ ، إلى الشيوعية ، وبما أن المذهب الشيوعيَّ يُقيِّمُ الإدارةَ الحكوميةَ مقامَ الجُهدِ الفرديِّ فإنه يُعْطَلُ كلُّ تقدم ، وما تتمتع به الولاياتُ المتحدةُ ، التي يقوم الجُهدُ الفرديُّ فيها مقامَ الإدارة الحكومية خلافاً لذلك ، من رِخاءٍ يدلُّ على ما لتطبيق هذين المبدأين من نتائجٍ مختلفةٍ . ومن الطبيعيِّ أن تَظْهَرُ الأحوالُ الاقتصاديةُ ، التي يُعَلِّقُ مذهبُ الماديةِ التاريخيةِ أهميةً كبيرةً عليها ، بين عِللِ تطور الأمم ، ولكن من المُسْتَبْعَد أن تكونَ أهمَّها .

وكثيرٌ من العوامل الأخرى ما يُمثِّلُ دوراً أساسياً في بعض الأزمنة ، كبداءِ القوميات الذي قام عليه إصلاحُ أوربة بعد الحرب الأخيرة ، ومبدأِ الوحدة الذي حفَزَ كثيراً من الدول الصغيرة إلى إقامة إمبراطوريات كبيرة . ولو وَجِبَ أن تُعزَى الحوادثُ التاريخيةُ إلى دِلَّةٍ واحدة ، كما يَصْنَعُ أنصارُ الماركسية اليوم ، لأمكن أن يقال إن بُنيانَ الأمم الفِزيولوجيِّ ، أي العِرْقِ ، أهمُّ من العامل الاقتصاديِّ ، ويكفي لاعتقاد ذلك أن يُرَى أن العواملَ الاقتصاديةَ عينها تؤثرُ تأثيراً مختلفاً في عروقٍ متباينة ، كالبيض والزنج ، إلخ .

وفي النظريات الشيوعية تُطرحُ أوضحُ الوقائع عندما يُلوح أنها مناقضةٌ للمذهب ، ومن ذلك أن كارل ماركس لا يؤمن بغير سلطان الجماعات مع أن العالم لا يتقدم إلا بالأخيار ، فالبخارُ والكهربا وجميعُ الاكتشافات التي حوّلت حياة الأمم أمورٌ تمّت بعمل أفرادٍ أقوياء ، لا بعمل الجماعات على الإطلاق .

وبما أنه لا يُمكن أن يُدرّس في هذا الكتاب مختلفُ المناهج التي يُصححُ بها الماضي تصحيحاً صادقاً فإننا نقتصر على درس المناهج التي تزوّدُ فلسفةَ التاريخِ بأسسٍ علميةٍ حقيقية .

الفصل الثاني

تعيين الحوادث بالشهادة

يقوم التاريخ والعدل على ما تُمنحه الشهادة من أهمية .

وإلى هذه السنوات الأخيرة ، أى إلى أن أتت المباحث النفسية الخاصة لتُلقَى نوراً غيرَ منتظر على هذا الموضوع ، لم تكن قيمة الشهادات ليُجادَلَ فيها مطلقاً عند افتراض صدورها عن حسن نية ، وكان من القاعدة أن يُعتَقَدَ كلامُ الشاهد السليم القلب الذى يَقْصُ أموراً رآها أو يَرَوِي أموراً عن أناسٍ كانوا قد رأوها ، ولمَ لا يُصدَقُ الراوى إذا كان خالياً من الغرض ولم يستحوذ عليه هوى دينيٌّ أو سياسىٌّ ؟ ولمَ لا يَرَوِي الرجلُ الأمينُ ، الذى يَقْصُ حادثةً شاهدَها ، خبرها بإخلاص ؟ أفلا ينطوى الشكُّ فى

مثل هذه المعارف ذات مرةٍ على عدولٍ عن كتابة التاريخ ؟

جاءت مباحثُ علم النفس التجريبيِّ الحديثة لتَقْضِي قضاءً تاماً على هذه الثقة المتأصلة حوْل قيمة الشهادة ، وقد أثبتت هذه المباحثُ أن من المتعذر تقريباً نَيْلَ روايةٍ غيرِ زاخرة بالخطأ عن أبسط الوقائع التى لا يمازجها أى هوى أو غرض ، فالخطأ ، لا الصواب ، هو الذى يُوَلِّفُ القاعدة ، ويكون هذا الخطأ حَظراً بنسبة اقترافه فى الغالب عن حسن نيةٍ تامة ، وقام الدكتوران ، ! . برنهميمُ و بورت ، وغيرهما بتجاربٍ بارزةٍ حوْل هذا الموضوع ، فرأى الدكتور برنهميمُ أن من الصعب إلى الغاية نَيْلَ روايةٍ صادقةٍ تقريباً عن حادث مشهود .

وليست الشهاداتُ الإجماعيةُ أصلحَ من تلكَ ، فهي تدلُّ ، عموماً ، على نتيجةٍ تلقينٍ جماعيٍّ صادرٍ عن أحدِ الناظرين .

وأكثرُ التجاربِ إمتاعاً حَولَ هذا الموضوع هو ما أتاه الأستاذُ في جامعة جنيف : كلاً پاريد ، فلم يكن الأشخاصُ الذين خضعوا للتجاربِ في هذه المرة أفراداً أياً كانوا ، بل تلاميذُ أذكياءِ جدًّا ، ومع ذلك فإن الشهاداتِ التي حُصِلَ عليها تُثيرُ الأسى تماماً ، وكان من أبرزِ الأسئلة التي طُرِحَتْ على الطلبة ما يأتي :

أَتوجدُ نافذةً داخليةً مُطلَّةً على مجاز الجامعة واقعةً على الشمال حين الدخولِ ومواجهةً لنافذةِ غرفةِ البواب ؟

أُنكرت معرفةً هذه النافذة ، التي كان التلاميذُ يَمُرُّونَ أمامها كلَّ يوم ، من قِبَلِ أربعةٍ وأربعين طالباً بين أربعة وخمسين .

وإلى ذلك أضاف المؤلفُ قوله : « توجبُ الشهادةُ الجماعيةُ التي هي من هذا النوع شيئاً من التلقٍ واليأس ، وذلك أنه إذا كان احتمالُ الصدقِ حَولَ أمرٍ مشهودٍ غيرَ متناسبٍ مع عددِ الشهود الذين يُؤكِّدون وقوعه ، هؤلاء الشهودَ الاعتياديين الذين سُئلوا في أحوالٍ عادية عن وجودِ شيءٍ اعتياديٍّ ، هؤلاء الشهودَ الذين وُجِدُوا في مكانٍ مألوفٍ لديهم ، فأئى مقياسٍ للصدقِ يبقى ؟

« ونتيجةً مثلُ تلكِ تثبت إثباتاً ساطعاً إمكانَ وجودِ الحقِّ بجانبِ فئةٍ قليلةٍ تجاهِ فئةٍ كثيرةٍ في بعضِ الأحوال ، لا من حيث كونُ قيمةِ الشهادةِ غيرَ متناسبةٍ مع عددِ الشهودِ فقط .

« وهنا يُسأل : هل القاعدةُ أَلَّا تُعرَفَ الأشياءُ الفاقدةُ النفعَ المحيطةُ بنا ، وهل من المصادفةِ وحدَها ، وعلى استثناء ، أن تترك هذه الأشياءُ أثرًا على لوحِ ذاكرتنا الحسَّاسِ ؟ .. » .

ولهذا المؤلفُ ملاحظاتٌ أخرى تدلُّ على أن الأمرَ الاستثنائيَّ لا يُحفظُ أحسنَ مما تُحفظُ الأمورُ اليومية ، ومن الواضح أن من غيرِ الاعتياديِّ تمامًا أن يُوغِلَ رجلٌ مُقنَعٌ لابسٌ ثوبًا غريبًا وَيَقْفِرَ في المَدْرَجِ حيث يُلقِي أستاذٌ درسه ، فالدكتورُ كلاباريْدُ ، الذي نظَّم هذا المنظر من غير أن يُخْبِرَ به أحداً ، طلب من التلاميذ أن يُقدِّموا خطياً سلسلةً من الأجوبة في وصفِ ذاك الرجل ، وكان الخطأ الذي اقْتَرِفَ في ذلك عظيمًا ، ومن ذلك أن أشار الشهود إلى جزئياتٍ في الثوب غيرِ موجودةٍ كالجَزْمَةُ^(١) الكبيرة والسُرَّوال ذى الترابيع ، إلخ .

ثم أُدْخِلَ بعضُ التلاميذ إلى بهوٍ حيث كان عددٌ من المُنَكِّرينِ الشديدي التباينِ بِلِحَى وغيرِ لِحَى وأنوفٍ قُنُورٍ وأنوفٍ قُفُورٍ^(٢) ، إلخ . ، فكان يَظْهَرُ بينهم ذلك الرجل الذي بَرَزَ بقتةً في ذلك المَدْرَجِ ، فلم يَعْرِفْهُ غيرُ ستة نَظَّارٍ ، ولكن بترددٍ ، من بين ثلاثةٍ وعشرين .

ومما لارْتَبَ فيه أنه كان يُجْتَنَبُ في جميع المسائل المطروحة ، وهو ما يَصْنَعُهُ قُضَاةُ التحقيق على قِلَّةٍ ، تلك التي يُمكن أن يُلقَنَ بها الشاهد ، فالسؤالُ عن أن شَعَرَ المتهَم لم يكن أشقرَ هو غيرُ السؤال عن لون شعره فقط .

(١) Botte (١) (٢) جمع أقمى ، وهو من الأنوف ما أشرفت أرنبته ثم مالت نحو القصبية .

* * *

ومن المباحث السابقة استخلص مسيو كلاپاريدي نتائج كثيرة ، وإليك خلاصتها :

« كُلَّمَا قَلَّ تَدَكُّرُ حَادِثٍ عَظُمَ الْمَيْلُ الْجَمَاعِيُّ إِلَى الشَّهَادَةِ حَوَالَهُ .
« وَالَّذِي يَخْفِزُ الشَّاهِدَ عَلَى الْجَوَابِ هُوَ احْتِمَالُ وُجُودِ الشَّيْءِ أَكْثَرَ
مِنْ جَلَاءِ تَدَكُّرِهِ .

« وَبِجَانِبِ الْمَيْلِ إِلَى إِنْكَارِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ يُوجَدُ مَيْلٌ إِلَى تَوْكِيدِ مَا هُوَ
غَيْرُ مَوْجُودٍ ، وَهَلْ فَضَّلَ هَذَا كَذَلِكَ أَيْضًا ؟ » .
وَدَقَّةُ الشَّاهِدِ فِي مَسْئَلَةٍ لَا تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ فِي مَسَائِلَ أُخْرَى ، وَالْعَكْسُ
هُوَ الْوَاقِعُ .

قال كلاپاريدي أيضاً : « إِذَا ثَبَتَ أَنَّ شَاهِدًا أَدَّى جَوَابًا صَائِبًا كَانَ
احْتِمَالُ صَوَابِ الْأَجْوِبَةِ الْأُخْرَى ضَعِيفًا جَدًّا ، وَلَكِنْ هَذَا الْاحْتِمَالُ يَكُونُ
أَضْعَفَ مِنْ ذَلِكَ أَيْضًا إِذَا مَا أَدَّى جَوَابَيْنِ صَائِبَيْنِ ، وَيَظْهَرُ أَنَّهُ يَوْجَدُ
لِلْقُدْرَةِ عَلَى الشَّهَادَةِ حَدٌّ طَبِيعِيٌّ لَا يَسْتَطِيعُ مَتَوَسِّطُ الْأَفْرَادِ أَنْ يُجَاوِزَهُ ،
شَأْنُ الْقُدْرَةِ عَلَى التَّقْفِزِ عَالِيًا مِثْلًا . . . وَبِثَلَاثَةِ أَجْوِبَةٍ صَائِبَةٍ مِنْ سَبْعَةٍ
يَلُوحُ بُلُوغُ شَاهِدٍ مَتَوَسِّطٍ حَدِّ قُدْرَتِهِ عَلَى الشَّهَادَةِ الصَّحِيحَةِ .

« وَفِي الشَّهَادَةِ الْجَمَاعِيَةِ لَيْسَ الْجَوَابُ الصَّائِبُ هُوَ مَا يَبْلُغُهُ ، دَائِمًا ،
مُعْظَمُ الْأَصْوَاتِ النَّسْبِيِّ .

« وَيُسَمَّى الْمُؤَرِّخُونَ بِأَنَّ اتِّفَاقَ كَثِيرٍ مِنَ الشُّهُودِ الْمُسْتَقِلِينَ دَلِيلٌ عَلَى
الصِّدْقِ ، وَعَلَى الْعَكْسِ تَدُلُّ تَجَارِبُ عِلْمِ النَّفْسِ عَلَى أَنَّ الْاِخْتِلَافَ الْفَرْدِيَّ

كَمَا عَظُمَ وَجِدَ ، مع ذلك ، بعضُ المناحي التي تسيطر على روح جميع الأفراد ، فيمكن أن يحدُث اتفاقٌ على الخطأ ، حتى لدى الشهود الذين يسير كلُّ واحدٍ منهم مستقلاً عن الآخرين .

* *

وَسِيحْمَلُ أَكْثَرَ مِنْ قَارِيٍّ ، مختاراً ، على عدِّ تجاربِ المُختَبَرِ ، التي قامت عليها التجاربُ السابقة ، خاصَّةً ، فيزعمُ أن الأمور في تجرّى الحياة تسيّرُ على وجهٍ آخر .

وَالأمرُ غيرُ ذلك ، فمن غيرِ احتياجٍ إلى البحثِ التجريبيِّ يُمكنُ أن يُشارَ ، عند العودِ من رحلتِهِ ، إلى مقدارِ الشُّرودِ والخطأِ في ذكرياتنا عندما نكتبها من ذاكرتنا فنقابل بينها وبين ما في كتب الدليل من أوصاف ، أو تقابل بينها وبين الصور الفوتوغرافية .

قال الدكتور تولوز : « إذا ما بينَ سائحٌ ما يذكُرُه بعد جَوْلانٍ دُهِشَ واغتمَّ وخَجِلَ من الأشكالِ المضحكة المُشوَّهَةِ المُغلَّطَةِ التي احتفظ بها في أثناء نَزْهه ، ومن ذلك أني أحببتُ أن أقوم ببعض تجاربِ حَوْلِ ذلك ، فسألتُ بعض الطَّوافين عما شاهدوه قَبْلَ قليلٍ من المناظر والمباني فَأَتَوْنِي بأوصافٍ يُرْتَى لها ، ولشدَّ ما ذَهَبُوا حينما عَرَضْتُ عليهم صُورَ تلك الأمكنةِ الفوتوغرافيةِ » .

وفي جميع هذه الملاحظات السابقة لم يَدْرِ البحثُ في غير الوقائع التي لا يُمكنُ أن تتدخل فيها أهواءُ المُشاهدِ الدينيةِ أو السياسيةِ ، فإذا ما تحرَّكت هذه الأهواءُ جاوزت التشويهِاتُ الحدَّ ، ويُمكنُ أن يُسْتنتَجَ

من هذا كونُ الحوادثِ تُنسخُ في الأدمغة كُلِّما تَمَّتْ ، وكونُ شهادة الأشخاص الذين يَرَوْنَهَا لا تُصلحُ لغير تشويهِها تشويهاً تاماً .

وقد أتى جُول سيمون بمثالٍ بارز عن فتنَةٍ وقعت أمامه حيث قال :
« كنت قد قصتُ غيرَ مرةٍ خبرَ يوم ٣١ من أكتوبر سنة ١٨٧٠ ، وكلُّ قِصَّةٍ على شاكلته ، ولا يُمكنُ إلا أن يُحارَ كثيراً من تناقض أناسٍ كثيرٍ من ذوى الصلاح فيما بينهم عند ما يَقصُّون وقائعَ كانوا قد شاهدوها ، وأجدُ في كلِّ خُطوةٍ هذا المنظرَ الهائل ، وهو أن أقلَّ ما يطمئنُّ إليه الإنسان هو نفسه ، وهو لا يَثِقُ بعينه ، لِمَا بين عينيه وذاكرته من ناحيةٍ وخياله من ناحيةٍ أخرى من صراخٍ مستمرٍّ ، هو يعتقد أنه يرى وأنه يَذْكُرُ ، فيخترع » .

والتشويهُ أشدُّ ما يَبْدُو عميقاً في الحوادث الدينية ، وهو يشاهدُ في قصص الخوارق والظهورات الزاخرة بها الكتب ، ففي عشرة قرونٍ رأى الشيطانُ أوفُ الناس ، فلو عدَّت الشهادةُ الإجماعية التي أتتها هؤلاء الناظرون الكثرُ دليلاً لقليل إن الشيطان هو الشخص الذي يكون وجوده قد أثبتَ خيراً من غيره ، ومما لاحظته لأنفلوا في هذا الأمر وجودُ وقائعٍ تاريخيةٍ قليلةٍ قامت على مثل هذا العدد من الشهادات المستقلة .

• • •

وكان المؤثفون السابقون يُفسِّرون هذا الاختلافَ في الشهادات بقولهم إن بعض الشهود كان حسنَ النيةِ وبعضاً آخرَ منهم كان سيئَ النيةِ ، ويدلُّ علم النفس الحديث على أنه أُتِيَ بهذه الشهادات المتناقضة بأمانةٍ تامةٍ في

الغالب ، فكلُّ ما يشاهده الناظر يُمَثَّلُ صوراً استدعتها حادثةٌ في خياله ، لا الحادثةَ نفسَها ، والناظرُ يستكمل سلسلةً من الخواطر والإنبات لم تلبث نتائجها أن تبدو له من الحقائق .

وفي الشهادة يُمكن أن يقال ، على العموم ، إن الخطرَ في حسن النية ، لا في سوءها ، فيسهل كشفُ سوء النية بتناقض الشاهد عند ما يُكرَّر قصةٌ كاذبة ، ولكن كيف تُشخِّصُ الضلَّالاتُ النفسية التي ذهب الشخصُ المُخلصُ ضحيتها ؟ ثم إن سوء النية يتحول إلى حسن النية بتلقين ذاتي ، والواقعُ أنه يكاد يتعدَّر على الإنسان أن يُكرَّر الكذبَ عينه لزمِنٍ طويل من غير أن يُصدِّقه في آخر الأمر .

وإذا كان من الصعب أن تُروى الوقائع بدقةً فذلك لأن القدرة على الملاحظة تظلُّ قليلةً النشوء حتى في أبسط الأحوال ، كالنظر إلى بناء أو إلى ما يحدث في الشارع مثلاً ، ولا ريبَ في أن رجال الجامعة عندنا ، في كلِّ وقت ، عدُّوا هذا الفنَّ غيرَ نافع ما داموا لا يُعلِّمونه ، وهذا يوضح السبب في كون تلاميذهم يجوزون الحياةَ من غير أن يروا شيئاً فيها . ومع ذلك يُمكن أن تُكتسب صفةُ الملاحظة عملياً بمناهجٍ سهلةٍ بعضَ السهولة قد عرَّضتها في مكانٍ آخر .

وتضمنُ الملاحظة الصحيحة للإنسان أفضليةً في الحياة لا جدالَ فيها . وتدلُّ التجاربُ ، التي أدرجت في هذا الفصل ، دلالةً واضحةً على كون الشهادة ، التي عدَّت من أضمن مصادر التاريخ فيما مضى ، لا تنطوي على غير قيمة ضعيفة .

وَجَمْعُ شَهَادَاتٍ حَوْلَ حَادِثَةٍ ، كَمَا يُضَنَعُ الْيَوْمَ عَنِ الْحَرْبِ ، عَمَلٌ
لَا نَفْعَ فِيهِ ، فَلَيْسَ بِتَكْدِيسِ الْخَطَأِ مَا يُمْكِنُ اسْتِخْرَاجُ حَقِيقَةٍ .
وَالآنَ نَدْرُسُ مَنَاهِجَ أُخْرَى أَمْضِنَ بِمَرَاكِلَ مِنَ الْمَنَاهِجِ الَّتِي ذَكَرَ
نَقْضُهَا ، وَذَلِكَ وَصُولًا إِلَى تَصْحِيحِ حَيَاةِ أَحَدِ الْأَدْوَارِ .

الفصل الثالث

تعيين حوادث التاريخ بدراسة المباني والكتابات والأوسمة

لا يُعَلَّقُ المؤرخون ، على العموم ، غير أهمية ضعيفة على المباني ومختلف آثار الفن ، ولا سيما الأوسمة ، ومع ذلك فإن هذه الآثار تَظْهَرُ بين أضمن مصادر التاريخ ، فهي كُتِبَ لا تَكْذِبُ أبداً ، وهي تشتمل على لغةٍ بالغة الوضوح ، يَبْدُو أنه لم يُبْدَأْ بإدراكها في غير أيامنا .

والمباني ، من حيث بعض الحضارات ، هي المصدرُ الوحيد الذي يُصَحِّحُ به الماضي تقريباً ، فبفضل هذه الآثار الحجرية يُعَدُّ اطلاعنا على المصريين والآشوريين والهندوس ، مثلاً ، أفضلَ من اطلاعنا على أم ظهرت على مَسْرَحِ العالم بعد هؤلاء بزمن طويل جداً ، كالغوليين مثلاً .

وَيَكْشِفُ فنُّ البناء ، أحياناً ، عن عناصر التاريخ التي لا تُحَدِّثُ عنها الكتب ، وهكذا دَرَسْتُ مباني الهند حيث هي فاستطعتُ أن أقرأ على النقوش البارزة عِلَلَ زوال البُدْهية في شبه الجزيرة الكبرى ، والبُدْهية ما اعتقدت حتى ذلك الحين أنها زالت بفعل الاضطهادات العنيفة مع أنها توارت بانصهارها في الديانات السابقة .

وتؤدِّي دراسة الآثار الفنية إلى تصحيح الآراء الكلاسيكية ، وإذا ما اعتقدت أفاصيصُ المؤرخين المُجْمَعُ عليها تقريباً عدت القرون الوسطى

دَوْرَ وحشيةٍ سوداء ، وإذا كانت هذه الوحشية حقيقيةً من الناحية الذهنية لم تكن كذلك من حيث الحياة الفنية ، فإذا نُظِرَ إلى روائع البَنائين والمصوِّرين والنحاتين والصوَّاعِغِ في ذلك الدور رُئِيَ أن الفنَّ القومى لم يَبْلُغْ من النشوء ما بلغه في القرون الوسطى ، حتى إنه يُمكن أن يقال ، على الرغم من رأى كثير من المؤرخين ، إن تطور عصر النهضة كان رَجْعِيًّا أَكْثَرَ من أن يكون تقدُّميًّا من بعض الوجوه .

وَبِضْعِ دَقَائِقَ تُقْضَى فِي فِنَاءِ قَصْرِ بِلْوَا مِثْلًا تَكْفِي لِمَشَاهِدَةِ تَمُودَجِ مُتَمِّعٍ عَنِ تَأْثِيرِ تِلْكَ الرَّجْعَةِ فِي فَنِّ الْبِنَاءِ ، فَمِنْ نَاحِيَةٍ مِنَ الْفِنَاءِ يُرَى جَنَاحُ لُويْسَ الثَّانِي عَشَرَ الْعَجِيبُ ، وَفِي الْجَانِبِ الْأَمَامِيِّ يُرَى الْمُقَدَّمُ الْيُونَانِيُّ اللَّاتِينِيُّ لِنَسْتُونِ الْأُورَلِيَانِيِّ ، وَلَأَيُّ سَبَبٍ ؟ ذَلِكَ لِأَنَّ دَرَسَةَ الْمَبَانِي اللَّاتِينِيَّةِ الْقَدِيمَةَ كَانَتْ قَدْ أُوجِبَتْ عَدَّةَ الْفَنِّ الْقَوَطِيِّ الْقَدِيمِ مِنْ عَمَلِ الْبِرَابِرَةِ ، وَلَوْ سَمَّحَ الزَّمَنُ لِنَسْتُونِ الْأُرَلِيَانِيِّ لِأَقْدَمَ ، كَمَا قِيلَ ، عَلَى هَدْمِ جَمِيعِ الْجَنَاحِ الَّذِي يُعَدُّ مِنْ رَوَائِعِ الْفَنِّ الْفَرَنْسِيِّ .

وَتَقْدِّمُ الْآثَارِ الْفَنِيَّةِ لَنَا شَهَادَاتٍ صَادِقَةً عَنْ جَمِيعِ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي تَنْطَوِي عَلَى دَرَسَةِ إِحْدَى الْحَضَارَاتِ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ ، عَلَى الْعَمُومِ ، إِنَّهَا نَتَمُّ عَلَى مَا ظَهَرَ فِي زَمَنِهِ مِنَ الْأَفْكَارِ وَالْمَعْتَقَدَاتِ وَالرَّغَبَاتِ ، حَتَّى الْأَزْيَاءِ ، وَيَشْتَمِلُ جَمِيعُ الْبَدَائِعِ الْفَنِيَّةِ ، مِنْ نَحْتِ وَالْوَاوِجِ وَأَوْسَمَةِ ، إلخ . ، عَلَى لُغَةٍ جَلِيلَةٍ أَيْضًا ، فَالْمُتَفَنِّنُونَ يُؤَلِّفُونَ ، عَلَى شَكْلِ مَنْظُورٍ ، بَيْنَ احْتِيَاجَاتِ الزَّمَنِ الَّذِي يَعِيشُونَ فِيهِ وَمَشَاعِرِهِ وَمَعْتَقَدَاتِهِ .

وَمِنْ آثَارِهِمْ نَعْلَمُ ، أَيْضًا ، كَيْفَ تَتَطَوَّرُ الْفُنُونُ وَكَيْفَ تُحَوَّلُ الْأُمُورُ ،

على عجلٍ ، ما يلوح أنها اعتنقته منها لتمثلها وَفَوْقَ مزاجها النفسى ، ولا تَدَبَّتْ نُسْخُ آثار الفنِّ الأجنبية أن تَكْسِبَ شكلاً قومياً ، فما كان المتفننُ الهندوسىُّ ، ليقدِر ، مثلاً ، عَلَى استنساخ أثرٍ أوربىٍّ من غير تحويله ، وَيَعْرِفُ الإيطاليون جيداً فنَّ القُوطِ الذى كانوا ينتفعون فى الوقت المناسب بعناصره المهمة الثلاثة وهى : الحِنيَّةُ المكسورة والقبةُ المَضَلَّعة والقوسُ المُنطَّقة ، ومع ذلك فإنهم لم يستطيعوا قَطُّ أن يقيموا فى إيطالية بناءً قوطياً حقيقياً مذكراًً بكنائسنا الجليلة ولو من بعيد ، وقد كان هذا عندهم فنّاً مستعاراً خالياً من كل صبغةٍ قومية ، وما انفكت كنائسُ تَسْكَانةِ الجميلةُ ، ولا سيما كنائسُ فلورنسة ، تحافظ عَلَى رسم الكنائس اللاتينية القديمة ، ولا تَجِدُ فى أكثر مباني إيطالية قوطيةً ، أى فى مباني سيان ، من القوطية غير الحِنيَّةِ المكسورة فى الأروقة ، أَجَلٌ ، جاء فى الكتب أن كنيسةً مِيزَفاً فى رومة نموذجٌ للفنِّ القوطىُّ ، غيرَ أن منظرها العام لا يَمُتُّ إلى القرون الوسطى بصلة ، وكلُّ ما فى الأمر هو أن بعض العناصر القوطية قُرِنَ فيها بعناصرَ أخرى فقط .

وإذا ما أقيمت مباني من قِبَلِ متفننين لا ينتسبون إلى الأمة التى تؤويهم عانى هؤلاء المتفننون ، عن ضرورةٍ ، تأثيرَ البيئة التى نقلوا إليها ، ومما لُوْحِظَ بحقِّ كونِ كثيرٍ من مباني بُرُوجِ القوطيةِ من صُنْعِ الأجانب ، بَيِّنَدَ أن روح المدينة اشتملت عَلَى هؤلاء الأجانب فاقْتَبَسُوا الروحَ البرُوجيةَ فى بُرُوجِ ، ولم يَصْنَعِ الإيطاليون ، الذين شادوا بِيَعاً فى روسية ، كنائسَ إيطاليةً ، بل أقاموا كنائسَ عَلَى الطراز البِرَنْطىِّ الذى كان ، ولا يزال ، طرازَ روسية ، هذا البلد الذى بلغ من البربرية ما لم يُبَدَعْ معه طرازاً قومياً فى الحقيقة .

والواقع أن المتفنن يعاني طابعَ بيئته تماماً ، وهذا ما تقوم عليه قيمة أثره التاريخية ، وهو يَبْلُغُ من إشباعه بذلك ما تُبْصِرُ معه جميعَ مظاهر الزمن الفنية مشتملةً ، بلا استثناء ، على طابع الفصيلة التي يُمكن أن تُورِّخَ بها .

* * *

ودراسة الكتابات تُجَهِّزُ المؤرخين ، أحياناً ، بوثائق نافعة لهم كدراسة المباني ، ومن ذلك أن كلماتٍ قليلةً منقوشةً على حجر دُمياط (؟) الشهير أعانت شَنْبُلِيُونَ على اكتشاف معنى الخطِّ الهيرغلُفيّ ، فقد كانت الكتابة الهيرغلُفية منسيةً تماماً مع أنه كان يُتَكَلَّمُ باللغة مدة خمسة آلاف سنة وستة آلاف سنة . وهكذا ، أيضاً ، ساعد فكُّ كتابات أشوكا الشهيرة ، القريبة من أوائل التاريخ النصرانيّ ، على كون حضارة الهند ، التي كان يُعزَى إليها قِدَمُ أسطوريّ ، من أحدث حضارات التاريخ .

وكذلك الأوسمة مفيدةٌ كالمباني والكتابات للكشف عن حياة دَوْرٍ ما ، فإذا ما اقتصرَ ، مثلاً ، على قراءة الكتب الكثيرة التي نُشِرَت عن إحدى وقائع تاريخنا البالغة الخُصب من حيث النتائجُ ، أي مذبجةِ السان بارتيلمي ، ظَفِرَ ، على حسب ديانة المؤلف ، بمعارف متناقضةٍ جداً حَوْلَ الوجه الذي نُظِرَ به إلى هذا الحادث من قِبَل معاصريه ، وعلى العكس حُصِلَ على معارفٍ قاطعةٍ عنه بدراسة الأوسمة الثلاثة التي نشرنا صورةً لها في أول هذا الكتاب ، فقد ضُربَ اثنان منها بأمرٍ من ملك فرنسا ، وضُربَ الثالث بأمرٍ من البابا ، تبجيلاً للمذبجة ، وما نُقِشَ على هذه الأوسمة من كتاباتٍ لا يدَعُ شكاً حَوْلَ مشاعر صانعيها ، وتُكَمِّلُ المعارف التي

ظُفِرَ بها على هذا الوجه بدراسة الصور الفوتوغرافية المأخوذة عن الصُور التي لا تزال ظاهرةً في القاتيكان ، والتي حَمَلَ البابا على رسمها من قِبَل فيزاري ، عَرَضاً لجزئيات مَقَابِلِ الهُنُوتِ في أثناء مذبحة السان بارتلمي ، وهكذا توَدَّى ثلاثة أوسمةٍ وبعضُ الصور إلى استقصاء مسألة من أهمِّ مسائل التاريخ .

* * *

وليست دراسة الفنون ، من خلال الحضارات ، جزءاً من التربية الكلاسيكية ، ومع ذلك فإنها تنطوي على معرفة تاريخية من الطراز الأول كما يُرى بما تقدّم .

وإذا وُضِعَتْ أمام عيونِ الطَلِّبةِ صُورٌ عن المباني التي أقامتها أممٌ حائزةٌ لدينٍ واحدٍ ولغةٍ واحدةٍ ، ولكن مع الإقامة ببلدانٍ مختلفةٍ ، كالمسلمين في الأندلس ومصرَ والهند ، أُطْلِعَهُمُ الأَسْتَاذُ على ما اعتَوَرَ فنَّ البناءِ من تحويلاتٍ سريعةٍ بفعلٍ مختلفِ العروقِ ، وهو ، لكي يُثَبِّتَ أن هذه التحولاتِ لا تنشأ عن فروقٍ بين البقاعِ ، يَدُلُّ على تأثيرِ العِرْقِ بدلالته على كَوْنِ طُرُزِ البناءِ في البلدِ عينِه ، كالهند مثلاً ، قد اختلفت إلى الغاية بين ولايةٍ وولايةٍ في قرونٍ كثيرةٍ من العهدِ الإسلاميِّ ، وذلك عن تباينِ العروقِ التي أبدعت هذه المباني .

وسنُفَصِّلُ المسألةَ فيما بعدُ فندلُّ على أن جميع مظاهر حضارة الأمة كالنظم والآداب والفنون تُعَبِّرُ عن روحِ العرقِ ، فلم يعتنقُ شعبُ ديانةٍ شعوبٍ أخرى ونظمتها وفنونها من غير أن يحوِّلها خلافاً لِمَا عِلْمٌ زمنًا طويلاً ، فالتاريخُ لا يقول هذا ، وآثارُ الفنِّ تُظهِرُهُ جلياً .

الفصل الرابع

تعيينُ بعضِ الحوادثِ الاجتماعيةِ بالإحصاءِ

يستند مبدأ الجبرية ، الذي يسيطر على الفكر العلميُّ بالتدرج ، إلى ثبات بعض الحوادث ، على الخصوص ، عندما تصبح جماعية .
وتثبتُ الملاحظةُ ، في الحقيقة ، أن الأحوال الفردية إذا كان يتعدّر البصرُ بها تنمُّ الأحوال الجماعية ، كالمواليد والزواجات والوفيات ، إلخ . ، على انتظامٍ عظيمٍ جداً .

ولم تلبث المناهجُ الإحصائيةُ في الاقتصاد السياسيِّ والاجتماعيِّ أن صارت لها أهميةٌ فائقة ، ومن الصواب أن قيلَ « إن السنَّ الاقتصادية الحقيقية وحدها هي التي أمضاها الإحصاء » ، ولاتمُّ معرفةُ الوقائع مطلقاً من غير تحليلها العدديِّ .

والوثائقُ الإحصائيةُ تظهر ، إذن ، بين أئمن ما يُمكن الانتفاعُ به لدراسة تطور الأمة الاجتماعية ، ولكن يجب أن تُوضعُ بعنايةٍ إذا أُريد اجتنابُ الخطأِ الفظيعِ فيها ، فما بيّنه مسيو تازدُ ، مثلاً ، مقدارُ الوهم في نقصِ الجرائمِ الذي كان يُفسرُ عنه إحصاءُ أدارته المصلحةُ زمناً طويلاً ، ومقدارُ ما حوّل هذا النقص الظاهر من تفاؤُلٍ غيرِ قائمٍ على أساس .
والحقُّ أن الإحصاءاتِ لانكون نافعةً إلاَّ إذا قامت على المقابلة وعرّضت نسبةَ الحوادثِ المثوية .

ومبدأ النسبة المئوية هذا على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية ، وإني بعد أن أدخلته سابقاً إلى الأنترپولوجية استطعتُ أن أُبينَ الفروقَ الدماغية العميقة الفاصلةَ بين مختلف العروق البشرية ، هذه الفروقَ التي لم يستطع منهاجُ المتوسّطات أن يقرّره ، وماذا كان يُرى حتى ذلك الحين بمقابلة ما بين حُجُوم الجمجم المتوسطة لدى مختلف العروق ؟ كانت تُرى فروقٌ تافهةٌ يُمكن أن تحمِلَ أكثرَ علماء التشريح على الاعتقاد ، كما كان يفرضُ في الحقيقة ، بأن وزن الدماغ واحدٌ في جميع العروق تقريباً ، فلما استعنتُ بمنحنياتٍ خاصةٍ دالةٍ على النسبة المئوية الدقيقة لمختلف حُجُوم الجمجم أمكنني ، بالتصرف في عدد عظيم من الجمجم ، أن أُبينَ أن عدد الحُجُوم العليا تختلف ، بالعكس ، اختلافاً كبيراً على حسب الأمم ، فالعروقُ العليا تختلف عن العروق الدنيا اختلافاً جلياً ، لالقيامه على المتوسّطات ، بل لأن الأولى تنطوي على عدد قليل من الأدمغة الكبيرة التي تُحرّمها الثانية دائماً .

وتظلُّ الأدمغةُ الكبيرةُ غيرَ مؤثرةٍ في المتوسطة لندرتها ، ولكنها تمثّلُ دوراً مهماً في حياة الأمة ، ثم إن هذا البيان التشريحيّ يؤيد المبدأ النفسيّ القائل إن مستوى الأمةِ الذهنيّ يمتاز ، على الخصوص ، بنسبة ما تشتمل عليه من أصحاب النفوس العالية .

إذن ، لا ينبغي أن يُنظرَ على انفرادٍ إلى العناصر التي تتألف منها المجتمعات للمقابلة بينها ، بل إلى ما بين هذه العناصر من نسبةٍ مئوية ، فمتوسّطاتُ الإحصائيين تظهرُ خادعةً في الغالب ، وينشأ كثيرٌ من أغاليطنا في الحكم ، وما يَقبُها من تعميمٍ عابر ، عن نقص في معرفة النسبة المئوية

للعناصر الواقعة تحت الملاحظة .

أَجَلٌ ، تكون الوثائق الإحصائية ذات قيمة بالغة في دراسة التاريخ ، ولكنه يتألف منها لسان لا يسهل تفسيره دائماً .

ويمكن أن تصبح هذه الوثائق ، على الرغم من دقتها ، منبع خطأ خطير إذا ما جمعت أحوالاً كثيرة الاختلاف على أنها متشابهة .

والإحصاءات إذا ما عرفت قراءتها تزود ، على العكس ، بدلائل صحيحة عن حال الشعب الاجتماعية وعن أخلاقه واحتياجاته وقابلياته ، إلخ . ، فضلاً عن الحوادث الاقتصادية .

الفصل الخامس

تعيين مزاج الأمة النفسى بدراسة إنتاجها الأدبى

تعدّ الوثائق الأدبية ، كالقصص والأمثال والحكايات والروايات ، إلخ . ، من أصلح الوسائل لتصحيح مزاج الأمة النفسى ، فمن شهادتها يُعلمُ سلوكُ الأمة فى مختلف أحوال حياتها ودرجةُ قِيَمِها .

ولا ريبَ فى أن أخلاقَ الشعب تظهرُ من خلال جميع ما يُنتج ، ولكنه يجب أن يُبحثَ عن هذه الأخلاق فى آثاره الأدبية خاصةً .

وتكون الملاحمُ الكبرى قليلةَ الفائدة ، لأنها تدلنا على أناسٍ مبالغٍ فى مشاعرهم وأعمالهم ، ولنا بالأمثال والحكايات والأقاصيص الشعبية ، إلخ . ، معرفةٌ أدقُّ مما بالملاحم .

ومنذ حينٍ كنا قد طبقنا هذا المنهجَ على دراسة روح أقسامٍ من الأمة الهندوسية مقتطفين من أشهر كتبها ، البنج تَنترا والهتوبديشا ، إلخ . ، آراءً عامةً عن مختلف العناصر الأساسية فى الحياة الشرقية .

ولم نرُجِّ بمقتطفاتٍ من ملحمةِ كالمهابهارتا ، ومن كتبٍ دينية واجتماعية كشرائع منو المعروفة بمنوا دهرَما شسترا ، إلخ . ، إلاَّ عند قُرْبها من الآراء الشعبية ، من البنج تَنترا والهتوبديشا ، ومن ثمَّ عند إثباتها قَدَمَ الآراء القائمة حَوْل بعض الموضوعات ، وهكذا ترى الحكَمُ الواردة فى البنج تَنترا ، والمشملة على شىء من التنكيت بالنساء ظاهراً ، قد أُيدت

بتأملاتِ المشتَرعِ الرزِينِ مَنْوِ دَالَّةٍ إِيَانَا عَلَى أَنْ أَحْكَامِ الْمَجْمُوعَةِ الْأُولَى شَعْبِيَّةٌ لَارِيْبَ مَا بَدَتْ ، عَلَى شَكْلِ عَقَائِدَ مُسَلَّمٍ بِهَا ، فِي دُسْتُورِ دِينِي ، فِي شَرِيعَةِ الْهِنْدِ الْعَلِيَا مِنْذُ قُرُونٍ كَثِيرَةٍ ، وَعِنْدَمَا يَنْتَهِي رَأْيٌ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ مِنَ التَّكْثِيفِ وَيُعْرَضُ عَلَى شَكْلِ حَكْمَةٍ أَوْ مَثَلٍ أَيْمَكُنْنَا أَنْ نَجْزِمَ بِوَجُوبِ مَرُورِ أَجْيَالٍ طَوِيلَةٍ مِنَ النَّاسِ لِإِنْضَاجِهِ .

وَقَدْ جُمِعَتِ الْمُقْتَضَاتُ الْآتِيَةُ وَفَوْقَ الْمَوْضُوعِ الَّذِي تَعَالَجُهُ : الْقَدَرُ وَالْخُلُقُ وَالْحَيَاةُ وَعَوَامِلُ سَيْرِ الْإِنْسَانِ وَالنِّسَاءِ ، إلخ .

الْقَدَرُ

« لَا يَأْتِي مَا لَا يَجِبُ أَنْ يَأْتِيَ ، وَيَأْتِي مَا يَجِبُ أَنْ يَأْتِيَ ، فِي هَذَا تَرْيَاقُ الْهَمُومِ » (هِتُوْبَدِيشَا) .

« كَتَبَ الْقَدَرُ عَلَى جِبَاهِنَا سَطْرًا مِنْ حُرُوفٍ ، فَلَنْ يَقْدِرَ أذْكَى الْعُلَمَاءِ عَلَى نَحْوِهِ » (پَنْج تَنْتْرَا) .

« قَدْ يَسْقُطُ الْإِنْسَانُ مِنْ فَوْقِ جَبَلٍ ، وَيَعْرِقُ فِي بَحْرٍ ، وَيَرْتَمِي فِي نَارٍ ، وَيَلْعَبُ الْأَفَاعِي ، وَلَكِنَّهُ لَنْ يَمُوتَ قَبْلَ أَجَلِهِ » (هِتُوْبَدِيشَا) .

« النَّجَاحُ فِي الْأَعْمَالِ مَنْوُطٌ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ الْقَدَرُ ، وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ مُنْظَمَةٌ بِأَفْعَالِ النَّاسِ فِي حَيَاتِهِمْ السَّابِقَةِ وَبَسُلُوكِ الْإِنْسَانِ » (مَنْو) .

« عَلَى الْإِنْسَانِ أَلَّا يَكُفَّ عَنِ الْعَمَلِ وَلَوْ فَكَّرَ فِي الْقَدَرِ ، فَلَنْ تَسْتَخْرِجَ سِيرِجًا مِنْ سَمْسِمَةٍ بِغَيْرِ عَمَلٍ » (هِتُوْبَدِيشَا) .

الخلق

« لا يُغَيَّرُ الأَمْرُ الطَّبِيعِيُّ بِالمَشُورَةِ ، فالْماءُ الحارُّ يَعودُ بارِداً »
(بَنَجٌ تَنْتَرَا) .

« لوأصبحت النار باردةً وصار القمرُ مُحْرِقاً لَأمكنَ تَبْدِيلُ طَبِيعَةِ الناسِ
في هذه الدنْيا » (بَنَجٌ تَنْتَرَا) .

« يَغْلِبُ الطَّبِيعِيُّ غَيْرَهُ مِنَ الصِّفَاتِ وَيَتَبَوَّأُ مَكَانَهُ فِي الرَأْسِ »
(هِتُوْبَدِيشَا) .

يَصْعُبُ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَى غَرِيزَتِهِ الطَّبِيعِيَّةِ ، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ
تَحُولَ دُونَ قَرَضِ الكَلْبِ للأَحْذِيَّةِ ، وَلَوْ جَعَلْتَهُ مَلِكاً » (هِتُوْبَدِيشَا) .
« يَكُونُ قَارِئاً لِكُلِّ شَيْءٍ عَالِماً بِكُلِّ شَيْءٍ مُمَارِساً كَلِّ شَيْءٍ مِنْ يَرْغَبُ
عَنِ الرِّغَائِبِ وَيَعِيشُ بِلا أَمَلٍ » (هِتُوْبَدِيشَا) .

« مِنْ ذَا الذِي لا يَظْهَرُ طَوِيلاً إِذَا نَظَرَ إِلى تَحْتِهِ ، فَالذِينَ يَنْظُرُونَ
إلى فَوْقِهِمْ فَقَرَاءِ عَلَى الدَّوامِ » (هِتُوْبَدِيشَا) .

« القِنَاعَةُ كَنْزٌ لا يَفْنَى » (بَنَجٌ تَنْتَرَا) .

« الرِّخَاءُ يُغَيِّرُ طَبِيعَ الإِنْسَانِ » (بَنَجٌ تَنْتَرَا) .

النساء

« يَصْبِحُ أَذْكَاءَ الرِّجالِ والأَبْطالِ فِي المِعارِكِ مِنَ البائِسينَ بِجانِبِ المِراةِ »

(بَنَجٌ تَنْتَرَا) .

« الرجلُ الذي تُسَيِّرُهُ كَلِمَةٌ مِنَ الْمَرْأَةِ يَعُدُّ الْعُسْرَ يُسْرًا وَالْمَتَعَذَّرَ سَهْلًا وَالْفَاسِدَ سَائِعًا » (پَنِج تَنْتَرَا) .

« مَنْوُ جَعَلَ قِسْمَةَ النِّسَاءِ فِي حُبِّهِنَّ لِفِرَاشِهِنَّ وَمَقْعَدِهِنَّ وَزِينَتِهِنَّ وَفِي هَوَاهِنَّ وَغَضَبِهِنَّ وَسَيِّئُ مَيُولِهِنَّ وَرَغْبَتِهِنَّ فِي الشَّرِّ وَالِدَعَارَةِ » (مَنْوُ) .

« النِّسَاءُ ذَوَاتُ طَبِيعَةٍ مُتَقَلِّبَةٍ تَقَلِّبُ أَمْوَاجَ الْبَحْرِ ، وَالنِّسَاءُ مَشَاعِرُ مَذْبُذِبَةٌ لَا تَدُومُ أَكْثَرَ مِنْ سَاعَةٍ كَسُحْبِ الشَّفَقِ ، فَإِذَا مَا قَضَيْنَ أَوْطَارَهُنَّ نَبَذْنَ الرَّجُلَ الَّذِي يَصْبِحُ غَيْرَ نَافِعٍ لَهُنَّ نَبَذَ اللَّكُّ^(١) بَعْدَ الْعَصْرِ » (پَنِج تَنْتَرَا) .

« النِّسَاءُ مُتَقَلِّبَاتٌ دَائِمًا ، حَتَّى نِسَاءُ الْآلِهَةِ كَمَا يُقَالُ » (هِتُوْبَدِيشَا) .

« لَا تُنَالُ النِّسَاءُ بِالْقُوَّةِ وَلَا بِالْمُبَادَى ، فَالنِّسَاءُ مَخْلُوقَاتُ جَامِحَاتٍ » (هِتُوْبَدِيشَا) .

العلم والجهل

« الذِّكَاةُ خَيْرٌ مِنَ الْعِلْمِ وَفَوْقَ الْعِلْمِ » (پَنِج تَنْتَرَا) .

« مَا فَائِدَةُ الْمَرْءِ مِنَ الْعِلْمِ إِذَا كَانَ خَالِيًا مِنَ الذِّكَاةِ ؟ » (هِتُوْبَدِيشَا) .

« أَعْظَمُ الْفَقْرِ فِي قِلَّةِ الْعِلْمِ » (پَنِج تَنْتَرَا) .

الغنى والفقير

« يَصْبِحُ الْعَدُوُّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِلْأَغْنِيَاءِ قَرِيبًا ، وَيَصْبِحُ الْقَرِيبُ

(١) اللك ، ثفل نبات اللك ، وهو نبات يتخذون منه صمغاً .

فيها للفقراء عدوًّا» (بَنج تَنْتَرَا) .

« الثروة تُنِيرُ الصفاتِ كما تُنِيرُ الشمس كلَّ موجود » (بَنج تَنْتَرَا) .

« لَأَنْ يَكُونَ المرء سائلاً ، أو أَنْ يَكْسِبَ عَيْشَهُ مِنْ حَمَلِهِ الْأَنْتَقَالِ ،

خَيْرٌ مِنَ الْيُسْرِ مَعَ الْعَبودية » (بَنج تَنْتَرَا) .

مبادئُ الآدابِ العامة

« أَنْصِتُوا لروحِ الفِضيلةِ ، وإِذَا أَنْصَمْتُمْ فَفَكِّرُوا ، فلا تَعاملُوا غَيْرَكم بِغَيْرِ

مَا تُحِبُّونَ أَنْ يَعامَلُوكُمْ بِهِ » (بَنج تَنْتَرَا)

« يَرى بَعْضُهُمْ أَنَّ الحِكمةَ فِي اللسانِ كما عِنْدَ البِئَعاءِ ، وَيراها بَعْضُ

آخَرٍ فِي القَلبِ كما عِنْدَ البُكْمِ ، وَيراها آخَرُونَ فِي القَلبِ وَاللسانِ مَعاً »

(بَنج تَنْتَرَا) .

« اللِّئيمُ يَتَّبِعُهُ عَمَلُهُ وَلَوْ سارَ مِنْ أَلْفِ طَرِيقٍ ، وَالكَرِيمُ يَتَّبِعُهُ عَمَلُهُ

وَلَوْ سارَ مِنْ أَلْفِ طَرِيقٍ أَيْضاً » (بَنج تَنْتَرَا) .

« قِيمةُ الْإِنسانِ بِإِخْلاصِهِ وَضَبْطِهِ لِحِواسِهِ وَزَهْدِهِ وَإِحْسانِهِ وَقِيامِهِ بِالواجِبِ

قِياماً دَائِماً » (مِهابَرَهَ تَا) .

الحَذَرُ وَالاحْتِرازُ

« يَجِبُ عَلَى الرَّجُلِ الْعاقلِ الرَّاغِبِ فِي الْغِنى وَطولِ الْعمرِ وَالسَعادةِ

أَلَّا يَتَّقَ بِإِنسانٍ » (بَنج تَنْتَرَا) .

« الضَعفاءُ إِذا ما حَذَرُوا لَمْ يَقْتُلْهُمُ الْأَقوياءُ ، وَالأَقوياءُ إِذا ما وَثِقُوا قَتَلْهُمُ

الضَعفاءُ » (بَنج تَنْتَرَا) .

« على العاقل ألا يُطِيع أحداً على غِنَاهُ مهما كان ضئيلاً ، فالغنى يُحرِّك قلبَ العابد » (بَنِيح تَنْتْرا) .
 « من يَتْرُك الأَكِيدَ من أَجْلِ غيرِ الأَكِيدِ يَخْسِر الأَكِيدَ وغيرِ الأَكِيدِ » (هِتُوْبَدِيشا) .
 « لا يَبْرَأ جُرْحُ أَوْجِهه قول » (بَنِيح تَنْتْرا) .

كيف يَتَوَدَّد الإنسان إلى الناس

« يجب أن تعامل الناسَ على حسب أخلاقهم ، فالعاقلُ إذا ما أَلَمَّ بأفكار الآخِرِينَ حَكَمَهُم من قُوْره » (بَنِيح تَنْتْرا) .
 « يجب على المرء أن يَتَوَدَّد إلى البخيلِ بالمالِ وإلى الشديِدِ بالخضوعِ وإلى الجاهلِ بالحلمِ وإلى المتعلمِ بخلوصِ النيةِ » (بَنِيح تَنْتْرا) .
 « لا يَلْبَثُ العاقلُ الذي يَعْرِفُ خُلُقَ رَجُلٍ عندِ المصاِبةِ أن يَسُوْدَه » (هِتُوْبَدِيشا) .

الشجاعة والثبات

« عدمُ البدءِ أَوْلَى علائمِ الذكاءِ ، وإنهاءُ ما بُدِيَءَ به ثانياً علائمِ الذكاءِ » (بَنِيح تَنْتْرا) .
 « الرجلُ الثابتُ يَفْعَلُ الآخِرِينَ فيصيرُ محترماً ولو لم يكن غنياً » (بَنِيح تَنْتْرا) .

« من يَقَعُ في بؤسٍ فيَكْتَفِ بالتَّوَجُّعِ لا يَصْنَعُ غيرَ زيادةِ بؤسِه من

غير وقوفٍ عند حَدٍّ « (بَنَجٌ تَنْتَرَا) .

تَحَرَّى الصَّلَاتِ وَتَنَاجَاهُ

« على المرء ألاَّ يكونَ ذا صَلََةٍ بِنِ لا يَعْرِفُ قُوَّتَهُ ولا أُسْرَتَهُ ولا سِيرَتَهُ « (بَنَجٌ تَنْتَرَا) .

« مَنْ لَيْسَ لَهُ أَحِبَّاهُ لا يَتَغَلَّبُ عَلَى البُؤْسَاءِ « (بَنَجٌ تَنْتَرَا) .

« حَتَّى الشَّيْطَانُ يَحْتَاجُ إِلَى خُلَّانٍ « (هِتُوْ بَدِيشَا) .

« الظُّبَاهُ تَبَحَّثَ عَنِ الظُّبَاءِ ، والأَغْبِيَاءُ يَبْحَثُونَ عَنِ الأَغْبِيَاءِ ، والعُقْلَاءُ يَبْحَثُونَ عَنِ العُقْلَاءِ ، فالصَّدَاقَةُ تَقُومُ عَلَى تَشَابُهٍ الحَاسِنِ والمَعَايِبِ « (بَنَجٌ تَنْتَرَا) .

« مَنْ يَقْدَرُ الفِضْلَ يُحِبُّ صَاحِبَ الفِضْلِ ، وَمَنْ هُوَ خَالٍ مِنَ الفِضْلِ لا يُحِبُّ صَاحِبَ الفِضْلِ « (هِتُوْ بَدِيشَا) .

« يَحْسَرُ الإِنْسَانُ ذِكَاةَ مَعَاشِرَةٍ مِنْ هُمِ دُونِهِ ، فَإِذَا عَاشَرَ شَبَاهَهُ بَقِيَ مَسَاوِيًّا لَهُمْ ، وَإِذَا عَاشَرَ مِنْ هُمِ أَفْضَلُ مِنْهُ سَارَ إِلَى الفِضْلِ « (هِتُوْ بَدِيشَا) .

« يَكُونُ الحِصَانُ أَوْ السَّلَاحُ أَوْ الكِتَابُ أَوْ المَرَأَةُ أَوْ الرَّجُلُ طَيِّبًا أَوْ خَبِيثًا عَلَى حَسَبِ المَرءِ الَّذِي يَلَاقِيهِ « (بَنَجٌ تَنْتَرَا) .

* * *

ولأنَّ يُحْكَمَ فِي مَزَاجِ الأُمَّةِ النَفْسِيَّةِ وَدَرَجَةِ قِيَمَتِهَا ، دَائِمًا ، بِشَوَاهِدِ مِمَّا لَهَا تَقَدَّمَ خَيْرٌ مِنْ إِحْصَاءِ طَوِيلٍ لِلأَسْرِ المَالِكَةِ والمَعَارِكِ عُدَّ فِي المَاضِي لُحْمَةً حَقِيقِيَّةً للتَّارِيخِ .

الفصل السادس

تعيين معنى الكلمات في دراسة التاريخ

عدم التفاهم بين مختلف النفسيات من أهمّ عوامل الصّراع التي تملأ التاريخ ، وهو ، فضلاً عن ذلك ، يجعل إدراك الماضي أمراً صعباً ، ولعدم التفاهم ذلك سببان مهمان وهما : اختلاف الأمزجة النفسية واختلاف اللغات .

وإذ يوجد لكلّ أمة ، كما لكلّ فردٍ ، استعدادٌ مختلفٌ للتقبّل فإن الكلماتِ نفسَها والحوادثَ نفسَها توجب فيهم ردودَ فعلٍ متباينة . والأممُ يتبعُ بعضها بعضاً من الناحية الصّناعية والتجارية ، على حين يوجدُ بينها من الفروق النفسية ، التي لا سلطان لها عليها ، ما يفصلُ بعضها عن بعضٍ لزمانٍ طويل .

ولا نصِلُ إلى فهمِ خلقِ الأممِ ذاتِ المزاجِ النفسىّ القريب من مزاجنا إلا بعد عناء كبير ، فإذا ما نُظِرَ إلى العروق المختلفة عنا كثيراً ، كالزنج والصينيين ، إلخ . ، وُجِدَ من المتعذر أن يُنفذَ إلى مشاعرها وأفكارها .

ويضاف إلى عدم التفاهم الناشئ عن الفروق بين أمزجة الأمم عدم التفاهم الناشئ عن تطور معنى الكلمات في غضون الأجيال ، فالكلمات تعانى السُنّة العامة التي تحمّل جميع عناصر الطبيعة على التغير ، ولا جرَم

أنها تَبْقَى مع الزمن ، غير أن معنى مجموع الألفاظ الجردة يختلف باختلاف الأزمان .

وحينما نعتقد أننا نترجم من اللغات القديمة لم نَصْنَع في الغالب غير استبدالنا بفكرنا الحديث فكرةً كان يُعَبَّرُ عنها بكلماتٍ تَغَيَّرَ مضمونها تَغَيُّراً بطيئاً مع الأجيال .

وكانت هذه التفاسيرُ الناقصة مصدرَ خطأٍ كثير ، ومن ذلك أن سادت رجالَ الثورة الفرنسية إلى مبادئٍ بالغةٍ الخطأِ حَوْلَ نُظْمِ العالمِ القديم ، فلم تكن عند المُبَدِعِينَ ، الذين كانوا يعتقدون أنهم يستوحون مبادئَ اليونان ورومة مستشهرين في خطبهم ، دائماً ، بليكورغ وسولون وأفلاطون وبلوتارك ، إلخ . ، أية فكرةٍ صحيحة عن النُظْمِ المُعَبَّرِ عنها بألفاظٍ تَغَيَّرَ معناها تَغَيُّراً أساسياً .

ومما يُبَلِّغُ الدَّهْشَ في نفوس هؤلاء المُصْلِحِينَ لو كانوا يُطَّلَعُونَ على الأمرِ القائلِ إن الجُمهورياتِ اليونانيةَ كانت على العكس من خيالهم الديموقراطيِّ ما كانت قائمةً على أليغارشياتٍ^(١) متنازعةٍ بلا انقطاعٍ وحاكمةٍ في أمةٍ من العبيد ومن زُبُنٍ مُعَبَّدِينَ .

وكانت الحريةُ والمساواةُ ، ولا سيما الإخاء ، كما نَتَمَثَلُها اليوم ، من المشاعر التي كان يجهلها العالمُ القديم ، وما كان إغريقيُّ عصرِ بريكس إلاَّ يُدَّهَشُ من المعنى الذي نُطْلِقُهُ عليها .

ولذلك يكون من الضروريِّ ، عندما نَدْرُسُ الماضي ، أن نحاول إعادة

(١) الأليغارشية هي حكومة بعض الأسر القوية .

المعنى الحقيقي إلى الكلمات المستعملة ، غير أنه يصعب تحقيق هذا الجهد كما يلوح ، وذلك لأنه إذا كان من الممكن ترجمة كلمة بدقة فإن من المتعذر أن تُثار في النفس ما كانت هذه الكلمة تُثيره من الأفكار والمشاعر فيما مضى ، فبعض الكلمات التي أصبحت خَلِيَّةً في الوقت الحاضر قلبت روح الناس في سالف الأيام .

وبإعادة المعنى الحقيقي إلى بعض الكلمات استطاع فُستِل دُو كُولنج أن يُعيد حياة عهد الميرُوفُنجين .

واليوم ، أيضاً ، يُدرِكُ عَيْنُ الكلمات ذات الاستعمال اليومي إدراكاً مختلفاً تماماً باختلاف عِرْقٍ من يستعملونها ويثبثهم وترتيبهم ، وسيرى في التعليقات التي نُحْتَم بها هذا الكتاب مقداراً ما يُمكن أن تتخذه الكلمات ذات الاستعمال العام ، ككلمة الديمقراطية ، من معانٍ تختلف باختلاف رجال السياسة الذين يستعملونها يومياً .

وفي حقل العلم فقط ، وبعد جهدِ قرونٍ ، قامت في آخر الأمر لغة تُفسَّرُ على تَمَطٍ واحد تفسيراً عاماً ، والناسُ من جميع الأحزاب ومن جميع الأمم المتمدنة يعرفون مضموناً واحداً للكلمات الفنية ، ويمثِّلُ العلمُ ، على الخصوص ، حقلَ الكَمِّيِّ ، أي الأشياء التابعة للقياس ، مع أن الوجه الوصفي لم يُجاوِزْ في حقل المشاعر والمعتقدات .

والتاريخُ ، مادام لم يستطع الخروج من الوصفيِّ ، أي مادام لم يستطع الاستناد إلى أُسُسٍ علميةٍ حقيقية ، فسَّرَ حَصراً تقريباً بِلغةِ الكاتب الذي كان يُفسِّره وبمشاعره ومعتقداته .

البَابُ الرَّابِعُ

العناصرُ الموجدةُ للتَّارِيخِ

الفصل الأول

قوى الأجداد

ليست الشعوبُ أكثرَ من الكونِ حيازةً للثبات الذي يلوح أن كُتِبَ التاريخَ تعزُوه إليها ، فالجماعاتُ البشرية في تطورٍ مستمرٍّ لجميع الموجودات ، ويشبهُ الشعبُ بنهرٍ ذي ثباتٍ ظاهرٍ بسببِ مجودِ ضفتيه على الرغم من جريانه الدائم .

وتألف الضفافُ التي توجهُ مجرى النهرِ البشريِّ من شبكةٍ وثيقةٍ من مختلف العوامل ، وهي : الوراثةُ والمعتقدات والعادات والقوانين والأخلاق والتربية ، إلخ . ، فإذا بَقِيَتْ هذه الأمورُ النازمةُ على حالها من غيرِ كبيرِ تحوُّلٍ كانت التقلباتُ الاجتماعية من البطء ما تُبَصِّرُ معه بصراً ضعيفاً ، والتاريخُ زاخراً بأمثلة هذا الثبات الوهميِّ كعصرِ بريكسٍ وعصرِ أغسطس وعصرِ لويسَ الرابعَ عشرَ ، إلخ .

وهذه الأدوارُ العظيمة متجانسةٌ ، لا لأن التطورَ الذي لا مَفَرَّ منه قد وَقَفَ مجراه ، بل لتَجَلَّى ثباتِ المبادئِ النازمةِ الدينية والسياسية والأدبية ، إلخ ، واستمرارِها في جميع عوامل الحياة الاجتماعية .

والشعبُ ، لكي ينال هذه الوحدةَ التي لا يستطيع أن يُفْلِحَ بغيرها ، لا بدَّ له من اكتسابِ بعضِ ثباتٍ في الأفكارِ والمشاعرِ والمعتقداتِ يُمكنه أن يُحوِّلَ إلى كتلةٍ متجانسةٍ نَقَعَ الأفراد الذين كان قد تألف منهم في البُداء .

والصعوبةُ هما في نَيْلِ درجةٍ من الثبات الوثيق ما تبقى به الكلمةُ على شيءٍ من المرونة تستطيع أن تتطور معه .
وقليلٌ من الأممِ مَنْ عَرَفَ أن يُحَقِّقَ شَرْطِيَّ التقدّمِ هذين .

* * *

وفي الصفِّ الأولِ للعِلَلِ الكبيرة التي تُعَيِّنُ التاريخَ تَبَرُّزُ العواملُ الموروثة من الأجداد ، أي مجموعُ القابليات التي تولد مع الإنسان ، وكُنَّا قد أشرنا إلى هذه القُوَى عندما درسنا عملها في تكوين ذاتيتنا الخُلُقِيَّةِ ، فمن روح الأموات تَكَوَّنَت روح الأحياء ، وفيها ، لا في المقابر ، يَرَقُدُ مَنْ زالوا بالحقيقة ، ويوجد كثيرٌ من القرون خلف كلِّ موجودٍ أتى إلى النور ، ويبقى هذا الموجود متأثراً بماضيه .

وبما أنتى عاجلت هذا الموضوع في كتابٍ آخر فإننى أقتصر هنا على تلخيص بعض أقسامه الأساسية :

تدلُّ الملاحظة على أنه يُمكن أن تُقسَّمِ الأممُ ، تقريباً ، إلى عروقٍ ابتدائيةٍ وعروقٍ دُنْيَا وعروقٍ متوسطةٍ وعروقٍ عالية .

فأما العروقُ الابتدائيةُ ، ومنها الفِئُوجِيُون والأوسِيَانِيُون ، فقريبةٌ من حيوانية الأجداد الأولين ، وهي لا تُبْدِي أيَّ أثرٍ من الثَّقَافَةِ .

وأما العروقُ الدنيا ، ومنها الزوج والپوروج ، فتستطيع أن تنتفع بشيء ابتدائيٍّ من الحضارة ، ولكن من غير أن تقدر على الصعود عالياً مُطلقاً .
وفوق العروق السابقة يجيء صُفْرُ آسية ، ولاسيا الصينيون ، فهم قد

اتفقت لهم أطوارٌ رفيعةٌ من التمدن جاوزتها الأممُ الهندية الأوربية ، ومن هؤلاء الأخيرين تتألف العروق العليا .

* * *

وجميعُ الأفراد في العروق الدنيا يَحُوزون المستوى النفسى عينه تقريباً ، وعلى العكس يكون التفاوت الذهنيُّ هو القاعدة لدى العروق العليا ، ولكن الأفضلياتِ إذا ما أصبحت بارزةً كثيراً لم تنتقل قطُّ ، فالواقعُ أن الوراثية تَرُدُّ إلى المستوى المتوسط ، دائماً ، ذراريَ الأفراد الذين جاوزوه كثيراً ، ولهذا السبب يَنْدُرُ جِدًّا أن يترك أعظمُ الرجال وارثين جديرين باسمهم .
وتمثَّلُ الشعوبُ المتمدنة الحديثة امتزاجاتٍ نشأت عن مصادفات الفتوح والغزوات ، إلخ . ، وقد ثبتت هذه العناصرُ المتباينة بفعل تماثل البيئة والمعتقدات والمصالح ، وقد أسفر توالدها في نهاية الأمر عن تكوين زَمَرٍ متجانسة كنتُ قد وصفتها بالعروق التاريخية .

ويجب ، لتمازج مختلف العروق وتأليفها عرقاً جديداً على شيء من التجانس ، ألا يكون الأفرادُ المختلطون كثيرى التباين بأخلاقهم وذكائهم .
ويمكن أن يُسْفَرَ التوالدُ عن عنصرٍ تقدُّمى إذا ما وَقَعَ بين عروقٍ عاليةٍ قريبٍ بعضها من بعض ، وهو ، على العكس ، يصبح عنصرٌ انحطاطيٌّ إذا ما كانت العروق المتوالدة مختلفةً جداً ، ولم يُبصر الإسبان الذين فتحوا جنوب أمريكا هذا الخطرَ ، فكان هذا سبباً في كون جميع الجمهوريات الإسبانية الأمريكية ، التى أُلِّقَت بتوالد الغزاة وأهل البلاد الأصليين ، والتي يسكنها مؤلِّدون جامحون ، لم تَخْرُج من الفوضى ، وهى لن تتغلَّت من هذه

الفوضى ، كجمهورية كُوبا ، إلا بمعاناتها مباشرةً ، من بعض الوجوه ، سلطانَ عرقٍ متجانسٍ رفيعٍ كالذي أوجب نجاحَ الولايات المتحدة .
 وبعد أن قاسمَ أمريكيو الولايات المتحدة ، الزمنَ ، أوهمَ الأوربيين في مساواة العروق ، هذه الأوهامَ التي قرّرت حربَ الانفصال الهائلة ، أدركوا في آخر الأمرَ خطَرَ خطّهم ، فتراهم اليوم يجتنبون كلَّ توالدٍ مع ملايين الزوج الثلاثة عشرَ الذين يَسْكُنُون بلادهم ، ولذلك كان قانونُ لنشَ ضرورةً عرقية .
 وينطوي كلُّ عرقٍ على مزايا ونقائصَ لا يُغيّرُها الزمنُ أو التربية مطلقاً ، ولا تتحولُ نُظُمُ الأمة ولغتها وفنونها إلا بتطورٍ بطيءٍ حتى تلائم مزاجَ الأمةِ النفسى الموروثَ الذي يتقبّلُها .

وإذا ما لاح أن الأمم تعتنق من المعتقدات والنظم واللغات والفنون ما يختلف عما كان لدى أجدادها لم يكن هذا ، في الحقيقة ، إلاً بعد أن تكون قد تحوّلت تحوّلاً عميقاً ، أجلّ ، إن البرهية والبُدْهية (البوذية) والنصرانية والإسلام أديانٌ أدت إلى اعتناقاتٍ ظاهرة لدى عروقٍ بأسرها ، غير أن هذه الأديان تحوّلت كثيراً بانتقالها من أمة إلى أخرى ، فلما انتقلت البُدْهية إلى الصين شوّهت بسرعة ، والإسلامُ في فارسَ غيرُه في بلاد العرب أو الهند ، ولا يزال ابنُ بريتانىة الدنيا يتخذ من الأصنام كوثنىٍ حقيقىً ، ويعبُدُ الإسبانيُّ تعاويدَ ، ويبقى الإيطاليُّ مشركاً فيقدّس لصورَ العذراء في مختلف القرى كأنها آلهةٌ شتى .

وكان الانفصالُ الإصلاحى نتيجةً تفسير الكتاب الدينى عينه من قبل شعوبٍ مختلفة ، فكانت شعوب الشمال تريد التّقاشَ في معتقداتها وتنظيم

حياتها بنفسها ، وكانت شعوب الجَنُوب تُفَضِّلُ الخُضُوعَ بلا جِدالٍ لعقائدَ تَفْرِضُها سُلْطَةً عاليةً .

ويسيطر على جميع تقلُّبات السياسة لدى الشعوب اللاتينية ، ولا سيما الفرنسيون ، عنصرٌ بارزٌ من عناصر مزاجهم النفسى الموروث من الأجداد ، وهو احتياجهم أن يُسَاعَدُوا وَيُوجِّهُوا في أدقِّ أعمالهم من قِبَلِ حكومةٍ ، فالحكوميةُ هي النظامُ الوحيدُ الممكنُ لدى الأمم اللاتينية وإن اختلفت الأسماء .

* * *

حقاً أن الحوادث التي تَظْهَرُ كلَّ يومٍ ليست وليدةَ الحاضر ، بل وليدةُ ماضٍ طويل ، فإذا ما وَحَدَّتْ قرونٌ من المصالح المتماثلة والمعتقدات الواحدة أمةً حازت هذه الأمة من المسيطرات الوراثية ما يتألف من مجموعته كيانٌ يُسَمَّى الروحَ القومية ، وهذه الروح هي التي تَعْمَلُ في الأحوال العظيمة التي تُهَدِّدُ وجودَ العِرْقِ كالغزو مثلاً ، وهذه الروح القومية ، أيضاً ، هي التي تَجْعَلُ جميعَ أعضاء العِرْقِ يَبْدُونَ أخلاقاً مشتركة كثيرة على الرغم من اختلافاتهم الفردية ، ومن ذلك أنك تَجِدُ لدى الإنكليز أو البريتون أو الأفرنيين أو البروثوسيين أو اليابانيين ، إلخ . ، من طُرُزِ الشعور والتفكير ، ومن طُرُزِ الاستدلال غالباً ، ما يَجْعَلُكَ تَعْرِفُهُمْ من فَوْرِكَ .

ولست العواملُ ، التي تستطيع أن تمنح الأمة مجموعةً من الأخلاق المشتركة الصالحة لتكوين روحها القومية ، كثيرةً ، ويكون العقلُ غريباً عن تكوينها في الغالب ، ولها رُكْنٌ بتوحيد المشاعر الجماعية والدينية ، وما كان دينياً منها يُعَدُّ أقواها ، فعبادةُ رومة في العالم القديم ، والنصرانيةُ

في القرون الوسطى ، من أبرز الأمثلة على مثل تلك العوامل .

* * *

وأشدُّ الأوهال التي يُمكن أن تصابَ بها الأمة هو ضياع روحها القومية ، فلم تكن غزواتُ البرابرةِ المسلحةً هي التي قضت على عظمة رومة ، بل امتزاجاتُ الشعب الرومانيِّ الطويلةُ بالأجانب .

وكما لاحظنا فيما تقدم كادت الولاياتُ المتحدة في الوقت الحاضر أن تذهب ضحيةً مثل هذا القدرِ نتيجةً لغزوٍ متباينِ العناصرِ غزواً تدريجياً ، فشعرتُ بالخطرِ في الوقت المناسب ، وانتهت إلى إغلاقِ أبوابها إغلاقاً تاماً تقريباً دونَ المهاجرين .

وما كانت أكلُ تربيةٍ وأصلحُ نظمٍ سياسية لتحوّل بعضَ العوامل الوراثية ، ولو تألّفَ شعبٌ خلاسىٌّ من حَمَلَةِ البِكْلُوريا ومن المحامين والدّاكرة لعدا عُرْضةً للفوضى فإلى النظمِ الدكتاتورية التي تؤدي إليها هذه الفوضى لارِيب .

وتدلُّ أوربة الحديثة ، مرةً أخرى ، على مقدارِ ثقلِ المؤثراتِ الوراثية في حياة الأمم ، وما تُتلاقِه محاولةٌ لتحقيقِ اتحادِ أوربيٍّ من مصاعبِ خارقةٍ للعادة يُشبتُ ضعْفَ الضروراتِ النظرية إذا لم تستند إلى بعضِ المشاعرِ الوراثية مجتمعةً .

وما بين الأحياء من تضامنٍ يستند بحكم الضرورة إلى تضامن بين الأموات الذين تكوّن الأحياء منهم .

الفصل الثاني

الخلق والذكاء

تَجِدُ الموجوداتِ ، على الرغم من تقلباتِ ذاتياتِها الممكنة التي دَرَسَتْ أمرَها في فصلٍ آخر ، مُطَوَّقَةً ببعض المؤثراتِ الدائمة ، الإرادةِ والثباتِ ، إلخ . ، المقيِّدةِ لذبذباتِها ، فمن مجموعها يتألف ما يُسمَّى الخُلُق^(١) .

وعلى الدوام سيطرت الأمم ذواتُ الخُلُقِ القويِّ على الأمم ذواتِ الخُلُقِ الضعيفِ أو المتردِّدِ مهما كان ذكاؤها ، ومن ذلك أن الرومان قَهَرُوا الأَغارقةَ بسهولة . وذلك في زمن كان الرومان فيه قليلي التمدن وكان الأَغارقةُ فيه أرقى بدرجاتٍ من قاهريهم ذكاءً وثقافةً .

ويستمرُّ ذاتُ الحادثِ على الظهور في الأزمنة الحديثة ، ومن ذلك أن عُبْدَ ثلاثمئة مليونٍ من الهندوسِ يمتازون بمعارفهم الفنية والفلسفية بسبب خُلُقهم الضعيف ، وذلك من قِبَل جيشِ إنكليزيٍّ لا أهميةَ له عدداً .

(١) أردت تبسيط ما أعرضه فيما بعد فأطلقت على كلمات الشعور والذكاء والعقل ، إلخ . ، ما يعزى إليها من معنى على العموم ، ويكفي تعريفها الكلاسي للدلالة على حال علم النفس الابتدائية حول مسائل مهمة على الخصوص ، وإليك ، مثلاً ، كيف أن لبيتره يعرف العقل في الطبعة الأخيرة من القاموس الطبي بقوله : « هو مجموع الخصائص التي يدرك الإنسان بها الحقيقة ويعرفها ويوضحها » .

وكذلك تعريف الشاعر لدى المؤلف نفسه مضطرب ، فالشعور عنده « هو بصيرة الروح التي نحدد بها الأشياء في أحكامنا » ، فهذا التعريف الأخير يخلط بين الشعور والعقل .

ويدلُّ مجرى التاريخ كله على كون شأن الخلق أشدَّ نفوذاً بمراحل من شأن العقل في مصير الأفراد والشعوب^(١) .

والخلق هو ناظم السلوك الحقيقي ، ويصلحُ الذكاء للإيضاح والتمييز على الخصوص ، وتُكَمَلُ الصفاتُ الذهنية بالترية ، ويكاد الخلق يتفلسف من سلطان الترية تماماً .

والخلاصةُ أن من الممكن أن يقال إن المجتمعات الحديثة مؤلَّفةٌ ، كما يلوح ، من تَنَضُّدِ عالمين مختلفين تماماً ، أى عالم العلم الذى يهيمن عليه الذكاء وعالم الحياة الاجتماعية الذى يُوَجِّهُهُ بِمَشَاعِرَ يتألف منها الخلق .

وتنبجس الاختراعات التى تُحوَّلُ ناحية الحضارات المادية من عالم العلم الذى يُوَجِّهُهُ صفوةُ الأذكاء ، وتنشأ المنازعاتُ والأحقاد التى يَضْطَرُّبُ بها تقدم الأمم غالباً ، وتهددُ بالقضاء عليها ، عن العالم الاجتماعى .

فتاريخ العلوم هو قصةُ الاكتشافات التى حقَّقتها الذكاء ، وتاريخ الأمم يُقْصُّ خبرَ الحوادثِ المُعَيَّنَةِ بتأثيرِ مختلفِ المشاعر التى يَنْدُرُ أن يوجهها العقل .

وخلط ما بين المشاعر التى تُسَيِّرُ الإنسانَ ، وما تستدعيه من عوامل العمل ، أمرٌ عامٌّ لدى المؤرخين ، وكان يُخَيَّلُ لصانعى الثورة الفرنسية أنهم يقيمون مجتمعاً جديداً على العقل الخالص فكانوا يستوحون العقل فى خطبهم ،

(١) تهمل الجامعات دراسة المشاعر مع أهميتها العظيمة ، وما لاحظته الأستاذ كلابريد أن ما اقترح من مناهج كثيرة لتعيين القابليات الفردية لم يتناول غير القابليات الذهنية .

« وقد طرحت التجارب لتعيين الخلق جانباً طرْحاً تماماً تقريباً ، أى طرح قياس الذاتية بأسرها . »

ثم إن هذا التعيين صعب ما حكم فى الخلق بالأعمال لا بالأقوال .

فالواقع أن مُعْظَمَ أفعالهم كان يُشْتَقُّ من المشاعر التي لا نصيب للعقل فيها ،
أى من الحاجةِ إلى المساواة والحسد والأحقاد ، إلخ .

* * *

أجل ، يوجد لدى جميع الناس ، متمدين كانوا أو متوحشين ، مشاعرٌ
مقاربةٌ ، غير أنه يوجد بين الابتدائيِّ والمتمدنِ فارقٌ عميقٌ قائلٌ إن
المتمدن حائزٌ لقوةٍ خُلقيةٍ يقاوم بها نائِرَ الاندفاعاتِ مستعيناً بالعقل في
معارضةِ شعورٍ بشعور .

وقليلون من يقدِّرون على مقاومة نزواتهم العاطفية ، أى مَنْ هم حائزون
صفةً « ضبط النفس » كما يسميها الإنكليز ، وتكون الجماعاتُ مجردةً منها
تماماً ، واندفاعُ الساعة هو رائدُها الوحيد على العموم ، ولا يقوم العقل على
معارضةِ الشعور ببرهانٍ منطقيٍّ ، بل على إقامة شعورٍ بعيدٍ حيالَ اندفاعٍ
حاضر .

وعلى ما وقع من تقدم الحضارة بقيَ مُعْظَمُ الأمم عند أذنى طَوْرِ حيث
لم يكتسب الحِظُّ المُدَبَّرُ بعدُ من السلطان الكافي ما يزجر الانعكاساتِ
الطبيعيةَ معه ، وقد نشأ كثيرٌ من الحروب عن عدم القدرة على ردع
اندفاعات الساعة .

ولا يتطلب إمكانُ تغيير السلوك ، بمعارضة الاندفاعات الحاضرة بنتائجها
القادمة ، ضبطاً للنفس أو قوةً خلقيةً فقط ، بل يتطلب أيضاً صفةً التمييز
الموصوفة بالحكم ، وتمثِّلُ هذه الصفة أعلى القابلياتِ الذهنية ، وهي تتضمن
روحَ نقدٍ نفاذة يُقرأ بها تسلسلُ المعلولات والعلل .

وإذا ما اقتترنت العواملُ الشعورية التي يتألف الخُلقُ منها ببعض العوامل الوجدية تَكُونُ مجموعٌ يُعَبَّرُ عنه بكلمة « القُوَى الأدبية ». .

وقد غَيَّرَ سُلْطَانُهَا مجرى التاريخ أحياناً ، ويُمكنُ أن يقال ، إن القُوَى الأدبية مَنَلَتِ دوراً مهماً في أول الحرب الأخيرة وآخرها فقد غَلِبَ الألمان بالقُوَى الأدبية أكثرَ مما بالمدافع ، ولا مرء في أن القيمة الحربية لمقاتلي أمريكا المُرتَجَلين كانت صِفراً تقريباً ، غير أن الأثر الذي نشأ عن وصول ما لا يُحْصِيهِ عَدَدٌ من الكتائب كان من السلطان الأدبيِّ ما أدخل اليأس إلى العدوِّ وأطفأ حميته في آخر الأمر ، وكان المريشالُ الشهير فُوش يُعَلِّقُ أهميةً عظيمةً على القُوَى الأدبية ، فيقول : « إن الحرب مضارٌّ للقُوَى الأدبية ، فيقوم النصر على التفوق الأدبيِّ لدى الغالب وعلى الانحطاط الأدبيِّ لدى المغلوب » .

* * *

وتجَلَّى إحدى مشاكل الزمن الحديث في الاختلاف الزائد بين نشوء الذكاء بسرعةٍ وتطور المشاعر والأخلاق ببطء .

وكان اتِّبَاعُ الذكاء للمشاعر ذا نتائجٍ كبيرةٍ في التاريخ دائماً ، ولم تَلْبَثِ الجهودُ العقلية لدى اثنين وخمسين ممثلاً لمختلف الدول ، التي تتألف منها جمعية الأمم حفظاً للسَّلْمِ بين الشعوب ، أن ثَقُلَتْ تحت انفجارِ غريزيِّ لمشاعرٍ جماعيةٍ من حسدٍ وكرامةٍ مجروحةٍ ورغبةٍ في الانتقام ، إلخ .

وعَجَزُ العقل عن التأثير في المشاعر أصبح من شدة الخطر بنسبة ما تُجَهِّزُ مبتكراتُ العلم به المشاعرَ بأسلحةٍ هائلةٍ تُبِيدُ في بضع ساعات كبريات

العواصم مع ما تشتمل عليه من كنوز الفن ، ومن ثمَّ تُحَرَّب الحضاراتِ
المُسِنَّةَ التي يُفَاخِرُ بها الإنسان .

أَجَلٌ ، قد تكون المشاعرُ في الإنسانية العليا خادمةً للذكاء ، ولكن
الذكاء في إنسانيتنا الناقصةِ التطورِ هو الذي يَظَلُّ خاضعاً للمشاعر .

الفصل الثالث

المعتقداتُ الوجدية ذاتُ الشكل الدينيّ

تَبْدُو القَوَى الوجدية في النصفِ الأول من القَوَى النفسية ، وقد كانت عظيمةَ الشأن دائماً لأنه تألّف منها أعظمُ محرّكٍ للجهود الفردية والجماعية التي تُشْتَقُّ منها حياة الأمم .

ولا أفصّل هنا هذا التأثير ، فقد خصّصتُ كتاباً لأنثبت كيف تُولد المعتقدات وكيف تنمو وتموت وكيف تُوجّهُ الأعمال بعد أن تستقرّ بالنفس ، وقد حاولتُ ، على الخصوص ، أن أوضح الأمرَ الأساسيّ القائلَ إن المعتقداتِ المخالفةَ للعقل مما أمكن اعتناقُ أفضلِ العلماء له ، ولاح إدراكُ هذا الحادثِ متعذراً في زمنٍ عدّت المعتقدات فيه إراديةً عقلية مع أنها غيرُ إرادية وغيرُ عقلية في الحقيقة ، فجميعُ تاريخ المعتقدات الدينية والمعتقدات السياسية يُشتقُّ من هذه المبادئ الأساسية ، ومثّلَ سرّيانُ المعتقد في اللاشعور بفعل العدوى النفسية والتلقين والنفوذ ، إلخ . ، دوراً في حياة الشعوب أعلى من الدور الذي مثّله العقل فيها .

وتقوم الوجدية على الخضوع لأوهامٍ بالغةٍ من القوة ما تتغلّت معه من سلطان العقل ، وتاريخُ البشرية هو تاريخ هذه الأوهام على الخصوص ، وتنمو الأمة إذا ما حازت أوهاماً دينية أو سياسيةً قادرةً على تحريك جهودها ، وهي

تميل إلى الزوال عند ما يأخذ سلطان هذه الأوهام في الدُّبُول .
 ويُعدُّ العامل الوَجْدِيُّ جزءاً من تلك القُوَى النفسية المجهولة التي لم
 يَصْنَع التاريخ غيرَ رَسْمٍ دراستها رسماً خفيفاً فقط ، وبما أنه لا يُمكن
 تصنيفُ الوَجْدِيَّةِ ضِمْنَ الحوادث العقلية ولا ضِمْنَ الحوادث العاطفية فإنه
 يجب أن تُعدَّ حالاً نفسيةً خاصةً مشابهةً بعضَ الشبهِ للحال الناشئة عن
 القُوَى المُنَوِّمة ، فالنومُ يَقَعُ تحت سيطرة النومِ المطلقة ، ويوجب المعتقدُ
 نتائجَ مماثلةً لتلك ، ولكن مع طول دوامها بدلاً من أن تكون موقّنة .
 وقد بَلَغَ الدَّورُ الذي مَثَلته المعتقداتُ الوَجْدِيَّةُ ذاتُ الشكلِ الدينيِّ
 من الأهمية في ثبات الذاتيات الفردية والجماعية ما لا يكون من المبالغة أن
 يقال معه إن مُعْظَمَ تاريخ الأمم مؤلَّفٌ من تاريخ آلهتها .

وكان أجدادنا في مدة ما قبل التاريخ التي تَرَجَّحت بين خمسين ألف
 سنة ومئة ألف سنة ، والتي مرَّت قبل الحضارات ، يَبْقَوْنَ ملازمين لدائرة
 اللاشعور غيرَ مباليين بالبحث عن المصير ، وكانت الولادة والموت يَلُوحان
 حادثين طبيعيين غيرَ محتاجين إلى إيضاح ، وكان الغذاء والتناسل وحدهما
 يُعَدَّان حافزين إلى السَّير .

وكان لا بُدَّ من أن يَظْهَرَ من الحياة اللاشاعرة ، التي كان الإنسانُ غيرَ
 خارجٍ منها بعدُ ، بصيصٌ من الحياة الشاعرة تقترن به في النفس صُورُ
 الأشياء حتى يَكْتَشِفَ الإنسان ما تشابه منها وما اختلف فيلُوح له تكوينُ
 فكرةٍ عن العالم .

ويدلُّ مبدأ السببية والقائية ، أى المبدأ القائل إن للحادث أسباباً ونتائج ،

على أصل مبادئ الإنسان الابتدائي الأولى عن الكون كما يحتمل .
 وكان لا بُدَّ من وجودِ علةٍ للغوامض الهائلة التي وَجَدَ الإنسانُ نفسه
 محاطاً بها ، كنور الصاعقة وصَوَلاتِ العاصفة وغيرها ، وكان الأمرُ الوحيدُ
 الممكنُ تصوُّره وجودَ أشخاصٍ مشابهين للإنسان ، ولكن مع كونهم أشدَّ
 قوَّةً منه بمراحل .

وهناك ظَهَرَ الآلهةُ الكثيرون النافعون أو الضارُّون ، والمرهوبون
 دائماً ، فسيطروا على حياة الأمم في قرون طويلة ، وكان يهيمن آلهةٌ خاصون
 على جميع الحوادث المترجحة بين سَيْرِ الشمس وهِيَاجِ الأمواج ووقوع الحصاد ،
 وكان نَيْلُ حمايتهم يقتضى التزامَ ما يُمكن تصوُّره في ذلك الحين من
 الوسائل التي تُتَّخَذُ وحدَها للتأثير في الكبراء ، وهي الدَّعَوَاتِ والتَّقَدِمَاتِ ،
 ولم تَبْلُث حياة كلِّ أمةٍ أن وُجِدَتْ خاضعةً لتدخُّلِ الآلهة الدائم ، وكان
 الآلهة الكثيرو العدد لدى أكثر الأمم حضارةً ، كالأغارقة والرومان على
 الخصوص ، يُوحُونَ بخوفٍ بالغ ، وكان تَدخُّلُهُم المَفْرُوضُ في أدقِّ أعمال
 الحياة يَحْمِلُ على استشارتهم بلا انقطاع ، وكان يُفَوِّضُ إلى مجمع الطوابع ،
 الذى يشترك فيه أرقى الأعيان برومة ، أمرُ تفسير الإشارات الدالة على إرادة
 الآلهة .

بَيَّنَدَ أن هؤلاء الآلهة أنفسهم عانوا سُنَّةَ التطور التي تقضى على الكون
 بالتحول دائماً .

فقد ظَهَرَ في بلاد الجليل إلهٌ لم يُعْتَمَ أن حَلَّ محلَّ آلهة الأَلِنِيبِ الهَرَمِينِ ،
 فسيطرت عزيمةُ هذا السيد القوي على حياة الأمم قرونًا طويلة وأنعم على

الفكر بثباتٍ أكثرَ من الذى أنعم به الآلهة الذين قام مقامهم ، وكان الناسُ الذين لم يطيعوا أوامره مدى حياتهم يُوعَدُونَ بنارٍ أبدية .
 وإلى وقتٍ بالغِ الجِدَّةِ فقط ظَفِرَ بمبدأِ القُوَى غيرِ الشخصية التى يُمكنُ الإنسانَ أن يستميلها والتي تستطيع أن تحلَّ محلَّ عزائم الآلهة .

* * *

وبلغ الدَوْرُ الذى يُمثِّله الآلهة فى التاريخ من القوة ما لم تستطع أمة أن تُغيِّره من غير أن تَرَى حياتها تتحول تحوُّلاً تامًّا .
 ومما ذكرناه آنفاً أن قبائل بلاد العرب البدوية وُحِّدَت برؤى محمدٍ الدينية فلم تَلَبَثْ أن بَلَّغَت من القوة ما أقامت معه إمبراطوريةً عظيمة .
 ومن الأمثلة الكثيرة على الثبات النفسى الذى قد ينشأ عن اعتناق إيمانٍ حارٍّ يُمكنُ أن نستشهد ، أيضاً ، بأوائل الإصلاح الدينىِّ فى فرنسا .

وأولُ ما أوجبه هذا الإصلاحُ هو كَفَاحٌ بسيطٌ ضدَّ مساوئ الإكليروس ، كبيع المغفرة مثلاً ، ولكنه لم يَلَبَثْ أن تَحَوَّلَ بالعدوى النفسية والاضطهاد إلى معتقدٍ كان من القوة ما لم يَقْدِرْ أىُّ نَكَالٍ على وَقْفِ انتشاره ، وعلى العكس كان كلُّ قَتْلٍ يُوْدَى إلى اعتناق جديد .

وقد انتشر الإصلاح الدينىُّ على الرغم من جميع التدابير الإبراهيمية فأصبحت فرنسا ميداناً لاصطراع المعتقدات المتخاصمة مدةً خمسين سنة .

ولا مثالَ أحسنَ من ذلك يدلُّ على مقدار استطاعة الذاتيات المذبذبة التى يُؤَلَّفُ منها كلُّ موجود أن تُوجِدَ بفِعْلِ الوَجْدِيَّةِ شخصيةً جديدةً بالغةً من

الثبات مالا يَقْدِرُ على تغييره أى عاملٍ ، سواءً أكان المصلحة الذاتية أم غريزة البقاء أم الخوف من الألم .

* * *

وهل من الممكن أن يُفْرَضَ وجودُ أمةٍ مجردةٍ من معتقدات دينية ؟ لم يَعْرِفِ العالمُ أُمَّةً من هذا النوع بَعْدُ ، ولن يَرَى مثلَ هذه الأمة على ما يحتمل ، فالاحتياجُ الْوَجْدِيُّ إلى دينٍ مَوْجِهٍ مُشَبَّتٍ أمرٌ لا تبديلَ له . والتَّقبُّلُ الدينيُّ لم يَنْقُصْ نقصاً محسوساً في غُضُونِ القرونِ على الرغمِ من بعض الظواهر ، فالبابيةُ في فارسَ والعدميةُ والبشفيةُ وديانةُ سَكْبَزِكِي في روسية والعلمُ النصرانيُّ والمرمونيةُ في الولاياتِ المتحدةِ أمثلةٌ جديدةٌ دالةٌ على القوةِ الخارقةِ التي يستطيعُ أن يُنْعِمَ بها العتقدُ على المؤمنين مهما كان هذا المعتقد مخالفاً للصواب .

وبما أننى لا أدرسُ مختلفَ الأديانِ هنا فإننى أقتصرُ على تلخيصِ في بضعةِ أسطرٍ تاريخِ المرمونيةِ التي هي من أحدثِ الأديانِ فأقول : إنها أُقيمتُ من قِبَلِ مهوسٍ كان يَزْعُمُ أنه تَلَقَّى من السماءِ تلقياً خارقاً للعادةِ كتاباً مقدساً مشيراً إلى دينِ جديدٍ فجمَعَ بفعلِ قوتهِ التلقينيةِ أتباعاً زاد عددهم باطرادٍ ، وإِن هؤلاء المؤمنين الذين اضطهدتهم كتائبُ مسلحةٌ وأمعتت في تقتيلهم اضطُرُّوا إلى الفرارِ من ظالمهم ، وإنهم طُورِدُوا مئاتِ الكيلومتراتِ فبَلَّغُوا في آخرِ الأمرِ بُقعةَ « البحيرةِ المالحة » الصحراويةِ حيث كَفَّ أعداؤهم عن تَعَقُّبِهِمْ ، وتمَضَى بضعُ سنينِ فَتَحَوَّلَ الصحراءُ الجليديةِ بقوةِ الإيمانِ الجديدِ ، وتَخْرُجُ من العدمِ مدينةٌ كبيرةٌ لم تُعَمَّ أن

صارت قاعدة مهمة لولاية جديدة ، واليوم تعدُّ أوتاه قسماً من الولايات الثماني والأربعين التي تتألف منها جمهورية الولايات المتحدة .
وما كانت أية جماعة تُسَيَّرُ بالعقل وحده لِتَنجَحَ ، على ما يحتمل ، في إخراج بُقعة رَخِيَّةٍ من الصحراء كما صنَع أولئك المؤمنون الذين أيدُوا بمعتقداتٍ وهمية مُبدِعةٍ لِقَواهم .

وتمارس جميعُ المعتقدات الدينية ، ولا سيما في بُدائها ، ذاتَ النفوذ المسيطر على روح المؤمنين ، ومن هذه المعتقدات ما هو كَمَعْتَد السَّكُّزِيَّ بروسية حيث ظَفِرَ من أتباعه بأقْسَى بَتْرٍ ، ولا تَرَى ديناً أعوزه شهادته .

* * *

ومع ذلك فإن الآلهة الذين كانوا يسيطرون على العالم منذ أوائل التاريخ أضاعوا ، حتى لدى المؤمنين ، ما كان خيالُ الأمم يُنعم به من سلطانٍ كبير ، وكان العالم القديم يؤلِّهُ قُوَى الطبيعة ، فجعلهم العالم الحديث غيرَ شخصيين ووفقاً لاستعبادهم مقداراً فقديراً ، وكان على الإنسان أن يُطِيع الآلهة القابضين على هذه القُوَى وَفَقَ المبدأ القديم ، فصارت القُوَى الطبيعية تُطِيع الإنسان وَفَقَ المبدأ الحديث ، وقد وجب مرورُ أُلوفٍ كثيرة من السنين لإقامة هذا التمييز الذي يُشْتَقُّ منه جميعُ الفلسفة الحديثة .

الفصل الرابع

المعتقداتُ الوجدية ذات الشكل السياسي

عند ما عادت حماية الآلهة التي تُنال بالأدعية لا تؤيد الإنسانَ بَحَثَ الإنسانُ عن آمالٍ أخرى ، فَظَنَّ أنه يَكشِفُها في الأوهام السياسية والاجتماعية ، وكان الإيمان الأعمى الذي يَصْدُرُ عن الروح الوجدية دائماً أحدَ العناصر الأساسية لشكل المعتقدات الجديد هذا .

أَجَلٌ ، إن سلطان بعض الخيالات السياسية ذات الشكل الديني هو من القوة كسلطان الأديان أحياناً ، غير أنه وقتيٌّ على العموم ، وتوجب هذه المعتقدات السياسية ذات الآمال وذات عدم التسامح وذات الاحتياج الشديد إلى الانتشار كالعقائد الدينية .

وتمنح المعتقداتُ السياسية ذات الشكل الدينيُّ أتباعها قوةً عظيمةً كما يمنح الدينُ الجديد، ويُزوّد التاريخُ بأمثلةٍ كثيرةٍ على ذلك ، ولا سيما دَوْرُ الثورة الفرنسية ، فما كانت الجمهورية لتستطيع أن تقابل جيوشَ الملكيات الأوربية المُسنَّة القويةَ بغيرِ كتابِ سَيِّئَةِ العُدَّةِ سيئَةِ النظام ، ومع ذلك فقد تمَّ لها النصر ، وقد نشأ هذا الحادثُ غيرُ المنتظر عن كون جنود الثورة ذوى إيمانٍ دينيٍّ عميق بما كانوا قد اعتنقوه من عقائدٍ جديدةٍ ، وعند هؤلاء كانت البشرية المُحوَّلةُ تَدْخُلُ في طورٍ عامٍّ من السعادة ، وكانت المجتمعاتُ تَعُودُ إلى

ذلك الدور الابتدائي الذي يتألف منه عهد مساواة وحرية وإخاء بالغ اليمن كما يرى النظريون الجاهلون شذائداً ما قبل التاريخ .

• • •

وكذلك يُمكن أن يُذكر بين المعتقدات السياسية ، الحائزة لِمَا في المعتقدات الدينية من قوة مُثَبِّتة ، شَوْقُ بعض الشعوب إلى الصّدارة ، ويدلنا تاريخ نينوى وبابل ورومة في الأزمنة القديمة ، وتاريخ إسبانية وإنكلترا وفرنسة وألمانية في الأزمنة الحديثة ، وتاريخ الولايات المتحدة في أيامنا ، على تأثير المثل الأعلى المُكوّن من هذه الوجدية الجماعية التي تُمَثِّلُها عبادة الوطن .

واليوم يُمَثِّلُ أنشطُ المعتقدات السياسية ذات الشكل الديني من قِبَل الاشتراكية ، ومن قِبَل الشيوعية التي هي طَوْرُ الاشتراكية الأقصى ، وَيَعْظُمُ سلطانهما كلَّ يومٍ بسبب الآمال التي تُعَلِّقُ عليهما ، ومُثَلُّ الإكليريكية الجذرية والإكليريكية الشيوعية والإكليريكية الكاثوليكية أشكالاً تختلف قليلاً عن الإيمان الوجدي نفسه ، مع عدم تعقيب الأهداف عينها .

وتُفَرِّقُ الاشتراكية أوربة كما أغرقت النصرانية أوربة منذ ألفي عام ، والاشتراكية تنتشر بسرعة أقل مما انتشرت بها النصرانية لِمَا تصادمه من عوامل اقتصادية لا عهد للعالم القديم به .

ثم إن المذهب الاشتراكي هو من البساطة ما يجعله سائغاً عند كل ذكاء ، وقد أجاد الوزير الاشتراكي الإنكليزي ، مستر مكندونلد ، التعبير عن مبادئه الأساسية حَول ذلك بالكلمة الآتية ، وهي :

« إن الاشتراكية مبدأ جماعية مُنظَّمة نظامية حاملة لواء سلطة المجتمع

الاقتصادية والمادية ، وذلك على وجهٍ يُمكن الفردَ فيه أن يُحرَّرَ من الضغط ويتمتع بحرية نشوئه .

وهذا المبدأ ، إذا عبَّرَ عنه باصطلاحاتٍ عملية ، دلَّ على إدارة جميع الصناعات تحت رقابة الدولة ، أى من قِبَل جَحْفَلٍ من الموظفين ، وقد أثبت تطبيقُ هذا النظام ، الذى حُقِّقَ فى روسية ، أن الإدارة الحكومية أعلى بدرجاتٍ من الإدارة الرأسمالية الفردية من ناحيةٍ ، وأكثرَ ضغطاً بدرجاتٍ منها من ناحيةٍ أخرى .
ثم إن الاشتراكية وأختها الشيوعية تَنَسِيَانُ أن الادارة الحكومية تُعطلُّ الجهد الشخصى بسرعة ، تُعطلُّ هذا المصدرَ لكلِّ تقدم .

والأمة إذا ما أضاعت استعدادها للجهد وقعت فى انحطاطٍ عميق .
وهكذا تجِدُ الاشتراكيةُ ضِدَّها سُنناً اقتصاديةً كما تجِدُ سُنناً نفسية ، ومع ذلك فإنها تكون من القوة بنسبة الأوهام الوجدية التى تستند إليها ، ولذلك لا ينبغي أن يُدهَشَ من انتشارها بسرعة ، وتَغزُو الاشتراكيةُ أُمماً مستقرةً كالإنكليز بعد أن خَرَبَت روسية ، ولم تستطع بلادٌ أخرى ، كإيطالية وإسبانية وبولونية ، أن تَقِيَ نفسها من تخريباتها إلاَّ بدكتاتورياتٍ فَعَّالة .

وللشيوعية ، القائمة نظرياً على تساوى الناس فى الرزق كما تقوم الاشتراكية ، قوةٌ دعائيةٌ أعظمُ مما لهذه الأخيرة ، وذلك لاستنادها إلى ضروب الحسد والحقد الشديدين على شكلٍ آخر .

وإذا عَدَوْتَ تلك الأمثلة العظيمة البارزة ، مكتفياً بتصفحِ تاريخنا الحديث ، اعتقدتَ شأنَ المعتقداتِ السياسية على شكلٍ دينىٍّ ، وما كانت فرنسا ميداناً له من انقلاباتٍ منذ ثورتها الكبرى يؤلِّفُ أدلةً مؤثرةً ، وتساعد هذه الانقلاباتُ ،

أيضاً ، على شعور أكثرية الناس الساحقة باحتياجٍ شديدٍ إلى مَثَلٍ دينيٍّ أو سياسيٍّ عالٍ بالغٍ من القوة ما يُثَبِّتُ الأفكارَ ويوجِّهُ السَّيْرَ ، وذلك على الرغم من شوقهم إلى الحرية .

وإذا كان كثيرٌ من النفوس يعيش مضطرباً حائراً فذلك لأنه لم يجدْ بَعْدُ مثلاً وَجديّاً عالياً بالغاً من القوة ما يسيطر عليها .

ومبدأ توازن المعتقدات السياسية الجديدة والمعتقدات الدينية القديمة أمرٌ أساسيٌّ ، وهذا المبدأ وحده يستطيع أن يوضح انتشارَ بعض الحركات المناقضة ، على الخصوص ، لمقتضيات الاقتصاد في الزمن الحديث .

وتمثِّلُ الأديان القديمة ، دائماً ، دوراً مهمّاً في حياة الأمم السياسية على الرغم من الميل إلى استبدال مختلف المعتقدات السياسية بها ، وقد شوهد ذلك عند ما تَمَرَّدت الأزمات على القوانين الخرقِ التي تؤذى معتقداتها الدينية ، ولا يزال أقلُّ المسائل اللاهوتية في إنكلترة قادراً على تحريك الرأي العام ، ومن الأمثلة البارزة على ذلك ما وقع من مناقشاتٍ عنيفة في البرلمان البريطاني حَول الاقتراح القائل بإدخال تغييرٍ طفيفٍ إلى كتاب الصلوات الرسمي .

* * *

ويُخَيَّلُ إلى رُسُلِ المعتقدات السياسية الجديدة ، المُعدَّة للقيام مقام المعتقدات الدينية القديمة ، أن يدافعوا عن مبادئٍ كثيرةٍ التقدم مع أنهم في الحقيقة يَعُودون ، غالباً ، إلى أشكالٍ من التطور الأذنى قُطِعَتْ منذ زمن طويل .

وفي أثناء الثورة الفرنسية على الخصوص يوجد في القضايا الثورية كثيرٌ

من المبادئ الثورية ، والواقعُ ماذا كان يَطْلُبُ رُوْبِسِييرُ وزملاؤه الغِلاظُ ؟ كانوا يطلبون العَوْدَ إلى نُظْمِ المجتمعات الابتدائية التي رأى أستاذهم جان جاك رُوْشو أنها تَقْضِي بالعجب كما افْتَرَضَ ، مع أن هذه المجتمعات كانت تُوَلَّفُ من وحوشٍ لا أثَرَ للحضارة فيهم ، وما يَطْلُبُ الشيوعيون اليومَ غيرَ الرجوعِ إلى أشكالٍ من التطور تَرِكْت منذ أزمنة التاريخ الأولى فعادت لا تُرَاعَى من قِبَلِ أناسٍ غيرِ القبائل الدنيا ؟

* * *

وما بين مقتضيات الاقتصاد والأوهام السياسية ذاتِ الشكلِ الدينيِّ من تناقضٍ لم يُبْصِرْهُ المؤمنون قَطُّ ، وكُنَّا قد لاحظنا أن ما في المعتقدات السياسية ذاتِ الشكلِ الدينيِّ من قوةٍ عظيمة يقوم على عدم الاكتراث لما تستلزمه حياةُ الأمم من شروطٍ حقيقية ، وَيُلُوْح أن هذه الأوهام قد تُصَوِّرَتْ لموجوداتٍ مُفْتَعَلَةٍ خاليةٍ من الهَوَى والإرادة مُعَدَّةٍ لاتباعِ سُبُلٍ متائلةٍ من المهد إلى اللحد .

وإذ ليس على برامج المصلحين الوَجْدِيَّة أن تُبَالِي بما يَسُودُ العالم من ضروراتٍ فإنها تكون زاخرةً بأكثر الآمالِ إغواءٍ ، وهي تنطوى على بيانٍ عن السَّلْمِ والاتفاق ونزْعِ السلاح وتساوى الثَّرَوَات والأحوال مع عدم اكتراثٍ للحقائق الاقتصادية التي تُقَيِّدُ الحياةَ الحاضرةَ بالتدرجِ تقييداً وثيقاً . ويُحَرِّكُ الزمنُ الحاضرَ تحريكاً عنيفاً بما بين العواملِ الوَجْدِيَّة التي تَقْهَرُ الروحَ البشرية دائماً ومقتضياتِ الاقتصاد التي تنشأ عن تقدم العلم من تناقضٍ ، ولا مِرَاء في حُلُولِ الأوهام السياسية محلَّ الأوهام الدينية ، ولكن كلاً منهما

يصطدم بذات المصاعب التي تنشأ عن تقدم المعرفة بالكون .
 وفي كلِّ يومٍ يَعْظُمُ الحقيقى الذى هو وليدُ العلم من غير أن يَقْدِرَ على
 القيام ، مع ذلك ، مقامَ غيرِ الحقيقى الذى يحتاج القلبُ إليه ، ولا رَبِّبَ
 فى أن العاملين الكبيرين ، العلمىِّ والدينىِّ ، اللذين يُوجَّهان حياةَ الناس ،
 سيدومان دواماً متوازياً زمنًا طويلاً .
 أَجَلٌ ، إن المعارف العلمية غَيَّرَتْ ناحيةَ الحضاراتِ الماديةَ تَغْيِيرًا عميقًا ،
 غير أن المعتقداتِ الوَجْدِيَّةَ ، دينيةً كانت أو سياسية ، ظَلَّتْ قادرةً
 وحدَها حتى الآن على إيجاد اتحادِ المشاعر والأفكارِ الضرورىِّ لثبات الذاتياتِ
 الجمعية ، ولا شكَّ فى أن ختام ما بين الحقيقىِّ وغيرِ الحقيقىِّ من صراعِ
 عظيمٍ لا يزال يَهْزُءُ العالمَ سيكون مبدأً حضاراتٍ جديدة .

الفصل الخامس

العادات والأخلاق والتربية

مهما تكن العوامل الأولى لتطور الأمة ، سياسيةً كانت أو دينية أو اقتصادية أو غيرها ، لا تؤثر تأثيراً عميقاً إلا بعد أن تُحوّل إلى عاداتٍ غير شعورية يعود البرهان غير مؤثّر فيها ، وللعادات سلطان لا يقاوم ، وذلك لأن الفرد الذي يزعم أنه يتفلسف من تأثيرها لا يلبث أن يرى عدواً له جميع الزمرة التي ينتسب إليها ، أجل ، يُمكن أن تتحول ، ولكنها تكون ذات سلطان مطلق في أثناء دوامها ، وتكفي قوة الموضة^(١) ، التي لا تتجلى في اللباس فقط ، بل ، أيضاً ، في كثير من عناصر الحياة الاجتماعية ، فنيةً كانت أو ذهنيةً ، لإثبات أهمية هذه المناحي الاجتماعية في حياة الأمم .

وتعدّ العادات من العوامل الأساسية في استقرار المجتمعات ، فالأمة لا تخرج من الهمجية إلا بعد أن تخضع لنير العادة ، وهي تعود إليها منذ فقدان عنصر الاستقرار هذا لقوته .

نعم ، إن القوانين تساعد على تثبيت العادات ، غير أنها لا توجدُها ، ويجب على القانون ، لكي يكون مؤثراً ، أن يستوحى العادة ، لا أن يسبقها .

La mode (١)

* * *

وَتَظْهَرُ العَادَاتُ بَيْنَ بَوَاعِثِ الأَخْلَاقِ الحَقِيقِيَّةِ ، أَى العِلْمِ الَّذِى يُنظِّمُ السُّلُوكَ كَمَا جَاءَ فِي المَعَاجِمِ .

وَمَا انْفَكَّتِ الفِلسَفَةُ مِنْذُ قَرْنِ تَبَحُّثِ فِي الأَخْلَاقِ عَادَةً إِيَّاهَا مِنَ المَسَائِلِ الدَّاخِلَةِ ضِمْنَ نِطَاقِ العَقْلِ مَعَ عَدَمِ خُضُوعِهَا لَهُ إِلَّا قَلِيلًا جَدًّا ، وَفِي الأَخْلَاقِ كَانَ يَتَطَرَّقُ وَهْمٌ كَبِيرٌ إِلَى كُنْتِ الَّذِى لَا تَزَالُ نَظَرِيَّاتُهُ العَقْلِيَّةُ تَسِيطِرُ عَلَى الدِّرَاسَةِ الجَامِعِيَّةِ ، وَكَانَ كُنْتِ يُسْتَنْبِطُ وَجُودَ حَيَاةٍ آخَرَةٍ وَوُجُودَ إِلَهٍ مُجَازٍ مِنْ ضَرُورَةِ المِكَافَاةِ عَلَى الفُضِيلَةِ وَالمَعَاقِبَةِ عَلَى الرَّذِيلَةِ .

وَالْحَقُّ أَنَّ القَوَانِينَ الأَخْلَاقِيَّةَ تَقُومُ عَلَى ضَرُورَاتِ اجْتِمَاعِيَّةٍ تَفْرِضُ قُوَّتَهَا عَلَى جَمِيعِ المَجْتَمَعَاتِ ، وَمِنْهَا المَجْتَمَعَاتُ الحَيَوَانِيَّةُ ، قَوَاعِدُ ثَابِتَةٌ قَسْرًا ، مَا دَامَتِ هَذِهِ القَوَاعِدُ تُمَثِّلُ شُرُوطَ الحَيَاةِ فِي المَجْتَمَعِ .

وَبِمَا أَنَّنِي عَاجِلْتُ هَذِهِ المَسَائِلَ فِي كِتَابِ آخَرَ فَإِنِّي أُكْتَفِي بِأَن أذْكَرَ أَنَّ الأَخْلَاقَ المُوَثَّرَةَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوجَدَ إِلَّا بِعَادَاتٍ لَا شَعُورِيَّةَ تَبْقَى مَبَادِيءُ المِزِيَّةِ وَعَدَمِهَا غَرِيبَةً عَنْهَا تَقْرِيبًا ، فَالرَّجُلُ الَّذِى يَجِدُ شَيْئًا فَيَرُدُّهُ بَعْدَ كِفَاحٍ بَاطِنِيٍّ فِي آخِرِ الأَمْرِ يُعَدُّ صَاحِبَ مِزِيَّةٍ ، وَلَكِنْ مَعَ اتِّصَافِهِ بِخُلُقٍ ضَعِيفٍ ، وَهُوَ إِذَا مَا رَدَّ الشَّيْءَ بِغَرِيزَتِهِ عُدَّ صَاحِبَ خُلُقٍ قَوِيٍّ ، وَلَكِنْ مَعَ عَدَمِ اتِّصَافِهِ بِأَيَّةِ مِزِيَّةٍ كَانَتْ .

وَيَجِبُ أَنْ يَهْدَفَ تَعْلِيمُ الأَخْلَاقِ إِلَى تَثْبِيتهِ حَسَّ الوَاجِبِ فِي مِئْطَقَةِ اللُّاشَعُورِ مَهْمَا كَانَ الحَالُ ، لَا أَنَّ يَاقُومَ عَلَى اسْتِظْهَارِ المَبَادِيءِ العَقْلِيَّةِ الَّتِي

يَنَدُرُ تأثيرُها في سلوك الإنسان^(١) .

ويستلزم اكتسابُ مبدأ الواجب ذلك نظاماً بالغَ الشدة في البُداءة ،
ويستقرُّ هذا النظام في مِنطقة اللاشعور بعد معاناته بجهدٍ ، وهناك يصبح
عادةً تُزاول بلا مشقة ويوجِّهُ الإنسانَ في مجرى جميع حياته .
ومن الصواب قولُ أحدِ أرباب الصنّاعة المشهورين في ألمانيا ، هِلْفَرِيخ ،
إن المدرسة والثُّكنة أوجبتا من عادات النظام والتدريب ما أسفَرَ عن قوة
ألمانيا وما يؤدي إلى نهوضها السريع في هذه الأيام .

* * *

ويتألف من الدساتير اُخَلْقِيَّةِ والعاداتِ عواملُ زاجرةٌ قادرةٌ على رَدْعِ
الإنسان عن الإذعان لاندفاعاته الطبيعية التي هي دليلُ سلوكه ، وتتجلى
أفضليَّةُ المتمدن على المتوحش في كون الأول قد نال في نهاية الأمر مجموعة
من رُدُودِ الفعل الزاجرةِ التي تُعلِّمُه أن يسيطر على نفسه وأن يُنظِّمَ حياته
على هذا الوجه .

ولا يوجد عند الأمم التي يُمكن أن توصف بالمتقلبة ، كالروس
وأُمّ البلقان مثلاً ، عنصرٌ ثابتٌ آخرٌ غيرُ ما يرمى من إرادةٍ مؤقتةٍ لدى

(١) يقوم استبدال التعليم العلماني بالتعليم الديني في المدارس على خطأ نفسي عرف معظم الأمم
أن يتخلص منه ، فالفتى يجد عناء كبيراً في التعقل قليلاً ، وبما أن الولد لا يتعقل مطلقاً فإنه لا يحوز
غير أفكار تلقينية .

ويعد وجود إله قادر عالم بأكثر الأعمال خفاءً زاجراً خلقياً للولد أشد فعلاً من جميع عقليات الأساتذة ،
ومتى اكتشف الولد مع العمر ما تنطوى عليه الأوهام الملاممة جيداً لصباه من قيمة عقاية ضعيفة أدرك كذلك
مقدار ما لها من تأثير عظيم .

رؤسائها القادرين على فرضِ قوانينهم ، فإذا ما توارى هؤلاء الرؤساء زالت الوحدة ، وبهذا تُفسَّر السرعةُ التي تَمَّ بها انحطاط الإمبراطوريات الآسيوية العظمى كما تَمَّت عظمتها .

* * *

وهل يُمكن الاعتماد على عمَل القوانين الزاجرة بلوغاً لثبات السلوك ؟ كان جوابُ التجربة سلبياً منذ زمن طويل ، حتى إن هذه القوانين الزاجرة تُعدُّ من أعظم أوهام العصر الحاضر خطراً ، والواقعُ أن الإحصاءات تدلُّ على أنه ليس لمؤيِّداتنا القضائية نتيجةٌ غيرُ إيجادِ أناسٍ من ذوى السوابق ، وهذا هو خلاف الغاية المنشودة .

ويميل مبدأ الضرورة بالتدرج إلى القيام مقامَ المبادئ القديمة التي قام الحقُّ القديم عليها ، فباسم الضرورة ، التي هي وليدة الخطأ الحديديّ مثلاً ، يَرى المالكُ نفسه مطروداً ، وباسم الضرورة أيضاً كونُ القوانين الآتية ستقتصر ، كما ذهبتُ إليه منذ زمن طويل ، على مؤيِّدين ، وها : أن يُحكَم في الجُرم الأول مع وقف التنفيذ ، وأن يُحكَم في الجُرم الثاني بالإبعاد إلى إحدى المستعمرات البعيدة ، وذلك لأن تسعة أعشار المجرمين ممن لا يُرَجى إصلاحُهم ، ولأن عدد أرباب السوابق يزيد بلا انقطاع فيزيدون خطراً بعد كل حُكْم .

* * *

وشأنُ التربية عظيم ، ولا سيما عند الأمم التي لم يستقرَّ مزاجُها النفسى بماضٍ طويلٍ بعدُ ، شأنُ المانية الحديثة مثلاً .

وإلى كتابي « روح التربية » أُحيل القارئ الذي يُعنى بهذه المسائل،
فيه يرى السببَ في كون التربية التجريبية التي انتحلها ألمانية وأمريكية أعلى
بمراحل من تربية الأمم اللاتينية المحزنة القائمة على مزاولة الكتب .
وقد حاولتُ استخلاصَ المبادئ التي تؤدي إلى إصلاح شخصية الطالب
فأبصرتُ وجودَ اثنين ، وهما : (١) التَّنَادِيَاتُ بالملاصقة ، (٢) إقامة
الانطباعات القوية ، ولكن مع قليلٍ تكرارٍ ، مقامَ الانطباعات الضعيفة
المكررة كثيراً .

وبما أن قيمة المذهب لا يُمكن أن تثبت إلا بالتجربة فإنني طبَّقتُ
المبادئ السابقين على ترويض بعض الحيوانات كالحصان الذي استطعتُ أن
أغيّرَ عادته على هذا الوجه ^(١) .

وكذلك سَيَرُ الأمم يقوم على المبادئ المذكورين آنفاً ، وليست الصعوبة
في معرفتهما ، بل في ممارستها ممارسةً صائبةً .

* * *

وينتشر مختلفُ عناصرِ الثبات التي لَخَّصناها سابقاً بفعلِ ذاتِ العاملِ
النفسيِّ ، أي العَدْوَى النفسية ، وهذه هي تلقينٌ مُعمَّمٌ من فصيلِ المَنوِّمين ،
ويَبْدُو شأنها في الحياة الاجتماعية عظيماً ، وهي إذ كانت موجدةً المشاعر

(١) عرضت تطبيق هذه المبادئ في كتاب عن الفروسية مشتمل على صور كثيرة خاطفة ، وقد
اعترف بفائدة هذه المبادئ الكولونيل بلاك بلير الذي يعد من أعظم المتخصصين بالفروسية في فرنسا ،
والذي كان رئيساً لمدرسة فرسان سومور في ذلك الحين ، فإليك ما قاله عن تلك المبادئ :

« أرى في هذا الكتاب أعظم محول ! . . . ففصل « الأسس النفسية للترويض » من الروائع ، ومن
لم يسترحوا القواعد التي يشتمل عليها لا يمكن أن يطمعوا في شيء من الفروسية . . . ويأتى هذا الكتاب نوراً
على تعليم فننا بإبداعه مناهج ستبقى ثابتة . . . » .

والأفكار فإنها تهيم على الطبائع والعادات والزيّ والرأى وأهمّ عناصر السلوك ، ولا يتخلّص أعلى ذكاء من تأثيرها دائماً ، وتنشأ نقائصنا وفضائلنا وعزائمنا عن ظاهرة التلقين بالعدوى النفسية غالباً ، وهي تسيطر على مجرى التاريخ .

الفصل السادس

النظم السياسية

مثلت النظم السياسية ، ولا سيما ما نشأ عنها من صراعٍ ، دائماً ، دوراً عظيماً في ثبات الأمم وفي انحلالها أيضاً .

وتدلُّ المشاهدةُ على أن هذه النظم تنشأ في الغالب عن بعض الضرورات العامة التي هي أعلى من العزائم بمراحل ، وكان سلطانُ الضرورة قد اعترف به من قبيل قدماء فلاسفة اليونان ، فكان هؤلاء الفلاسفة يعلمون الحقيقة المنسيّة اليوم غالباً والقائلة إن الأمم ليست حُرّة في اختيار نظمها ، ولكن مع اضطرارها إلى معاناة النظم التي يفرضها مزاجها النفسى والأحوال الخارجية .

وكان أرسطو يقول في كتاب « السياسة » بوجود صلة وثيقة بين أشكال الحكومة وحال المجتمع الاقتصادية والذهنية والخلقية التي دُعيت الحكومة لإدارتها .

وعند بوليب أن سُنّة التحولات السياسية هي من الثبوت كالسُنّة التي تسيطر على الحوادث الطبيعية ، وهل تنطوي هذه السُنّة ، كتطور الحياة لدى الفرد ، على زوالٍ نهائى يقابلُ الحكمَ الديمقراطيّ ؟ يؤيد أفلاطونُ هذا .

وإذا ما انتقلَ من العالم اليونانى إلى العالم الرومانى أُبصرَ شأنُ

الضرورة ، وأبصرَ ، أيضاً ، شأنُ الاضطرابِ الناشئِ عن تصادمِ المصالحِ ، ولم يَبْدُ نظامُ المدينةِ الرومانية قطُّ ديمقراطياً حقيقةً ، فَبَعْدَ حكومةِ ملكيةِ قصيرةِ الأمدِ حُكِمَ في رومة ، في خمسةِ قرونٍ ، من قِبَلِ سِنَاتٍ سَيَطِرُ على العوامِ المستعدين للعصيان في الغالبِ حُكماً مطلقاً ، ومع ذلك فقد نال العوامُ في نهاية الأمرِ حَقَّ تَقَلُّدِ جميعِ المناصبِ القضائيةِ ، وإحداثِ محامين للشعبِ دفاعاً عن حقوقه فيقابلون بالرفضِ كلَّ قانونٍ يَجِدُونَهُ جائراً .

ومع ما بذله الرومانُ من جهودٍ لم يستطيعوا منعَ المنازعاتِ الاجتماعيةِ ، وقد أدت هذه المنازعاتِ إلى ظهورِ طغاةٍ إمبراطوريين بعد مذابحٍ كثيرةٍ كذابحِ ماريُّوسِ وسيلاً .

* * *

يُحْكَمُ في العالمِ بالممكناتِ ، لا بالمبادئِ كما كان يعتقدُ مونتسكيو الذي قال عند ما تكلمَ عن الرومانِ : « كانوا يتمتعون بسلسلةٍ متصلةٍ من السعادةِ حينما حُكِمَ فيهم وَفَقَ خِطَّةٍ وثيقة ، وكانوا يقاسون سلسلةً من النوازلِ حينما سَيَّهَوْا إلى خِطَّةٍ أُخْرَى » .

وتختلفُ الضروراتُ التي تُعَيَّنُ نُظْمُ الأممِ ، وتتضمنُ الحياةُ الزراعيةِ والحياةُ الرِّعائيةِ والحياةُ التجارية والحياةُ العسكرية ، إلخ . ، نُظْمًا ملائمةً لمقتضياتِ هذه الأحوالِ المختلفةِ .

وإذا عَدَوَتِ النُّظْمُ التي هي وليدةُ ضروراتِ الحياةِ وجدتَ نُظْمًا أُخْرَى نشأت عن المعتقداتِ التي ظَهَرَتِ في مختلفِ أدوارِ التاريخِ ، فقد

حوّلت البُدْهيّةُ والإسلامُ والنصرانيةُ ، إلخ . ، نُظِمَ بعضُ الأممِ السياسيّةِ ،
ومن ثمّ مزاجها النفسى .

وقد أثّرتِ الفكرةُ النصرانيةُ في سِنِي القرونِ الوسطى الألفِ في
أدقِّ جزئياتِ الحياةِ الأوربيةِ ، وهناك كان يوجّهُ السلوكَ عنصرانِ
أساسيانِ : الفوزُ بجنّةِ زاخرةٍ بملأذٍّ أبديةٍ واجتنابُ عذابِ النارِ ، وقد
أسفرتِ هذه المناحى التى دامت طويلاً عن نُظْمٍ بلغت من القوةِ
ما وُحِّدَتْ به الأفكارُ والمشاعرُ والعزائمُ .

* * *

ومن أعظمِ مصاعبِ الحياةِ الاجتماعيةِ أن تلائمَ النُظْمُ ما ينشأ عن
الأحوالِ الخاصةِ من ضروراتٍ ملاءمةٍ تدريجيةٍ ، وبما رأيناهُ كونُ النظامِ
الإقطاعىِّ ، مثلاً ، قد صَدَرَ عن ضروراتٍ تاريخيةٍ مُتَجَبِّرةٍ ، ولا سيما
ضرورةَ الحمايةِ تجاهَ الوعيدِ الخارجىِّ ، فلما زالت الأحوالُ التى جعلت
ذلك النظامَ ضرورياً لم يَبْقَ غيرُ مساوئه .

وهكذا عَيَّنَ وَضَعُ الصَّنَاعَةِ الخاصُّ بالمدنِ الإيطاليةِ فى القرونِ الوسطى
ظهورَ النّقابيةِ ونشوءها ، وقد أسفرتِ مساوىُّ هذا النظامِ وصَوَلَاتُهُ عن
فوضىِ طويلةٍ المَدَى أدَّتْ إلى سقوطِ مختلفِ الجمهورياتِ بالتتابعِ ، ومنها
مُجْهَرِيَّةُ فلورنسةِ التى كانت أ كثرها ازدهاراً ، وقد خضعت هذه الجمهوريّةُ
لِنِيرِ آلِ مِدِيْسِيْسِ عن ضروراتٍ نفسيةٍ مماثلةٍ لتى ساقَتِ بعضُ الدولِ
الأوربيةِ حديثاً إلى معاناةِ نُظْمٍ دِكْتَاتُوريّةِ .

وضروراتُ الزمنِ أيضاً هى التى أوجبت فى القرنِ الخامسِ عشرَ انصهارَ

دُوِيَلَاتٍ فِي دَوْلٍ عَظِيمَةٍ كإِسْپَانِيَّةِ وَفَرَنْسَةِ وَإِنْكَلْتَرَةِ ، إلخ .
 وَمَتَى تَصَلَّبَتِ شَبَكَةُ التَّقَالِيدِ الْقَدِيمَةِ كَثِيرًا لَمْ يُمَكِّنِ تَحْقِيقُ الْمَلَاءَمَةِ
 قَطُّ إِلَّا بِثَوْرَةٍ عَنِيفَةٍ ، وَهَذِهِ هِيَ الْحَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا فَرَنْسَةُ أَيَّامِ ثَوْرَتِهَا
 الْكَبْرَى ، فَبِمَا أَنَّ الْمَلَكَِيَّةَ السَّابِقَةَ الَّتِي قَامَتْ بِضَمِّ دُوِيَلَاتٍ مُخْتَلَفَةٍ ،
 كَبُورْغُونِيَّةِ وَبَرِيْتَانِيَّةِ وَالْبُرُوقَنْسِ ، إلخ . ، حَازِتُهُ كُلُّهَا مِنْهَا طِبَاعَهَا
 وَعَادَاتِهَا ، وَلَقَّتْهَا أحيانًا ، فَإِنَّهَا لَمْ تَتَمَتَّعْ بِغَيْرِ وَحْدَةٍ مُفْتَعَلَةٍ فِي الْغَالِبِ ،
 حَتَّى فِي ظِلِّ نِظَامِ لُوِيْسِ الرَّابِعِ عَشَرَ الْإِسْتَبْدَادِيِّ ، فَكَانَ عَلَى الْمَلُوكِ
 أَنْ يَكْفَحُوا إِخْلَافَاتِ الْبَرْلَمَانَاتِ وَالْمَصَالِحِ الْحَلِيَّةِ ، إلخ . ، بَلَا انْقِطَاعِ .
 وَكَانَ تَوْحِيدُ بَلَدٍ بِالْغَيْرِ هَذَا الْمَقْدَارَ مِنَ الْإِنْتِقَامِ عَمَلِ الثَّوْرَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ
 الْأَسَاسِيَّ ، وَالْمُسْتَقْبَلُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي سِيَحْكَمُ فِي كَوْنِ نَفْعِ هَذَا التَّوْحِيدِ
 أَكْثَرَ مِنْ ضَرِّهِ ، هَذَا التَّوْحِيدِ الَّذِي أَدَّى إِلَى زَوَالِ مَرَاكِزِ الثَّقَافَةِ
 الْإِقْلِيمِيَّةِ ، وَيَلُوحُ أَنَّ الْمَرْكَزِيَّةَ أَمْرٌ حَسَنٌ مِنَ النَّاحِيَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ ، وَلَا
 مَرَاءَ فِي أَنْ تَعْدُدَ الْأَوْسَاطَ الذَّهْنِيَّةَ وَالْفَنِيَّةَ وَالتَّجَارِيَّةَ أَفْضَلُ مِنْ عَدَمِهِ مِنْ
 نَاحِيَةِ تَقَدُّمِ الْحَضَارَةِ ، وَكَانَ مِنْ عَوَامِلِ الْقُوَّةِ الْبَالِغَةِ فِي أَلْمَانِيَّةِ أَنْ حَافِظَتْ ،
 حَتَّى فِي زَمَنِ السَّيْطَرَةِ الْإِمْبَرَاتُورِيَّةِ ، عَلَى مَرَاكِزِ الثَّقَافَةِ الْمُسْتَقِلِّ بَعْضُهَا
 عَنْ بَعْضٍ اسْتِقْلَالًا تَامًا .

* * *

وَمَتَى اكْتَسَبَتِ الضَّرُورَاتُ التَّارِيخِيَّةُ الْمَوْلَدَةَ لِلنَّظْمِ السِّيَاسِيَّةِ بَعْضَ
 الْقُوَّةِ أَصْبَحَتِ الْحَوَادِثُ الْعَرَضِيَّةُ غَيْرَ ذَاتِ تَأْثِيرٍ كَبِيرٍ .
 وَمَا كَانَ شَارْلُ الْمِقْحَامُ لِيَمْنَعَ بُورْغُونِيَّةَ مِنْ أَنْ تُصَيَّرَ فَرَنْسِيَّةً ، وَلَوْ

قتل لويس الحادى عشر المعتقل فى بيرون ، فالضرورات العامة كانت تحمل جميع الدول الصغيرة فى ذلك الحين على ابتلاعها من قبل جاراتها الأكثر منها قوة .

وإذا كانت الحركة نحو الوحدّة لم تُحقّق فى إيطاليا وألمانيا إلا بعد ثلاثة قرون فقط فذلك لأنه كان لا يوجد فى هذين البلدين المجزأين سلطة بالغة من القوة ما تستطيع أن تصبح معه مركز جذب .

وتدلّ الأمثلة السابقة وما إليها على أن حياة الأمم السياسية تبقى خاضعة لضرورات عامة تسيطر على التاريخ فى الحقيقة ، وإن كان من الممكن أن تعانى بعض المؤثرات العابرة .

وكذلك يجب أن تُذكر مجارى الآراء الجماعية ، أى عزائم العدد ، بين تلك الضرورات الموجدة للنظم السياسية ، واليوم تُصبح هذه المجارى قوية شيئاً فشيئاً ، فتقلب النظام السياسى فى فرنسا تنشأ منذ ١٥٠ سنة عن تموجات رأى الكبرى .

* * *

وتكشّف دساتير الأمة المدوّنة عن شىء قليل من حياتها السياسية الحقيقية على العموم ، وتجد لمُعظم الجمهوريات الإسبانية الصغيرة بأمرىكة نظماً سياسية قريبة جداً من نظم الولايات المتحدة ، ومع ذلك تفصل هوة بين وضع جزأى العالم الجديد ، فترى الفوضى من ناحية ، وترى السعادة النامية من الناحية الأخرى .

ويدلّ هذا المثال وما إليه على أن تطبيق نُظْمِ الشَّعْبِ السِّياسيةِ ،
لا هذه النُظْمِ ، هو الذى يجب أن يُعرَفَ .

وتَغْيِبُ دراسةُ الحقائق المستترة تحت الظواهرِ عن المؤرخين فى الغالب ،
وأمسٍ فقط اكتشف رُقباه نَفَّاذُونَ فى الأمريكيتين ، مثلاً ، فروعاً نفسيةً
مَنكورةً تماماً ، فهناك أمكن أن يُعرَفَ مقدارُ اختلافِ مبادئ الولايات
المتحدة السياسية والاجتماعية عن مبادئ الجمهوريات اللاتينية الجنوبية على
الرغم من بعض المشابهات .

وإذا كنا قد اخترنا حالَ الأمريكيتين الخاصَّ فذلك لأن هذا الحال
يُعدُّ مثلاً بارزاً على الأغاليط التى يُمكن أن توتى عند الاقتصار على
دراسة النُظْمِ السياسية فى الكتب بدلاً من أن يُبحث عن الوجه الذى
طبقت به .

ولم تُعرَفَ أوربة ، بعدُ ، أن تُحقَّقَ ، كالولايات المتحدة ، جعلَ النُظْمِ
القديمة ملائمةً للضرورات الحديثة ، وذلك لبقائها خاضعةً لقوى وراثيةٍ
ولأوهام النظرين التى تصادم ما يقيّد الحياةَ العصرية من تطورٍ اقتصادى .

* * *

ومع أن النُظْمِ تنشأ عن ضروراتٍ مستقلةٍ عن العقل كثيراً فى بعض
الأحيان فإن كثيراً من المفكرين فى البلاد اللاتينية يظنون قانعين بأن المنطق
العقلية ينطوى على قدرةٍ إصلاحية .

وأمسٍ فقط زلزل هذا الاعتقاد قليلاً ، ومن ذلك أن أحد رؤساء وزراءنا ،
الذين يُعدّون من أكثر أقطاب السياسة نفوذاً فى هذا الزمن ، قد أعرب

بالعبارة الآتية عما تمَّ في نفسه من تطورٍ حول هذه المسئلة الأساسية :
 « أُراني ، بعد أن عِشْتُ في المُطَاقَ زمنًا طويلًا ، مضطرًا إلى الاعتراف بأن السياسة لم تكن غيرَ ملاءمةٍ لقتضيات الوقت ، وقد انطلقتُ من المنطق الخالص فانهيتُ إلى بَصَرِي بأنه خالٍ من كلِّ تأثير في الحياة ، وفي الغالب يؤدي المنطق الخالص إلى حبوطٍ جليٍّ ، فلا تَجْرِي الأمورُ كما يُشيرُ العقل ، وتكون نهايةُ العالمِ في اليوم الذي يسيطر العقلُ فيه على العالمِ على ما يحتمل ، وذلك لأننا نَسِيرُ باندفاعاتِ شَهَوَاتِنَا ، وليس العقلُ إلاً وميضًا باردًا لا يَحْفَزُ إلى العملِ . »

حتى في حقل العلم يُعَلِّمُ هذا الرأى حَوْلَ شأنِ العقلِ من قِبَلِ رجالٍ من ذوى الفضل ، وإليك ما كتبه إلى هنرى پوانسكارِ به الشهيرُ عن هذا الموضوع :

« لا يوجد برهانٌ عقليٌّ يُمكنُ أن يَنْفِذَ كُنْهَ الأشياءِ ، فترى المنطقَ صالحًا لأسانذة المدرسة . »

ثم إن المشاكل التي تُعْرَضُ على رجال السياسة في كل يومٍ لا تُحَلُّ بالبراهين العقلية ، وكيف تُثارُ ، مثلًا ، مسئلةُ نشوء الرأى واستعجاله وزواله ؟ وكيف يُسْتَبَدَلُ عنصرٌ عاطفيٌّ بآخرٍ ؟ وما وسائلُ التأثيرِ في الإرادة غيرِ الشاعرة للأفراد والأمم ؟

وتكون الكتبُ الكلاسية^(١) صفرًا تقريبًا حَوْلَ هذه المسائل ، ولا تَصْلُحُ المبادئ التي تعلّمها لغير الرسائل المعخفلية التي لا تؤثرُ في الجموع ،

ويجب أن يقوم فنُّ الحكم على مخاطبة العوامل الوجودية والجماعية والعاطفية التي تقود الناس وعلى قلة مخاطبة العقل الذي يندُرُّ رجوعُ أعظم سادة العالم إليه ، فهؤلاء السادة كانوا يعمّون بغيريتهم أن العلم وليدُ العقل وأن المشاعر والمعتقدات هي التي أوجدت التاريخ .

ولا تشاهدُ نتائجُ النُظم السياسية حالاً ، وذلك لأنها تصبح عِللاً بدورها بعد أن كانت معلولاتٍ ، ومن ذلك أن قُررَ في عهد هنرى الرابع دَفْعُ أعضاء البرلمانات ضريبةً سنويةً إلى الملك تجعلُهُم أصحاباً لمنصبهم ، فلم يلبث هذا أن أسفر عن إمكانهم توجية اعتراضاتٍ كثيرةٍ إلى قرارات السلطة الملكية .

والوقائعُ التي من هذا النوع كثيرة ، فلما جعلت النُظم الديمقراطية أمرَ الخدمة العسكرية عامّاً أدت إلى مذابحٍ أعظمٍ بمراحلٍ من التي سبقها سفكاً للدماء .

* * *

قد يُلوح من مُبتدلاتِ التاريخ أن يقال إن النُظم السياسية إذ تسيطر على حياة الأمم يجب أن تكون ملائمةً لمزاجها النفسى ، وعلى العكس تدلُّ الملاحظة على أن هذه الحقيقة الجوهرية كانت مجهولةً كثيراً لدى كثيرٍ من رجال السياسة الذين عهدَ إليهم في تدير شؤون الأمم ، وجهلٌ مثلُ هذا أدى إلى اكتواء الأمريكيين بحرب الانفصال الهائلة ، وهو يهدد فرنسا بضياغ مستعمراتها .

ولم يستطع شئٌ بعدُ أن يضعع الوهمَ الهائل الذى يسوقنا إلى فرض

ما يسميه النظريون « نِعَمَ الحضارة » على الأمم التي ثبتت طباعها وعاداتها في ماضٍ طويل .

والأمثلة كثيرةٌ منذ زمنٍ على الفعل المُخَرَّب الذي يُمكنُ أن تصاب به أمةٌ باعتمادها مُنظماً سيئاً الملائمة لمزاجها النفسى ، فإذا عدونا الحرب الأهلية التي ما انفكت تَقَلِّبُ الصين رأساً على عَقَبٍ منذ سنين كثيرة ، هذا البلدَ الإقطاعى منذ القرنِ الثانى عشرَ ، هذا البلدَ الذى يحاولُ انتحالَ نُظْمِ القرنِ العشرين ، وَجَدْنَا مثلاً مُجمهورية هائيتى الزنجية من أبرز الأمثلة على ذلك ، فقد أدى اعتناقها النُظْمِ الأوربية إلى تعاقب أعمال النهب والقتل والتخريب فيها ، وكاد ذلك يَقْضِ على أمةٍ بلغت درجةً كبيرةً من اليُسْرِ فيما مضى لو لم يتدخل الأمريكيون فى الأمر أخيراً لِيُعِيدُوا الأمانَ إلى نصابه بعضَ الإعادة بين هذا الاضطراب وَيَحْمِلُوا دون رجوع الجزيرة إلى حالها الوحشى .

حتى إنه إذا ما وَقَفَ عند الناحية العملية حَضراً يَرى مقدارُ الفائدةِ فى معرفة الأُسُسِ النفسية للنُظْمِ السياسية التي تستطيع أن تلائم الأمةَ ، وذلك أن المجتمعاتِ أجهزةٌ مُعَقَّدةٌ كالموجود الحى ، وأن من الضلال أن يحاول ، كما لا يزال بعض النظريين يحاول ، تغييرها بقوة المراسيم ، فليست القوانينُ الإصلاحيةُ التي تُصَوِّتُ لها البرلماناتُ على عَجَلٍ غيرَ تَبَلُّرِ الأوهام تَبَلُّراً وقتياً خَطِراً فى الغالب .

البَابُ الْخَامِسُ
العَنَاصِرُ الَّتِي تَجَلُّ بِهَا حَيَاةُ الْأُمَّةِ

الفصل الأول

زوال المعتقدات

نَبِّينَ باختصارٍ كيف تنتهى العناصرُ التى تُبَيَّنَتْ إلى الانحلال بعد أن دَرَسْنَا العواملَ التى تَثْبُتُ بها الذاتياتُ الفردية والجماعية .

وفى المرتبة الأولى من عوامل الانحلال يأتى المعتقد الذى قامت عليه وحدةُ الأممِ النفسيةُ .

ولِمَ تستحوذُ المعتقداتُ على النفس فى بعض الأحيان فتسيطر عليها سيطرةً تامة ، ولِمَ تعانى السُّنَّةُ العامةُ التى تَحْكُمُ على المادى وغيرِ المادى بالذُّبُولِ ثم بالزوال بعد زمن ؟

تدلُّ التجربةُ على أن المعتقداتِ تَهِنُ مع الزمن ، ولكن يجب ، لكى تَحْسُرَ سلطانها على النفوس ، أن يَظْهَرَ إيمانٌ حديد ليقوم مقامها .

ويَظْهَرُ سَيْرُ هذا التطورِ واحداً فى كلِّ حين ، ويؤول سلطانُ الإيمانِ البالغِ القوةِ فى البُداءِ إلى الضعف والأفول بالتدرجِ حتى الزمنِ الذى لا يَبْقَى من المعتقدِ الأصلِىِّ فيه غيرُ الطقوسِ والرموز ، وعلى ما يَبْدُو من دوام احترام المعتقد القديم يكون هذا المعتقد قد خَسِرَ النفوذَ المُوجِّهَ فى الحقيقة ، وهناك يُمَكِّنُ أن يَنْبُتَ معتقد جديد على أنقاض المعتقد الذى عاد لا يَظْهَرُ منه غيرُ الذكري .

ومن الممتع بيانُ عَجْزِ العقل في تكوينِ المعتقدات وتطورها ، وذلك لأنه يؤدي إلى تصحيح بعض الأوهام التاريخية ، ولا يزال كثيرٌ من الكتاب يرون أن كُتِبَ الفيلسوفين ، قُولَتير ورُوسو ، وغيرها زَلَزَلت الإيمانَ الدينيَّ في نفس المؤمنين حَوَالَى دَوْرِ الثورة الفرنسية ، فمن المشكوك فيه حقاً أن تُحوَّل جميعُ كتبهم مؤمناً واحداً إلى مُلحد ، وما كانت هذه المؤلفات لتؤثِّر في غير النفوس التي عاد إيمانها الظاهرُ لا يكون في غير مزاوله العبادة خارجاً . وتصلحُ ظاهرةُ وهنِ الإيمانِ الدينيِّ هذه لإدراك السبب في عدم فائدة معارضة المعتقدات السياسية ، التي بلغت من الشدَّة ما تُوَلَّفُ معه ديناً ، بالمعتقدات القديمة ، فالمعتقداتُ الماضية لا يعود شبابها إليها .

والآن تُوجَدُ أوربة الحديثة في دورٍ من أدوار التاريخ العرَجِة المشابهة لأوائل النصرانية حين أخذت الوثنيةُ وهذا المعتقد الجديد في الاضطراع . وإذا كان العقلُ غيرَ مؤثِّرٍ في المعتقدات الشعبية فهل كان يُمكنه أن يؤثِّرَ في أناسٍ بلغوا من الثَّقافة ما يستطيعون معه أن يُحملوا إيمانهم ؟ نجدُ الجوابَ عن هذا السؤال في الأمر القائل بتقبُّل كثيرٍ من أفاضل العلماء قِصصاً دينيةً على أنها من الحقائق التي لا يجادل فيها مع أنه لا يستطيع عقلٌ أن يدافع عنها .

وبين هؤلاء العلماء الذين حنَّتْ معتقداتُ زمنهم ظهورهم لا يُمكنُ أن يذكُر غيرُ پَسْكالَ الذي حاول أن يجادل في الإيمان بعقله ، فخرَجَ الإيمانُ ظافراً من هذا الصراع ، وذلك أن هذا المفكرَ الشهيرَ وَطَّنَ نفسه أخيراً على عدِّ الأَقاصيصِ الدينية ، التي كان يجبُ أن يُوهِنَهَا الزمن ، من

الحقائق ، ولكن مع كونها تُتمثلُ في عصره حقائقَ خالدةً .
 وهل يستطيع معتقدٌ دينيٌّ أو هُنهَ الزمن أن يتحول إلى معتقدٍ عقليٍّ ؟
 لا يأتي التاريخُ بغير مثالٍ على مثل هذا التحول ، وهذا هو الذي أتمته
 البروتستانتية عندما اتخذت الطورَ العقليَّ كما يُسمَّى ، فقد رُفِضَ في تطور
 النصرانية الأخير هذا مبدأ وجودِ إلهٍ يدعُ ابنه يَهْلِكُ في الآلام تكفيراً عن
 خطايا مخلوقاته ، وقد أضع يسوعُ أصله الإلهيَّ وعاد لا يُعدُّ غيرَ معلمٍ بشَرٍ
 بحقائقٍ نافعةٍ ، والنصرانيةُ ، بعد أن تحوّلت على هذا الوجه ، عادت
 لاتكون ديناً في الحقيقة ، وصارت لاتلائمُ الرغائبَ الوجديّة في النفوس
 التي تُقلِّبُها الحاجةُ إلى الإيمانِ بعالمٍ قادمٍ أكثرَ صلاحاً .
 وما كان أشدَّ الاضطهادات ليزلزل المعتقداتِ ، وما كانت الاضطهاداتُ
 لتؤدّى إلى غير تقويتها ، وقد أتيتُ بأمثلةٍ بارزة على أوائل الإصلاح
 الدينيِّ .

ولو دُعِيَ الشيعيون في بقعةٍ ما من بقاع العالم إلى مكابدة العذاب
 الذي فرضه زيرونُ على النصارى لاتسَع نطاقُ الإيمانِ الشيعيِّ بأسرع مما
 يتفقُ له اليومَ لاريب .

* * *

وفي الجُمَل الآتية يُمكن أن تُتلخّص المبادئُ النفسية التي تسيطر على
 نشوء المعتقدات سواء أدينية كانت أم سياسية أم اجتماعية :
 (١) إن الحاجةَ إلى معتقدٍ لتوجيه الأفكار والسير هو من التَّجَبُّرِ
 والقوة كالجوع والحبِّ .

(٢) إن الإنسان ، وإن كان يُغَيَّرُ اسمَ آلهته أحياناً ، يستمرُّ على السيطرة عليه ما سيطر عليه دائماً من العوامل الوجودية .

(٣) يَمِيلُ الإنسان العصريُّ إلى استبداله بالأوهيات الشخصية السابقة عقائدَ وصيغاً عَزِيَّ إليها ما لهذه الأوهيات من قدرةٍ سحرية ، وما تنطوى عليه هذه العقائدُ الجديدةُ من صحَّةٍ ليس أعظمَ مما تنطوى عليه المعتقداتُ القديمة على العموم .

(٤) لا تقوم المعتقدات الدينية والمعتقدات السياسية ذات الشكل الدينيُّ على العقل ولا يُمكن أن تزول بالعقل .

(٥) تقوم المعتقداتُ بالتلقين المُستقَّ من النفوذ والتوكيد والتكرار ، وتعدُّ العدوى النفسيةُ أهمَّ وسيلةٍ لانتشارها .

وَيُمْكِنُ أن يقال ، كنتيجةٍ ، إن نفوذ الأشباح الإلهية التي عمَّرت السماء ، وإن نفوذ الأوهام التي تَمِيلُ اليوم إلى القيام مقامها ، مما يدلُّ على كَوْنِ غيرِ الحقيقيِّ يُمثِّلُ في التاريخ دوراً له من الأهمية ما للحقيقيِّ ، فبتأثير غيرِ الحقيقيِّ ظهرت حضاراتٌ عظيمة من العدم وآلت أخرى إلى العدم ، فغيرُ الحقيقيِّ أنعم على الإنسان بوهمٍ في السعادة الأبدية التي لا تَمَنَحُه الطبيعة القاسية إياها ، ولولا قدرته لظَلَّت البشرية غائصةً في وحشية خالدة .

أَجَلُ ، استطاع العلمُ أن يُدخِلَ الإنسانَ إلى دائرة الحقيقيِّ بعد جهود قرونٍ ، بيدَ أن غيرَ الحقيقيِّ لا يزال يَغْمُرُه ، وقد خَرَجَ التاريخُ الحديثُ من الصِّراعِ بين الحقيقيِّ وغيرِ الحقيقيِّ ، وأقول مُكرِّراً إن غيرَ الحقيقيِّ المهيمنَ على أفكارنا ومعتقداتنا وأحلامنا يَظَلُّ من أعظمِ مُوجدِي الحقيقيِّ .

الفصل الثاني

الأوهام السياسية

يُظَهَرُ الصِّراعُ بينَ مُختلفِ المُثُلِ العِليا في المِرتبةِ الأولى من عِواملِ انحلالِ حِياةِ المِجتمعاتِ .

وقد رأينا أن المُثُلَ العِليا القادرةَ على تِوجيهِ حِياةِ الشَّعبِ لا تَدومُ في كُلِّ وِقتٍ ، فهِ تَحسُرُ سُلطانَها على النِفسِ في آخِرِ الأَمْرِ على الخِصوصِ لِما تَعُودُ غيرَ مِلائمةٍ لِلاضِروراتِ الناشِئةِ عن تِطورِ العِالمِ بِاستمرارِ ، وتُولدُ أوهامٌ جَديدةٌ تصِطِرعُ معِ الأوهامِ المِاضيةِ التي حِافظتِ على نِفوذِها بفِعلِ الوِراثةِ ، وقد قَلَبَ هِذا الصِّراعُ النِفسِ أوريبةً منذِ ١٥٠ سِنةٍ .

وكانَ تاريخنا الخِصاصُ المِترجِحُ بينِ الثِورةِ الفِرنسيةِ وأيامنا نِزاعاً مِستمرّاً بينَ مُختلفِ المُثُلِ العِليا ، وكانَتِ نتائِجُهُ الأولى ظِهورَ دِكتاتورٍ لا بُدَّ مِنْه لِإِعادةِ النِظامِ ، ثمِ اشِتعالِ حِروبِ عِشرينَ عامّاً بينِ الأُمِّ المِدافِعةِ عن مِثْلِها الأَعلى القِديمِ وُحِمةِ المِثْلِ الأَعلى الجَديدِ .

وقد دامَ النِزاعُ على الرِغمِ من مِوتِ الفاتِحِ مِمثلاً لِخِيالِ الثِورةِ ، وما وِقعَ مِنْ إِعاداتٍ لِلنِظْمِ لِمَ يُفِليحُ في تِثبِيتِ المُثُلِ العِليا السِياسيةِ ، وظَهَرَ ، بَعدَ انقِلاباتٍ إِجتماعيةٍ أُخِرى نِشأتِ عن بِلْبلةٍ في النِفسِ ، دِكتاتورٌ جَديدٌ هِتفتِ لِه

سبعة ملايين صوتٍ ، وهو إذ لم يَعْرِفِ اجتنابَ العمَاياتِ النفسية التي ذهب أسلافه ضحيةً لها شاهدَ ختامَ دَوْرِهِ بحربٍ طاحنةٍ يجب أن يُبَصَّرَ أصلها في العلل البعيدة للمذابح العظيمة التي عاناها العالم .

* * *

ويتألف من أغاليط معاهدة الصلح التي خُتِمَتْ بها الحربُ الأخيرة مثالٌ بارز على ما يُمكن أن يكون للأوهام النفسية من نتائج في حياة الأمم ، وليس من غير المفيد أن يُبْحَثَ في تكوينها .

كان جهلُ حالِ ألمانيا السياسية تاماً ، وكان هذا البلدُ العظيمُ يُعدُّ إمبراطوريةً وُحِدَتْ تماماً ، مع أنها كانت تُؤَلَّفُ ، في الحقيقة ، من ممالكٍ مختلفةٍ أُلِّفَ بينها دفاعٌ مشتركٌ لِحِينٍ .

ثم إن امتزاج مختلف الدول في إمبراطوريةٍ واحدة لم يَقَعِ إلا عَقَبَ الانتصاراتِ الجِرمانية التي تَمَّتْ سنة ١٨٧١ ، فقد تذرَّع بسماركُ بنفوذه فنال في ذلك الحين موافقةَ ملوكِ الممالكِ الألمانية ، بقرارية وسكسونية ووُورْتِنسِرغ ، إلخ . ، على تأليف اتحادٍ يرأسه ملك بروسية ليقوم بإدارة المصالح العسكرية المشتركة بين جميع هذه الدول على الخصوص .

وما كان هذا النظام لِيَحْرِمَ البلادَ المتحدةة استقلالها مطلقاً ، ولكنه كان يَضَعُها في الأعمال الحربية وقليلٍ من الشؤون العامة تحت إدارة ملك بروسية الذي اتخذ في البداية لقبَ إمبراطورِ ألمانيا الفخرى فقط ، وكانت كلُّ واحدةٍ من الدول المتحدة تحتفظ بوليٍّ أمرها وبوزرائها وإدارتها ، أي باستقلالها الذاتي ، وأراد بعض هذه الدول ، كبقارية ، أن يدلَّ على استقلاله جيداً

فداوم على تمثيله في الخارج بمفوضين دبلوماسيين^(١).

ومن الطبيعي أن يوسع الإمبراطور، الذي لم يكن غير مدير للمصالح المشتركة، سلطانه بالتدريج، كما يقع في أحوال ممانلة، فأصبح سيداً ألمانية الوحيد في أثناء حرب سنة ١٩١٤ لمدة القتال على الأقل.

وفي البداية قصر سلطانه على تفوق بسيط فاحتل بلاحماسة في كل وقت من قبل الدول المتحدة، حتى إن كثيراً من هذه الدول، ولا سيما بقرية، أبدى ثانی يوم الهدنة ميلاً جلياً إلى الانفصال.

ولو كان الحلفاء يذكرون وضع ألمانيا السياسي الحقيقي حين كتابة معاهدة الصلح لأيدوا هذه الميول، ولوفاوضوا مختلف الدول الجرمانية على انفراد وفق شروط تختلف باختلاف هذه الدول لاجتنبوا من فوزهم وجود ألمانيا موحدة متوعدة أمامهم.

ولاريب في أن الدول التي وحدثت بروسية بينها موقتاً كانت تهدف إلى الوحدة في آخر الأمر، غير أنه كان لا بد من انقضاء زمن طويل يهمل في أثناءه كل أمل في الانتقام بحكم الضرورة.

وبعد أن ساعدت الدبلوماسية الأوربية على قيام مركزية كان يجب أن تؤجل حدوثها أساءت إلى نفسها كثيراً بمنعها ألمان النمسة من الانضمام إلى ألمانيا، فلا بد من وقوع هذا الانضمام الذي يطالب به المغلوبون باسم مبدأ القوميات الوهمي الذي نادى به الغالبون، وسيقع هذا بالتدريج، ومن غير عنف، حينما تُلغى الجارك بين البلدين ويوحد ما بين مصالحهما المشتركة،

وهناك تَدَمَّجُ الجُمهوريةِ النمسويةِ في الإمبراطويةِ الألمانيةِ معِ محافظتها على استقلالِ ذاتيٍّ ظاهرٍ ، وذلك كما اتَّفَقَ تماماً لبقاريةِ وسكسونيةِ ووُرْتِنْبِرِغِ ، إلخ . ، التي تولِّفُ اليومَ جزءاً منها .

وعندما يتمُّ هذا الضَّمُّ تكونُ ألمانيةٌ قد نالت كثيراً بالحرب مع أن جميع بلاد أوربة خَرِبَتْ بهذا الصراعِ الهائلِ .

ومما يلاحظُ مع ذلك أن النمسة الفخورةَ باستقلالها كانت لا تُفَكِّرُ في الانضمامِ إلى ألمانيةٍ مطلقاً لو لم يُجرِّدْها صانعو معاهدةِ الصلحِ من أجل ولاياتها لتتألفَ منها ممالكٌ منفصلةٌ .

ومن النتائجِ القريبةِ أو البعيدةِ لمبدأِ الحلفاءِ الضارِّ الذي صَدَرَ عن أوهامهم النفسيةِ إحداثُ دُوِيَّلاتٍ متنافسةٍ راغبةٍ في التوسعِ على حسابِ جيرانها ومُعَدَّةٍ لأوربةِ حروباً جديدةً بذلك ، وذلك فضلاً عن تَوَسُّعِ ألمانيةِ بضمِّ النمسةِ إليها .

ويُعَدُّ تقسيمِ النمسةِ إلى ممالكٍ منفصلةٍ باسمِ مبدأِ القومياتِ مثلاً على الخطأ الذي يُقْتَرَفُ بتطبيقِ مبدأِ سَيْرٍ على أدوارٍ من التاريخِ لا قيمةَ له في غيرِ أدوارٍ أخرى ، وكان يُمكنُ أن يُلجَأَ إلى مبدأِ القومياتِ فيما مضى ، ولكنه قام مقامه منذ قرونٍ كثيرةٍ مبدأٌ أكثرُ ملاءمةً للحاجاتِ الجديدةِ ، أى مبدأُ جمعِ الدولِ الصغيرةِ ضِمْنَ دولٍ كبيرةٍ .

ولو كان الألمانُ غالبينَ لأمكنهم أن يَزْعُمُوا ، باسمِ مبدأِ القومياتِ ، أن بريطانيا وِنُورمانديةِ وأُفْرَنْسيةِ وِبُورْغُونيةِ ، إلخ . ، إذ كانت تشمل على عروقٍ مختلفةٍ وجب أن تولِّفَ دولاً مستقلةً ، وبذلك تكون فرنسا قد

قُسمت كما وَقَعَ للإمبراطورية النمساوية في الوقت الحاضر .

* * *

ومن بين الأمثلة على نفوذ الأوهام النفسية في التاريخ يُمكن أن تُذكر السياسة التي اتبعتها أوربة نحو تركية ، هذه السياسة التي تظهر بين علل الحرب العظمى .

أجل ، ما قَبِيَ بعض ولايات شبه جزيرة البلقان ، كالبوسنة وبلغارية ، إلخ . ، يدَارُ ، منذ فتح القسطنطينية من قِبَل الترك ، بإدارةٍ عثمانية شديدة ، غير أن هذه الإدارة تتصفُ بملامتها تماماً لنفسية أهلها ، من أنصاف البرابرة ، الخاضعين لقوانينها ، والواقعُ أن تركية وُقِّتَ لإقامة سَلْمٍ تامٍّ بين أممٍ لم تُحلم في الماضي بغير تَدَابُجها وسلبِ بعضها بعضاً .

ولا جدالَ في هذه النتيجة ، بيد أنه كان يساور سياسيِّي أوربة ، الذين استحوذ عليهم تخاصمُ الصليب والهللالتقليديُّ من حيث لا يشعرون ، خيالُ نزعِ بعض الولاياتِ من تركية على الدوام ، وهكذا قبضت النمسة على البوسنة وقبضت إنكلترة على قبرس ، إلخ . ، وقد أصبحت ولاياتٌ أخرى ، كبلغارية وصرية على الخصوص ، مستقلةً .

واتبعت هذه الدولُ الجديدة عادةً أهل البلقان فلم تلبث أن اشتبكت في صراعٍ مع جاراتها ، وكان أقلُّ هذه الدويلات أهميةً يحاول نيل عون دولة كبيرة ، ومن ذلك أن صرية وضعت نفسها تحت حماية روسية فرأت هذه الدولة نفسها ملزمةً بتأييد تلك في نزاعها مع النمسة ، وهنالك اشتعلت الحرب التي لم يكن أحدٌ لِيَتَمَثَّلَ بها استمرار الترك على الحكم في البلقان .

إذَنْ ، قد انتهى سياسيو أوربة إلى النيجتين الآيتين بنزعهم من تركية ولاياتها بالتدريج : (١) انفجار الحرب الطاحنة الخربة لأوربة ، (٢) تَوَقُّعِ نشوبِ منازعاتٍ جديدةٍ بين دُوِيَّلاتِ البلقان التي أُقيمت على حساب تركية والتي هي من العجز التامِّ ما لا تَسُودُ معه سَلْمٌ كانت تتمتع بمثله أيام الحكيم العثماني . وقد استمرت أوهامُ أقطابِ الدول السياسية حِيالَ تركية على ما كانت عليه قَبْلَ السَلْمِ ، وقد أَمَلَ وزيرُ إنكليزيٍّ بالغُ القدرة أن يُطْرَدَ المسامون من أوربة نهائياً فأغرى بهم الأغارقة الذين كانوا يحتلون إزمير ، فلما أبصرت تركية ما يَحِقُّ بها من خَطَرِ المَخَوِ من خريطة العالم السياسية جَمَعَتْ ما بَقِيَ عندها من الكتائب وانتهت بعد قتال المستميت إلى طرد بُغَاة اليونان من أَرْضِها على الرغم من كثرة عددهم .

وقد تَوَجَّحَ هذا النصرُ الباهر بمعاهدةٍ لوازن المُخزِية لأوربة كثيراً ، والواقعُ أن هذه المعاهدة أباحت للترك أن يُخْرِجوا الأجنبيَّ من جميع المراكز التي يَشغُلونها في الإدارة العثمانية ، وأنها حرَّمتهم امتيازاتهم الأجنبية التي هي نتيجةُ عملِ قرونٍ كثيرة ، وهكذا تَعَدُّوا استنبولُ مدينةً تركيةً حَصْراً مع أنها عادت لا تكون كذلك منذ زمن طويل .

ومن ثَمَّ ترى أن أوهام الوزير الإنكليزيِّ السياسية أدت ، من حيث النتيجة ، إلى مَنَحِ تركية ، هذا البلدَ الذي قُهرَ في الحرب العظمى ، مركزاً ممتازاً ما كان ليناله من حلفائه الجِرِّمان لو خَرَجَ هؤلاء من هذه الحرب غالبين .

وتدلُّ الأمثلة السابقة دلالةً واضحةً على أن المدافع إذا كانت مُتَمَثِّلُ

دوراً عظيماً في حياة الأمم فإن من الممكن أن يَعدَّوْ دورُ الأوهام السياسية أكبرَ من ذلك أيضاً ، فتأثيرها الدائمُ من أكثر ما تُحَقِّقُه فلسفةُ التاريخ وفقاً للنظر .

* * *

ويتجلى اصطراع الأوهام السياسية ، أيضاً ، في النزاع بين الأُمِّية والقومية وفكرة الوطن التي تُشتقُّ منها .

تَنِمُّ الأُمِّيةُ التي يَحْلُمُ الطاغيةُ الأحمرُ بنشرها في العالمَ بأسره على خطأ فاحشٍ في علم النفس فضلاً عن الوهم السياسي نظراً إلى التباين العميق في مزاج مختلف الأمم النفسى .

وعلى العكس تَبَدُّو القومية ، التي هي نتيجةُ ما للأموات من سلطانٍ قوى على الأحياء ، آخرَ عنصرٍ قادرٍ على حفظ حياة الأمة ، فإذا ما قهرتها الأُمِّيةُ حُكِمَ على المجتمع ، الذي تكون القومية قد أُصِبت في صميمه بمثل ذلك الحبوط ، بالزوال من فورِهِ ، ولم يَحْدُثْ قَطُّ أن كان لُحْبُ الإنسانية في الأمة من القوة مثلُ ما يَمَنِّجُه حبُّ الوطن .

ولا رَيْبَ في أن الاشتراكيين الأُمِّيين يقولون موَكِّدين للعامل إن وطنه الحقيقيُّ هو طبقته ، وإن أفرادَ الطبقة نَفِسها إذ كانوا ذوى مصالحٍ واحدةٍ في مختلف البلدان فإن من الواجب أن يتحدوا فيما بينهم غيرَ مبالين بالحدود التي تَفْصِلُ بعضهم عن بعض ، ومع ذلك يكفي أن يواجَه بين ممثلي ذات الطبقة في مؤتمرٍ ، ولكن على أن يكون هؤلاء الممثلون من أمم مختلفة ، ليرى مقدارُ ما يَفْصِلُ بينهم من تباينٍ عِرْقِيٍّ ، ولسرعان ما يقضى تباينُ

المشاعر والأفكار هذا على المنافع المشتركة ، فلا يُعَمُّ أولئك أن يتباغضوا كثيراً عن عدم تفاهمٍ .

وإذا كان قد أمكن مجتمَعنا أن يدوم على الرغم من الفوضى الغارقِ فيها فذلك لأن عوامل الماضي تُتمسِك كيانَ المجتمع القديم على الدوام .

* * *

وتدلُّ هذه النظرةُ الحافظةُ في حياة الأمم على أن الأوهام ما انفكت تُتملُّ دوراً بالغ الأهمية في التطور الحديث كما في الماضي ، وما فتئت هذه الملكةُ الحقيقيةُ للتاريخ ، والسيطرةُ على الأفكار والعزائم ، تُسود العالم . وتقوم دراسة الماضي ، خاصةً ، على تفسير الأوهام التي ساستِ الأمم ، وعلى نتائج مصارعها للضرورات التابعة لطبيعة الأمور ، لا لإرادة الرجال .

الفصل الثالث

اصطراعُ المبادئ الحديثة في المساواة

وزيادة التفاوت في الذكاء

تُعَدُّ الحاجةُ إلى المساواة من مُمَيِّزَاتِ الزمنِ الحاضر ، والحقيقةُ هي أن هذه الحاجة قديمةٌ قَدَمَ الْعَالَمِ .

وَتَجِدُ هذه الحاجةَ باديةً منذ فجر التاريخ في قصة قَتْلِ هابيلَ من قَبْلِ قابيلَ الذي حَسَدَ أخاه على نصيبه ، ثم تُعَدُّ الحاجةُ إلى المساواة أهمَّ سببٍ في سقوطِ أعظم الحضارات ، ولا سيما حضارةُ اليونان والرومان .

واليومَ تَجِدُ هذا الميلَ الأصيلَ إلى المساواة في نزاعٍ صريحٍ مع مقتضيات التطور الحديث الذي يؤدي إلى تباين الناس بدلاً من تساويهم .

وإذا كانت المساواة سُنَّةَ الأمم الابتدائية فإن التفاوت نتيجةٌ لازمة لتقدم الحضارات ، واليومَ ترى مختلفَ طبقاتِ الأمة عينيها على درجاتٍ بالغةِ التفاوت ، والواقعُ أن المجتمع الحديث يتألف ، بسبب ارتقائه فقط ، من أناسٍ يُدَكِّرون بالأدوار المتعاقبة التي جاوزتها البشرية ، وهي : زمن المغاور والقرون الوسطى وعصر النهضة ، إلخ .

* * *

ومهما تكن قيمةُ مبدأ المساواة النفسية فقد صار أساسَ النُظْمِ الديموقراطية ،

وهو يُمثِّلُ دوراً عظيماً في السياسة الحاضرة .

ولما حَلَّتْ النصرانيةُ محلَّ السلطة الرومانية قام الأملُ في مساواةٍ سماويةٍ مقام الحاجة إلى المساواة الدنيوية لبضعة قرون ، وقد حَوَّلَ الإيمانُ بهذه المساواة القادمة حياةَ الأمم في جميع القرون الوسطى ، ومع ذلك فقد ذَوَّى هذا الإيمانُ بالتدريج فلاح الصراعُ الأبدىُّ بين الغنىِّ والفقير ، وبين القوىِّ والضعيف ، وبين القادرِ والعاجز ، ذلك الصراعُ الذي هَزَّ العالمَ كثيراً .

وتعدُّ الثورةُ الفرنسيةُ من أهمِّ المحاولات التي بُدِلَتْ للوصول إلى المساواة الاجتماعية التي سَجَّها التاريخ ، وإذ لم يَجْرُؤْ نظريُّوها على الجِدالِ في التفاوت الطبيعيِّ الواضح أمرُه فقد اكَتَفَوْا في البُداءة بتوكيدهم في « إعلان حقوق الإنسان لسنة ١٧٨٩ » : « أن الناس يُولَدُونَ وَيَبْقُونَ أحراراً متساوين في الحقوق » .

ولما حَلَّتْ سنة ١٧٩٣ تقدَّموا خُطوةً إلى الأمام فزعموا في تصريحٍ جديدٍ أذاعوه « أن جميع الناس متساوون طبيعةً » .

وأخيراً أُلْقِيَ مبدأُ المساواة في العالم فاستولى على النفوس شيئاً فشيئاً . ومن بين الشُّعارِ الثوريِّ : « الحرية والمساواة والإخاء » ترى مبدأُ المساواة وحدَه هو الذي استمرَّ على النموِّ ، ومبدأُ الإخاء ، وإن حافظ على شيء من النفوذ ، لم يَلْبَثْ أن أضاع قوته ، وقد داومت الأممُ ورجال السياسة على امتداحه مع أن تعاقب الحروب الكثيرة دلَّهم على موطن الخطر في اعتقاده .

وأما الحرية فقد نَزَع تقدم الحضارة منها، في كلِّ يومٍ، إمكانَ بقائها، فقد أُحيط الإنسانُ من مهده إلى لحدّه بشبكةٍ من الأنظمة والقَهْر والالتزامات تستعبدهُ مقداراً فمقداراً، وكلُّ رفاهيةٍ أوجدتها الحضارةُ تودّي إلى تعقيدٍ في الحياةِ جديدٍ، ومن ثمَّ إلى تعبيدٍ جديدٍ، وفي كلِّ يومٍ تعظُم مجموعةُ النظم والقوانين التي تُعطلُّ آخرَ ما بَقِيَ من قوةِ المبادرة، ومن شأنِ انتصار الاشتراكية الحكومية إزالةً كلِّ أثرٍ للحرية .

وفي اليوم الذي يُحقَّق فيه الاشتراعُ الخياليُّ بأكداسٍ من القوانين والأنظمة يظهرُ واضحاً ما بين مبدأ المساواة ومبدأ الحرية من تباينٍ عظيم .

* * *

وما فتئَ مبدأ المساواة بين أفراد الأمة الواحدة، وبين مختلف العروق أيضاً، يؤدي إلى كثيرٍ من الانقلابات .

فباسم هذا المبدأ، على الخصوص، اكتوت الولايات المتحدة بحرب الانفصال الأهلية التي اشتملت لإلغاء الرقِّ، وقد دامت هذه الحربُ أربعَ سنين، وكادت تقضى على تلك الجمهورية العظيمة، وفي ذلك الزمن، البعيد قليلاً على الخصوص، عدَّت جميعُ العروق متساويةً، وظلَّت الولايات المتحدة مُفتحةً الأبواب لأنواع المهاجرين، خلا الصينيين واليابانيين الذين يَعمَلون راضين بأجورٍ أقلَّ من أجور العمال الأمريكيين، فيقومون بمزاحمةٍ خطيرة، لأنهم من عروقٍ متأخرة .

ومما ذكرتُ سابقاً أن مديري السياسة الأمريكية رجَعوا اليومَ عن مبدأ المساواة القديم بين الناس، فهم قد انتهوا إلى الاعتراف بأن اختلاط العروق

المتفاوتة الذي لم تُدرِك أمريكا اللاتينية خطَرَه بَعْدُ كان مصيبةً على الأمة لتحديد مستواها في الحضارة حتمًا، واليومَ إذ اعترفَ ، عن تجرِبَةٍ ، بأن من المتعذر أن يُمثَلَ^(١) ملايينُ الزوجِ الثلاثة عشرَ الذين يقيمون بالولايات المتحدة فإنهم عَزَلوا عن البيضِ تمامًا .

* * *

ومن المُمتع ، كما هو واضحٌ ، أن تُعيَنَ الفروقُ التشريحية التي يُشتقُ منها ما يَفتَصِلُ بين الناس من تفاوتٍ نفسِيٍّ ، غير أن العلم لم يَبْلُغ من التقدم ما يَصِلُ به إلى هذه المعرفة ، ومع ذلك فإن من الثابت كما يَظْهَرُ كون الذكاء في العالم الحيوانيُّ على نسبةٍ ثَقَلِ الدماغ الموزونِ مباشرةً أو المستنبطِ من حجم الجمجمة ، وهكذا قُضِيَ بالبحث في أن نموَّ الذكاء في النوع البشريُّ يكون على نسبةٍ ثَقَلِ الدماغ .

وإذا أُهْمِلَ كثيرٌ من الشواذِّ لاح ثبوتُ هذه النسبة على العموم ، وقد أُتيحَ لي سابقًا أن أقابل في مُتَحَفِ باريسَ بين مجموعةٍ من جماجم مشاهير الرجال كبوالو ولافونتين وديكارت ، إلخ . فوجدتُ أن حجم دماغهم كان يختلف عن حجم دماغ الرجل المتوسط كاختلاف دماغ هذا الأخير عن دماغ القرد الكبير .

وبين الملاحظات التشريحية الممتعة ، التي جَمَعْتُها في مذكرةٍ خاصة ، يَبْدُو الأمرُ الآتي الذي أُلعتُ إليه في غضون هذا الكتاب ، وهو أن أفضلية أحد العروق الحقيقيةَ تقوم على حيازته عددًا من أرباب الذكاء الرفيع لا تحوُزه

العروقُ الدنيا ، ولو كَتَبَ النصر للبلشيفية في بلدٍ متمدن كبير فأدى ذلك إلى إهلاك جميع الأدمغة التي تجاوزَ المستوى المتوسط ، كما وقع في روسية ، لعاد هذا البلدُ إلى درجةٍ منحطةٍ من الحضارة في سنين قليلة .
وليس مبدأُ التفاوت النفسى بين العروق الذى قال به الأنغلو سَكْسُون هو ما عليه الأممُ اللاتينية مطلقاً .

وفى أمر هذا التفاوت بين مختلف العروق أثبتت المشاهدةُ إثباتاً كافياً كونَ كثيرٍ منها ، كالزنج والپوروج (الحمرُ) ، إلخ . ، لا يستطيع أن يجاوز مستوى مُعَيَّنًا من النِّقَاطة ، ويساعد انحطاطُ جُمهورية هايتى التى يَسْكُنُها الزنج حصراً على بيان كَوْنِ كلِّ عرقٍ لا يَقْدِرُ أن يَبْلُغَ غيرَ درجةٍ من الحضارة مناسبةٍ لدماعه .

* * *

وما انفكَّ شأنُ الذكاء يَعْظُمُ بما أوجبته الحضاراتُ الحديثة من تعقيدٍ فى العلم والصناعة ، وقد نشأ عن هذا وجودُ أهميةٍ للتفاوت الذهنىِّ أعظمٍ فى الوقت الحاضر مما كان له بدرجات ، وتصبِحَ الفروق الدماغيةُ بين الأفراد والعامل والمهندس ، مثلاً ، كبيرةً ، ولا يُمكنُ إلا أن تزيد ، والحقُّ أن المجتمعاتِ تَسِيرُ نحو تفاوتٍ متزايدٍ على الرغم من فوزِ المبادئ الديمقراطية ظاهراً .

وإذا كان هذا التفاوت لا يَبْدُو جلياً بعدُ فذلك لأن سلطانَ الجموع يُلبِقُ وهماً حَوْلَ قدرتها .

ومبادئ المساواة لم تحوّل السياسةَ الحديثةَ وحدها ، بل تُغَيِّرُ نظرياتِ

التربية أيضاً ، فيما أن التفاوت بين أفراد البلد عينه لا ينشأ ، عند نظريّ التربية ، إلاّ عن فروق التربية فإنه يَكْفِي ، لبلوغ المساواة ، أن يُنعم على جميع الأولاد بالتربية عينها ، فمن مثل هذا الوهم خَرَجَ مبدأ المدرسة الواحدة .

وتكون ألمانة أقرب إلى الحقائق كأمریکة فتُقدِّم ، بالعكس ، على تزويد الولد بتربية ملائمة لأهلياته النفسية .

وتنمّ مساواة النظريين الوهمية ، التي يزعمون أنها ترُدُّ جميع المواطنين إلى مستوًى واحدٍ ، على تهديدٍ بالانحطاط ، لا على حالٍ تقدُّمى .

* * *

وينطوى مبدأ المساواة البسيط نظرياً على عناصر معقدة ، ومتناقضة أيضاً .

والواقع أن الحقائق المستترة تحت هذه الكلمة إذا ما حلّت أبصر أن مبدأ المساواة يفتقرُ باحتياجٍ شديدٍ إلى التفاوت على العموم ، فأرضاه هذا الميل المضاعف من أعظم المصاعب التي تقرّعُ الحكوماتِ ، ولم تمضِ أعوامٌ كثيرة بين الزمن الذي كان رُوْبِسْپِرُ يساوى فيه بين الناس تحت ساطور المِقْصَلَةِ والزمن الذي أعادت الإمبراطورية فيه ألقابَ الشرف .

وكان نابليون على علمٍ تامٍّ بحقيقة مبادئ المساواة ، فقد قبِلَ منه أصلبُ اليعاقبة عوداً ، قبولَ فرَحٍ بَلَغَ درجةَ الهذيان ، ألقابَ شرفٍ ازدرَوْها أيّما ازدراء منذ بضع سنين ، ولكن في الظاهر ، وفي أيامنا تُثبِتُ كثرةُ

مُلتَمِسى أَوْضَعِ الأَوْسَمَةَ ، الَّتِي هِيَ وَليدَةُ التَّفَاوُتِ ، مَقْدَارَ اقْتِرَانِ الحَاجَةِ إِلَى التَّفَاوُتِ بِالحَاجَةِ إِلَى المِساوَةِ .

وَإِذَا كَانَ مُحَمَّاةً مَبْدَأِ المِساوَةِ لَا يُبْصِرُونَ الحَاجَةَ إِلَى التَّفَاوُتِ وَرَاءَ أَشْوَاقِهِمْ إِلَيْهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ فَإِنَّهُمْ يَعْتَنِقُونَهُ ، مَعَ ذَلِكَ ، عِنْدَ النِّظَرِ إِلَى جَمَاعَةٍ ، فَكَلِمَةُ « دِكْتَاتُورِيَّةِ الصَّعْلَكَةِ » تَنْطَوِي بِحُكْمِ الضَّرُورَةِ عَلَى تَفَاوُتٍ بَالِغٍ بَيْنَ أَفْرَادِ فَرِيقِ الصَّعَالِيكِ وَمَنْ لَيْسُوا مِنْهُ .

وَالِاشْتِرَاكِيَّةُ وَالشِّيُوعِيَّةُ مَدِينَتَانِ بِقُوَّتِهِمَا لِمَبْدَأِ المِساوَةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ مِنْ المُمْكِنِ أَلَّا يَكُونَ مِثْلُ هَذِهِ القُوَّةِ غَيْرَ مَوْقُتٍ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ المِساوَةَ ، أَى الحَقْدَ عَلَى الأَفْضَلِيَّاتِ ، أَى الهَدَفَ المُشْتَرِكَ بَيْنَ جَمِيعِ الدِيمُوقْرَاطِيَّاتِ ، كَانَ يُؤَدِي ، بِمَا لَا مَرَمَّ مِنْهُ ، إِلَى نِهَايَةِ هَذِهِ الدِيمُوقْرَاطِيَّاتِ .

وَالعَالَمُ ، فِي حَالِ الحِضَارَاتِ الحَاضِرِ ، بَلَغَ مِنْ شِدَّةِ التَّعْقِيدِ مَا يَحْتَفِظُ عَدَمُ القَابِلِيَّةِ مَعَهُ بِسُلْطَانٍ مَكْتَسَبٍ وَقَتِيًّا ، وَهَذَا مِنَ الوُضُوحِ مَا تُنْذِرُكُهُ عَنَاصِرُ الصَّعْلَكَةِ المُتَّفَعَّةِ إِدْرَاكَاً جَيِّداً جَدِّداً ، وَكَانَ مِنْ تَعْبِيرِ بَعْضِهِمْ عَنْهُ فِي الأَسْطَرِ الآتِيَةِ بِجَلَاءٍ مَا أَنْقَلَهَا مَعَهُ هُنَا أَيْضاً لِسَدَادِهَا ، وَإِنْ كُنْتُ قَدْ اسْتَشْهَدْتُ بِهَا فِي أَحَدِ كُتُبِي :

« مَبَادِينُكُمْ خِيَالِيَّةٌ ، فَهِيَ تَمْنَحُ قُوَّةَ الدَوْلَةِ القَسْرِيَّةِ مَا لَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ قِيَمَةٍ إِبدَاعِيَّةٍ . . . لَنْ تُخْرِجُوا مَجْتَمَعاً كَامِلاً بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَضُجْحَاهَا ، وَلَنْ تُنْعِمُوا عَلَى العَمَالِ بِقُدْرَةٍ عَلَى إِدَارَةِ الإِنْتِاجِ وَالْمَقَابِضَةِ ، أَجَلٌ ، سَتَكُونُونَ سَادَةَ السَّاعَةِ ، وَسَتَقْبِضُونَ عَلَى جَمِيعِ السُّلْطَةِ الَّتِي كَانَتْ بِالأَمْسِ خَاصَّةً بِالْبُرْجُوزِيَّةِ ، وَسَتُكَدِّسُونَ مَراسِمَ فَوْقَ مَراسِمِ ، وَلَكِنكُمْ لَنْ تَأْتُوا

بالمعجزات ، ولن تجعلوا من العمال أناساً قادرين على القيام مقام الرأسماليين
بغتهً .

وعلى العموم عُدَّتْ أحزابُ فرنسة الكبيرة مُوَاصِلَةً للثورة الفرنسية
ومُلَهَّمَةً من مبادئها ، ومن دواعي الرِّثاء لها أن يُوَاصِلَ التطورُ سَيْرَهُ
ضِمْنَ معنىٍ مخالفٍ لمبادئها في المساواة مخالفةً تامة .

الفصل الرابع

شأن الجماعات الحاضر

ترى المجتمعاتُ نفسها خاضعةً بالتدريج لسلطانٍ جديدٍ ، أى لسلطان الجماعات ، وذلك بعد أن سيطر عليها الآلهةُ والملوكُ والخواصُّ بالتعاقب . ويواجه العالمُ الحاضرُ هذا الأمرَ المتناقض ، وهو : إخضاعُ الخواصِّ لعزائم الجماعات مع أن الحضارةَ لم تتقدم قطُّ إلا بنفوذ الخواصِّ وعلى الرغم من الجماعات . وقد دلت مباحثُ علم النفس الحديثةُ على تأصل أوهام محترفي السياسة الكثيرِ حولَ قدرة العدد المفروضة ، وقد أثبتت هذه المباحث كونَ آراءِ الجماعات خاليةً من مستندٍ عقليٍّ ، فالإنسانُ في الجماعة يَرَجِعُ إلى همجية ما قبل التاريخ .

ولا يؤثرُ في الجماعات إلا بمخاطبة مشاعرها خلافاً لما يساور محترفي السياسة المعاصرين من أوهامٍ عقلية .

وإذ تعجزُ الجماعاتُ عن الإدراك فإنها لا تلتمس الإدراك ، وإذا صار الفردُ جزءاً من جمعٍ نال قدرةً قاهرةً تُغنيه عن التأمل والتعقل قبل السير ، فضعيفو الذكاء من الأفراد إذا ما تجمَعُوا نالوا قدرةً موقته ، ولكنها عظيمةٌ جداً .

ولم يُعرَف انحطاطُ الجماعات النفسى إلا منذ أبحاث علم النفس الحديث ، وقد جهلَ مؤرخو الماضى هذا الانحطاطَ على العموم ، ومن ذلك أن عَزَا

مِيشَلِه إلى الجماعات قابلياتٍ عاليةً ، فهو يرى أن الناس عُرضةٌ للخطأ إذا كانوا منفردين ، فيكفي أن يُجمَعوا لينالوا استعداداً عظيماً ، وهكذا فإن هذا المؤرخ الشهير كان يفتخر بعدّه الشعبَ بطلاً بدلاً من أن يحدّو حدّو القدماء فيكتبَ تاريخَ الأبطال وقادةِ الشعوب ، ومن قوله :

« لقد تناولتُ التاريخَ من الأسفلِ في صميمِ الجماعات ، أى في غرائزِ الشعبِ فأظهرتُ كيف قاد زعماءه » .

وبما أن جرائمِ الجماعات ظاهرةٌ ظهوراً لا جدالَ فيه فإن مِيشَلِه لا يجادلُ فيها ، ولكنه يعزّو هذه الجرائمَ إلى عواملٍ مرّضيةٍ عابرةٍ دعماً لرأيه ، « فعلمٌ للأمراضِ النفسيةِ المُعديةِ » وحده يُمكنه أن يُفسّرَ الهولَ على حسبِ نظرياته .

* * *

ويرى في جميعِ أدوارِ الفوضى ، أى في الأدوارِ التي تنحلُّ الروابطُ الاجتماعية فيها ، تجلّى عملِ الجماعاتِ المُفسدِ للنظام ، غير أن شأنها كان موقتماً دائماً ، فلسرّعان ما كان يتوارى عاملُ التخريب .

وكان عملُ الجماعاتِ أقلَّ عنفاً ، في الظاهرِ أحياناً ، فصار أكثرَ خطراً في الوقتِ الحاضر ، لأنه أكثرُ استمراراً ، ويلوح أن الشيوعية ، التي هي أقصى شكلٍ لقدرةِ العدد ، تُتمثّلُ آخرَ تطورٍ للديمقراطيات ، منتظرةً خاتمتها بدكتاتورياتٍ شخصيةٍ وفقَ سنةٍ صوّرها أفلاطونُ وحُققتْ غيرَ مرةٍ في غضونِ التاريخ .

ويَنبُغُ تفوقُ العواملِ الجماعيةِ على تأخّرِ حقيقيٍّ مؤدّرٍ إلى تلكِ الأشكالِ

المنحطة التي تلاحظُ لدى الهمج الفطريين ، هؤلاء الذين يكون تحرُّرُ روحهم من الروح الجماعية من القلَّة ما يُعدُّ معه جميعُ أعضاءِ نفسِ القبيلة مسؤولين عن أعمالِ أحدهم ، وتواصلُ هذه الحقوقُ الجماعيةُ ، الكثيرةُ المباشرةُ للمبادئ الأوربية ، من قبل كثيرٍ من الشعوب ، ولا سيما الأثاميون .

* * *

ومن دواعي الأسف أن ظهرت الجماعاتُ في زمنٍ يُصبحُ فيه شأنُ الخواصِّ الموجهين أمراً ضرورياً مقداراً فمقداراً ، ومما لوحظ منذ زمن طويلٍ أنه إذا ما حُذِف من بلدٍ ما ، كفرنسة مثلاً ، بضعةُ آلافِ الأفراد الذين يتألف منهم خيارُ جميعِ الطبقات ، ومنها طبقةُ العمال ، سقطَ هذا البلد من فوره إلى مستوى الصين .

أجلُ ، إن العدد يُوجدُ القوة ، غير أن قوةَ العدد هذه لا تقوم مقام التوجيه الذي يتمُّ على يد الخواصِّ .

وقوةُ العدد هدامةٌ على الخصوص ، ولو سيطرت الجماعاتُ على العالم منذ أصل الأجيال ما خرَّج الإنسان من الهمجية ، ولم يتفكَّ الإنسان من الهمجية إلا بفضلِ بعضِ الأدمغةِ البالغة من القدرة ما حققت به كلُّ تقدمٍ أساسيّ أدى إلى ظهور الحضارات ونموّها .

وتصبح الأخطارُ ، التي تُعرِّضُ لها الأممُ بفعلِ سلطةِ العدد المتصاعدة ، أكثرَ ظهوراً يوماً فيوماً ، فيمكن أن تنشأ حروبٌ طاحنة عن حركةٍ بسيطة في الرأي تشيع بين الجموع بفعلِ العدوى النفسية .

ولا مرآء في أن القوى الاقتصادية التي تصدُر عن اختلاط الأمم

تسيطر على العزائم الجماعية بالتدرّيج ، بيّد أن هذا التطور ليس في غير أوائله .

* * *

وتكون الجماعاتُ خَظرةً بنفوذها المحافظ أحياناً أكثر مما بعملها الثورى .
وقد جرّبت فرنسا ذلك عدّة مراتٍ منذ الثورة الفرنسية حتى أيامنا ،
وعن المحافظةِ الشعبية نشأت الإمبراطوريةُ الأولى والإمبراطوريةُ الثانية مع
نتائجهما المشؤومة .

وينطوى عمل الجماعات على هَوَلٍ متساوٍ ، سواها أكان هذا العمل ثورياً
أم محافظاً ، وذلك لِمَا يلازم الحركاتِ الشعبية من عُنْفٍ في كلِّ حين ،
ولِمَا تُصِبح به هذه الحركاتُ أشدَّ خَظراً في كلِّ يوم بفعل اكتشافات
العلم الحديثة ، ولو أضحي الكومونُ سيدَ باريس في سنة ١٨٧١ وكان حائزاً
لوسائل التخريب الحديثة لتحوّلت هذه العاصمة العظيمة إلى رُكامٍ من
الأنقاض ، ولم يتفكّ اللوفرُ ومعجائبه الفنية من الحريق الذي قضى
على دار البلدية والتويلرُ وغيرها من مباني باريس إلاّ لنقصِ وسائل
التخريب المعروفة في ذلك الحين ، ولو سقطت هذه المدينة القديمة بين يدي
جماعةٍ ثوريةٍ مرةً أخرى لخربّت تماماً على ما يحتمل .

وإذ لم يُبالِ محترفو السياسة بهذه الممكنات ، وإذ يحاولون استغلالَ صَوَلاتِ
الشعب ، يدُلُّون على جهلٍ نفسىٍ فيهم يُبليقي الحيرة في مؤرخى المستقبل .
وتجدُّ الجماعاتُ في عناصر الشعب المنوّرة دعامةً استحسانٍ لطلّباتها ،
والواقعُ أنه ينتصب اليومُ ضدَّ الدولة جَحْفُلٌ من الموظفين الذين يجب عليهم
أن يؤيدوها وجحفلٌ من الرُبّين الذين يُعهدُ إليهم في تثقيفِ الجموع .

ولو تمَّ النصر لهؤلاء العصاة في فرنسا لسقطت من فوزها في حالٍ مُنحطَةٍ من الفوضى التي كادت إيطالية تسقط فيها حينما ظهر لإنقاذها من مصيبة نهائية جبارٌ فعَّال .

* * *

وتجاوز أوربة دوراً من التردد ما انفكت الأوهامُ الديمقراطيةية تُغذيه أكثر مما تُغذيه الحقائق ، واليوم يُحقِّق ذلك جميعُ أقطاب السياسة ، وقد أبان ذلك جيداً أحدُ مشاهيرهم ، جورج كليمنسو ، في السطور الآتية التي اقتطفناها من كتابٍ كبيرٍ له كتَّفَ فيه نتائجَ ملاحظاته ، قال كليمنسو :
« ما فِتَّتْ نَفْسُ الْمَسْأَلِ تَوْضِعُ مِنْذِ الْقُرُونِ الْقَدِيمَةِ عَلَى شَكْلِ مَبَاحِثٍ أَبَدِيَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَدُنُوَ مِنْ حَلِّ نَهَائِيَّ .

» . . . وقد أمكن القضاء على الأليغارشيات التاريخية القائمة على الوجهة والثروة ، وهي تُبعثُ من رُفَاتِهَا ضِمْنَ أليغارشيات جديدة من غير ما كانت عليه من نفوذ القِدَمِ الذي ينطوى على سِرِّ قُوَّتِهَا . . . وكلُّ منها يعترف بالشعب حَكَمًا ، ولكن مع جَعَلِهِ يتكلم .

» . . . وَغُوسْتَا فُ لُوبُون ، إِذْ بَيَّنَّ لَنَا بَيَانًا قَاطِعًا كَيْفَ أَنَّ الْأَكْثَرِيَّاتِ عَاجِزَةٌ عَنِ الْقِيَامِ بِغَيْرِ أَدْنَى دَرَكَاتِ الذَّهْنِ ، أَتَاحَ لَنَا فُرْصَةً إِبْضَاحِ أَوْضَعِ النَّتَاجِ لِلْحُكُومَاتِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْأَكْثَرِيَّاتِ . . .

« وعلى العموم تُرَى أليغارشياتُ الديمقراطيةية تحت الاختبار ، وهي تَحْمَلُ ، مع مساوى السلطة الشخصية أيضاً ، مساوى الغُفْلِيَّةِ غَيْرِ الْمَسْؤُولَةِ بِالْأَفْظَانِ الْمَسْؤُولِيَّةِ (١) .

(١) كتاب « مساء الفكر » لجورج كليمنسو .

* * *

إذا لم تكن مكناتُ التطور من السرعة ما تلائم الحياةَ الاجتماعيةَ به ضروراتِ الوقتِ عَقَبَتْ ذلك اضطراباتٌ عميقة ، ويُعدُّ عدمُ الملاءمة هذا من عِلَلِ فوضى العالمِ الحاضرة ، فالإنسانيةُ ، تحت ضغطِ سلسلةٍ من الاكتشافات العجيبة كتحولِ العملِ الميكانيكيِّ وتواصلِ الأممِ الاقتصاديِّ والتجاريِّ نتيجةً لإزالة المسافات ، إلخ . ، تَبَدُّو في أيامنا متنازعةً تنازعاً زائداً مع إنسانيةٍ متأخرة تُعدُّ بقيةً موروثاً من أجيالٍ سابقة وتؤلِّفُ كتيبةً عظيمةً من عديمي الالتئام ، ويقوم خيالُ هذا الجُمع على تقويض الحضارات الرفيعة بالعنف في سبيل ذوى الأمزجة النفسية المنحطة .

ويقعُ بسرعةٍ متصاعدةٍ في الوقت الحاضر ذلك التطورُ الذي كان يتمُّ ، فيما مضى ، ببطء بالغٍ فيجب مرورُ عِدَّةِ قرونٍ لتُبَصَّرَ نتائجهُ ، وتُقَدَّم ملاءمةُ أحوالِ العيش الجديدةُ ، السهلةُ على الأدمغةِ الناميةِ بما فيه الكفاية ، مصاعبَ شديدةً على أكثرية الناس الساحقة التي لم تَنَلْ مستوىً نفسياً بعدُ ، فينشأ عن هذا اختلافٌ كبيرٌ بين العددِ الحائزِ للقوةِ والخواصِّ المتصفين بالذكاء .

ففي كتب التاريخ القادمة وحدها يُمكن ذَرَارِينَا أن يدركوا نتائجَ مثلِ هذا الصِّراعِ .

* * *

ولا يقوم سلطانُ العددِ على ما يُعزَى إليه من قدرةٍ ماديةٍ فقط ، بل يقوم ، أيضاً ، على ما كان يُفَرِّضُ له من قابلياتٍ إلى أن أثبتت الأبحاثُ

الحديثة في روح الجماعات انحطاطَ الجماهيرِ النفسى ، وكان نظريُّو الثورة الفرنسية يقولون « إن الشعب لا يخطئُ مطلقاً » ، ويَبقى هذا الاعتقادُ ركنًا من أركان المذاهب الديمقراطية ، والزمنُ وحده هو القادر على إزالته ، وفي أيامنا يُتْرَكُ للجماعات أن تعتقد إمكانَ قيام العدد مقام المزايا الفنية التي ارتقت الحضاراتُ بها حتى الآن ، فبتأثير هذا الوهم زَعَم كثيرٌ من بلاد أوربة الكبيرة ، كإيطالية وإسبانية واليونان وپولونية ، إلخ . ، إعادته تنظيم حياته الاجتماعية ، فأدى ذلك إلى الفوضى بسرعة ، فوجب ظهورُ دكتاتوريات لإعادة النظام إلى نصابه .

أجلُ ، يَظْهَرُ أن النظرياتِ القائلةَ بحقِّ العدد في الحكم قد فازت في روسية ، ولكن الحقيقة تقول بأن الحال لا يستقيم في روسية إلا لأن العدَد فيها غيرُ ذى سلطانٍ حقيقىّ ولأن ضروبَ السلطة فيها قبضةُ دكتاوريةِ شُرطية أشدَّ وطأً من دكتاورية القياصرة السابقين .

وقد انتشر الإيمانُ بقدرة العدد على التوجيه بين الأمم ، واليوم يطالب الصينيون والهندوس والمصريون ، إلخ . ، بالخلاص من حكومة الأمم الراقية ، ومن المؤسف أن ظَهَرَت هذه الحاجةُ إلى الخِلاص في دورٍ من أدوار تاريخ العالم لم يَضْطَرَّ إلى المعارف الفنية كما اضْطُرَّ فيه ، فسيكون خُسْرُ المصريين والأناميين والهندوس كبيراً بتوارى الإدارة الأوربية (!)

ومن الواضح ، مثلاً ، كَوْنُ الحكومة الإنكليزية قد حَوَّلت الهندَ ومصرَ تحويلاً تاماً فيه نَفْعٌ لأهليهما ، وكَوْنُ الحكومة الفرنسية قد مارست ذاتَ النفوذِ الملائمِ في الهند الصينية ومرّاكِش (!)

ومن ذلك مثلاً قولُ جريدةِ أُلْمَانِيَةِ كَبِيرَةِ عَن مِصْرَ : « إِنْ إِنْكَاتَرَةُ جَعَلَتْ فِي خَمْسِينَ سَنَةً مِنْ هَذَا الْبَلَدِ الشَّرْقِيِّ ، الْفَقِيرِ الْمَدِينِ الْخَالِي مِنْ وَسَائِلِ النُّقْلِ وَالْفَرِيْسَةِ لِلْفِتَنِ الدَّاخِلِيَةِ ، دَوْلَةً مَنْظَمَةً عَجِيْبَةً الرَّيِّ ذَاتَ خِصْبٍ مَنْقَطَعِ النَّظِيرِ ، مَعَ مَالِيَةٍ مَتِينَةٍ وَإِدَارَةٍ رَائِعَةٍ وَطُرُقٍ عَصْرِيَةٍ . » .

وَسَتَكُونُ مَشْكَلَةُ الْمُسْتَقْبَلِ الْكَبِيرِ فِي مَعْرِفَةِ ضَرُورَةِ إِعَادَةِ تَنْظِيمِ الْمَجْتَمَعَاتِ حَتَّى تَكُونَ عَلَى مَسْتَوَى عَدِيمِي الْإِلْتِمَامِ ، وَذَلِكَ تَجَاهَ تَعَذُّرِ رَفْعِ هَذَا الْجَجْحَلِ مِنْ عَدِيمِي الْإِلْتِمَامِ إِلَى شَيْءٍ مِنَ النَّشْوءِ ، وَذَلِكَ إِلَى أَنْ هُوَ لَا يَكْسِبُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، فَهَمَا يَكُنْ مِنْ حَقْدِهِمْ عَلَى الْخَوَاصِّ يَتَوَقَّفُ عَلَى الْخَوَاصِّ دَائِمًا مَا يَنْتَفِعُ بِهِ الْعَدَدُ الْأَكْبَرُ مِنْ تَقْدَمِ .

وَيُظْهِرُ مِنْ حَالِ الْعَالَمِ الْحَاضِرَةِ أَنَّهُ عَادَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لِلْحُكُومَةِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ شَكْلَيْنِ : سَيْطَرَةِ الْخَوَاصِّ أَوْ دِكْتَاتُورِيَةِ الصَّعَالِيكِ ، فَإِلَى هَذَا الشَّكْلِ الثَّانِي تَمِيلُ أَوْ رَبَّةٌ مَقْدَارًا فَمَقْدَارًا ، وَإِلَى الشَّكْلِ الْأَوَّلِ سَتَسِيرُ بَعْضُ الْأُمَمِ ذَاتِ يَوْمٍ ، فَيَكُونُ فِي هَذَا الْخِيَارِ سِرٌّ عَظْمَتِهَا .

البَابُ السَّادِسُ
عَوَامِلُ التَّارِيخِ الْجَدِيدَةِ

الفصل الأول

تطور العالم الاقتصادي

وعناصر اليسر الحديثة

اختلفت العوامل التي وَجَّهَتْ نشاطَ الأمم في مختلف أدوار تاريخها ، فكانت عواملَ حربيةً حيناً وعواملَ دينيةً أو سياسيةً حيناً آخر ، وبين هذه العوامل المختلفة ، أى العرقية أو الدينية أو السياسية أو الحربية أو الاجتماعية ، التي أثَّرت في مختلف مراحل التاريخ ، مثلت العوامل الاقتصادية دوراً لم تزل أهميته تَعْظُمُ ، وقد بَلَغَتْ هذه العوامل الاقتصادية من النفوذ ما جعل أنصارَ المذهب المعروف بـ « المادية التاريخية » منها جوهرَ جميع الحضارات .

وترى الشأنَ الحديث للعوامل الاقتصادية مَدِيناً ، على الخصوص ، لاكتشافات العلم التي غَيَّرَتْ شروط الحياة تغييراً تاماً .
واليومَ ، إذا عَدَوْتَ زِرَاعَةَ بلدٍ وجدتَ ثروته تتوقف على مقدار ما يتصرف فيه من قوةٍ بحارية ، فما كانت إسبانية وإيطالية والبلقان ، الفقيراتُ في الفحم الحجريِّ ، لتساوى ، اقتصادياً ، إنكلتراً وأمريكا الغنيتين ! به مثلاً ، ولو عَرَفْتَ القرونَ القديمةَ أمرَ الفحم الحجريِّ ما بَقِيَتْ بلادُ اليونان وإيطالية قُطْبَي الحضارةِ الكبيرين لارِيب .

* * *

وقد جعلت كثرة وسائل النقل الحديثة مختلف الأمم من كثرة التضامن ما يكون عملُ حكوماتها معه دون عملِ صِلاتها التجارية .

وتشاهد نتائجُ مثلِ هذا التواصل يوماً حتى بين البقاع البعيدِ بعضها من بعض ، ومن ذلك أن مُرَبِّي الحيوانات الأستراليين ، مثلاً ، يُضطرُّون ، عن عدم وجود الفحم الحجريِّ الضروريِّ للمصانع ، إلى إرسال صُوفِ ضأنهم إلى إنكلترا لِيُنسَجَ فيها على الرغم من نفقات النقل المضاعفة .

ولا يستطيعُ بلدٌ في الوقت الحاضر أن يعيش من مُنتجاته حصراً ، وكان أوليسُ في جزيرته قائماً بحاجات نفسه مستعيناً ببِنِيلُوبَ وبعض الرعاة ، والآن يتطلب صُنْعُ ثوبٍ بسيطٍ تعاونَ قاراتٍ كثيرة ، واليومَ ترانا محاطين بأشياء تأتي من جميع أجزاء العالم ، فتُبَصِّرُ أحقرَ مواطنٍ مديناً بحياته اليومية للعالم بأسره .

ولسهولة العلاقات الأُممية ، الحديثة في التاريخ كثيراً ، نتأججُ لا يُمكن إلا أن نَعْظُمُ ، فكلُّ أمةٍ مُضطرةٌ إلى البحث في الأقاصى عما يُعوزُها ، وهي تدفع ما يفيضُ من إنتاجها ثمنًا له ، ولا تعيش الأمم الحاضرة إلا بتبادلها ما تُنتج ، وقد بلغ الإصدارُ من فرنسة عشرَ مرات زيادةً على ما كان عليه سنة ١٨٤٠ ، وقد بلغ الإصدار من الولايات المتحدة عشرين مرةً زيادةً على ما كان عليه في تلك السنة .

وهكذا تقوم الأممُ بمزاحمةٍ اضطراريةٍ يُحدِّد بها ثمنُ بَيْعِ السِّلَع ، ومن ثمَّ عادت الأجور لا تُعَيَّن بإرادة العامل ، ولا بإرادة صاحب المصنع ، بل بإمكانيات البيع ، وفي الاقتصاد السياسي تكون للحوادث البادية النفع ، في

الغالب ، نتأجج مخالفةً للمَرَجُوءِ منها ، ومن ذلك أن نال عمال الإنكليز ارتفاعاً عظيماً في الأجور بواسطة نقاباتهم فأدى هذا إلى زيادة ثمن التكلفة فإلى بطلالةٍ واسعةٍ المدى لِمَا حَدَثَ من صعوبة البيع تَبَعاً لذلك ، أى جاءت هذه النتيجةُ المخالفةُ مخالفةً مطلقةً لِمَا كان العمال وزعمائهم يعتقدون نَيْلَهُ .

* * *

يوجد بين الحوادث الاقتصادية التي تصبح ناظمةً العالم الكبرى ما سيكون أعظمَ من العوامل السياسية القديمة بمراحل ، ومن ذلك ، مثلاً ، نقصُ الأسواق الخارجية بالتدرج ، هذا النقصُ الذي يَزِيدُ يوماً بعد يوم ، والواقعُ أن جميع البلدان تُجهزُ بالآلاتِ مقداراً فمقداراً لتقوم بحاجات نفسها وتَصِيرَ مُصْدِرَةً .

وفي أيامنا تَبَدُّو التدابيرُ الاشتراعيةُ البالغةُ النفعُ في طفولة الأمم من عدم الجَدْوَى ما لا تُحَلُّ المشاكلُ الاقتصادية معه .

وَعُدَّ البِطَالَةُ التي تشاهد لدى كثيرٍ من الأمم الأوربية ، كإنكلترة مثلاً ، نتيجةَ إغلاقِ الأسواقِ الخارجيةِ بالتدرج .

وتعتقد بعضُ الدولِ قدرتها على معالجة أخطار هذا الوضعِ برسوم الجمارك التي تحُولُ دون مزاحمةِ المُنتَجاتِ القومية ، ولكن هذه الدولِ إذ تَحْشَى المقابلةَ بالمثل فإنها تَضْطَرُّ إلى عدم الإيفال في هذا السبيل ، ولا رَيْبَ في أن آخرَ حاصلٍ للإفراط في الإنتاجِ لدى مختلف الأمم هو حدوثُ نقصٍ كافٍ في السكان يكون به مناسباً لوسائل العيش .

وَيُمْكِنُ تَمَثُّلُ مقدارٍ ما تُوَدَّى إليه البِطَالَةُ من خراب عند التفكير في

اضطرار إنكلترة إلى تموين ثلاثة ملايين بَطَّال ، وتعدُّ هذه المشكلة من أصعب مشاكل الحياة الاقتصادية في العالم ، وقد لَخَّصت « الطَّانُ » ناحيةَ هذه الأزمَةِ العامَّةَ في السطور الآتية :

« . . . مرضٌ مزمنٌ لدى بعض الدول ، حادثٌ لدى الأخرى ، من غير أن يُمكن التفريقُ بين الدول الرأسمالية والدول الشيوعية ، وإذ أن هذه الدول تُصَاب بهذا المرض على نَحْوٍ واحد فإنه يُهدِّد بإهلاك أقوى الأمم ، وذلك بتعرُّضها لعدم صبر الجمهور أو لأن هذه الأمم تَسَعُّ تلك الدول في مقابل تضحياتٍ مُبيدة .

« . . . ونزى أنه يوجد لدى البلاشفة من البَطَّالين بمقدار عمال الإنكليز ومُؤمولى الأمريكيين ، وماسببُ هذا المرضِ ، الذى يبدو الخبراء الاجتماعيون عاجزين تِجاهه ، إذنُ ؟ . . .

« . . . ومع ذلك لم يَصِل الإنكليزُ ، الذين يُعانون هذه المصيبة منذ ثمانية أعوامٍ ، إلى نتيجةٍ عملية حتى الآن ، خلا ما هو واقعٌ من دفعهم في كلِّ سنةٍ ملياراتٍ إلى عمالٍ ياتسين يَفْقِدُونَ ذوقَ العمل وعادته شيئاً فشيئاً وعند سكرتير المالية السابق ، مستر صموئيل ، أن البطالة ناشئةٌ

عن نقص المبيعات الإنكليزية في الأسواق الخارجية نتيجةً لارتفاع ثَمَنِ التَّكْلِيفَةِ ، فقد قال : « إن عمالنا أرادوا تعيينَ أجورهم إجمالاً مع أن المشترين من الأجانب هم الذين يُعَيِّنُونَ هذه الأجور » .

« . . . والوضعُ في جميع البلدان هو أن الصناعات التى تقوم بالخدمِ هى مما تؤثف به بالتدرج طبقةٌ ممتازة إجحاقاً بالزراعِ أولاً ، وبالعمال ثانياً ،

والخلاصة هي أنه كلما ثقلت وطأة الاستخدام العام والخاص على الأمة قل إنتاجها ، وهي تصبح بذلك كالمصنع الذي يعتصر نفقاته العامة .

« . . . وقد تذرّعت فرنسة بما لم تذرّع به إنكلترة من حكمة فلم تُضحّ بزراعتها في سبيل صناعتها ، ولا ريب في أنها عاشت ضمن أحوالٍ أقلّ رَغداً وأنها لم تُثرِ على ذات الوزن ، ولكنها تمتعت باستقرارٍ يحسدها عليه جميعُ العالم ، وليس أقلّ من هذا صحةً كونُ سكُونِ تناسلها يهيئ لها فرصةً زيادة العمل وإن كان يجعلها على مستوى متأخرٍ في المسابقات العسكرية » .

وكيف تُعدّ وسائل العيش لِجَمْعِ البَطَّالين المتكاثِر؟ تقترب الساعةُ التي لا تستطيع ميزانية أن تُموّنهم فيها ، ولا يُمكن أن يُوجدَ ما لانهاية له من الأعمال العامة لإعاشتهم ، والآن يُكتفى بإيجاد طُرُقٍ لذلك ، ومن ذلك أن قلّت إيطالية رواتبَ جميع موظفيها ، ومنهم الوزراء ، بمقدار اثني عشرَ في المئة ، ومن ذلك أن كثيراً من الشركات في إنكلترة يحاول خفضَ الأجور على السواء ، ولا بُدَّ من اتتحال هذا الحلُّ الموقت بحكم الضرورة في جميع البلدان التي يزيد عدد سكانها على وسائل العيش فيها .

* * *

وتكفي الملاحظاتُ السابقة ، على اختصارها ، لبيان كون الحوادث الاقتصادية في أيامنا تؤلّف شبكةً من العِلل والمعلولات أعلى من جميع العزائم ، فيخضعُ لسلطانها جميعُ عناصر الحياة الاجتماعية المترجّحة بين عدد السكان وأدقّ جزئيات العيش .

ومن ذلك أن أصبح عددُ سكان ألمانيا ٦٧ مليوناً في سنة ١٩١٤ ، بعد أن كان ٣٦ مليوناً في سنة ١٨٧١ ، أى إنه صار ضعيفاً ما كان عليه تقريباً ، فوجب لتغذية سكانٍ أخذوا يجاوزون وسائلَ عيشهم بهذا المقدار أن يُبْحَثَ عن منافذَ في البلدان البعيدة ، فأدت هذه الضرورة إلى إيجادِ بحرية تجارية ثم إلى إيجادِ بحرية حربية لحمايتها .

ووجدَ هؤلاء الواردون الجددُ على الأسواق الاقتصادية الأجنبية أنفسهم مزاحمين لأممٍ أخرى مُصدِرَةٍ مستقرّةٍ منذ زمن طويل ، فنشأت عن ذلك منازعاتٌ كانت من أسباب الحرب الأخيرة .

ومع أن الحروبَ السابقة كانت حروبَ ضمٍّ ناشئةً عن طموح الملوك على العموم فإن الحروبَ الحاضرة تنشأ عن مصالح اقتصاديةٍ على الخصوص .

* * *

وبما أن أجور العمال تُحدّدُ بثمان التَّكْلِفَة ولا تتدبّع إرادة العمال ولا إرادة أصحاب المصانع فإنه صار يُبْحَثُ عن إمكان زيادة الأجور من غير أن يزداد ثمنُ التَّكْلِفَة .

حلت هذه المُعضِلةُ المستعصيةُ حلاً جزئياً بتجارِبَ أدت إلى ما سُمِّيَ مذهبَ العمل العقلِيّ ، وقام هذا المذهبُ على سلسلة من الطُّرُق التي يُزادُ بها الإنتاج من غير أن يزداد العمل ، فإذا ما أُفرِطَ في توسيع مَدَى هذا المذهب الرائع في ذاته أمكنَ أن يُودَى إلى زيادةٍ في الإنتاجِ مُوجِبَةٍ بِطالآتٍ جديدةٍ . وكان من النتائجِ النهائيةِ لمقتضيات الاقتصاد ، التي أشرنا إلى بعض عناصرها ، ولاسيما هبوطُ ثمن التَّكْلِفَة ، إيجادُ مصانعٍ واسعةٍ حيث يؤدي

التخصّص في العمل إلى دخلٍ أكثر اقتصاداً ، وقد أدى هذا الاحتياج إلى مصانعٍ أكثر اتساعاً ، ومن ثمّ أغلى ثمنًا ، إلى جعلٍ إيجابها جماعياً ، فبما أن قليلاً من المستصنعين يكون على شيء من الثراء ما يُنشئها معه فإن معظم المصانع المهمة وُضِعَ على شكل شركات مُغلقة يَمْلِكها أوفٌ من أصحاب الأسهم .

إذن ، تُسفرُ مقتضياتُ الاقتصاد التي نُعدّها إلى تحوّل الرأسمالية الفردية إلى رأسمالية جماعية ، وتختلف هذه الرأسمالية الجماعية عن الرأسمالية الحكومية التي يَحلمُ بها الاشتراكيون فتودّي ، دائماً ، إلى زيادة ثمن التكلفة ، ومن ثمّ تؤدي إلى نقص أجور العمال .

وقد أثبتت الوقائع ، خلافاً لزعيم كارل ماركس ، أن أسهم موثقات الولايات المتحدة العظيمة موزعةٌ بين عدد متصاعد من الأيدي ، ومما لاحظته مسيو پول رينو « أن عدد أصحاب الأسهم في شركة الزيت بلغ ٧٧٢٠٠ في سنة ١٩٢٦ بعد أن كان ٧٦٥٩ في سنة ١٩١٧ . . . فالمشروعُ الكبير يتحول إلى شيء مشترك بين العامل والمستصنع » .

وبذلك يُمكن تصوّر مقدار الازدراء الذي ينظر به العمال الأمريكيون إلى الاشتراكية الأوربية ، فهي لا تُعدّ عندهم غيرَ عنوانٍ لتعطيل كلِّ جهدٍ وللاستعباد الحكوميّ وللمساواة في البؤس .

* * *

ومن أشدّ العوامل الاقتصادية الحديثة فعلاً هو زيادةُ السرعة باستمرارٍ في جميع ناظمات الحوادث ، ويُسْتَقُ تأثيرها من السُّنن العلمية التي

لا يَخْلُو ذِكْرُهَا من فائدة .

تقوم معادلاتُ الكونِ الكُبْرَى على الحركة ، أى القوة ، وعلى مقاومة الحركة ، أى السكون ، أعنى خاصيّةِ المادّةِ الجوهريةِ .

وتدلُّ المعادلةُ الميكانيكيّةُ الأساسيّةُ^(١) على ما للجِزْمِ والسرعة من شأنٍ متقابل ، وعلى الوجه الذى يقوم به كلٌّ من هذين العنصرين مقام الآخر من غير تغييرٍ فى النتيجة ، ومن الممكن ، إذنً ، أن يَحُلَّ صِغَرُ الأجرام محلَّ زيادةِ سرعتها ، ومن ذلك أن قام تقدمُ المدفعية على إحلال القنابل الصغيرة ذاتِ السرعةِ العظيمة محلَّ القنابل الضخمة ذاتِ السرعةِ الضعيفة . وقد بينتُ فى كتابِ آخرٍ أن من الممكن تصوّرُ آلةٍ نظرية مؤلّفةٍ من كُرَيَّةٍ دقيقة تدورُ فى دائرةٍ فَصٍّ خاتَمٍ فتنْتِجُ بسرعةٍ دورانها حَوْلَ المركز من القوة ما يَعدِلُ قوةَ ألفِ قاطرةٍ بخارية .

ويتمُّ إحلالُ السرعةِ محلَّ الجِزْمِ فى الصّناعة مقداراً فقذاراً ، وفى الماضى كانت تُستخدَمُ دواليبُ ضخمة ذاتُ محورٍ عمودىٍّ يَدُورُ بالياهِ الجارية ، وفى الزمنِ الحاضرِ تتخذُ المصانعُ المائتية القائمةُ فى أسفلِ الجبالِ دواليبَ يَبْلُغُ قطرُها بضعةَ سنتيمتراتٍ فقط ، ولكن مع تزويدها بمجرّةٍ دورانية سريعةٍ جدّاً ، فينالُ الإنتاجُ نفسه بفصل ارتفاعِ الحوضِ الذى يُمِدُّها .

وإلى زمنٍ قريبٍ كانت سرعةُ الآلاتِ محدودةً جدّاً ما قامت المحرّكاتُ على قوة الإنسان والحيوان والريّح والماء فقط .

ولما اكتُشِفَت الطاقةُ المحرّكة الكامنة فى الفحمِ الحجريّ زادت سرعةُ

الآلات وعددها زيادةً عظيمة ، فبالنظام الآليّ ظهر عصرُ السرعة ،
أجلُّ ، استمرَّت المصانعُ على استخدام عددٍ من العمال المنظورين ، ولكنه
يَعْمَلُ بجانبهم جَمْعٌ من العبيد الخافين الذين يَزِيدُونَ الإنتاجَ زيادةً هائلةً ،
ويتألَّفُ هذا الجَمْعُ من القوَى المستخرجة من الفحم الحجريّ ، وفي كتاب
« المعارف النفسية حَوْلَ الحرب » بَيَّنْتُ أن ما يُنتِجُه العملُ حين الصِّراعِ
بال ١٩٠ مليون طن من الفحم الحجريّ ، الذي تستخرجه ألمانيا من أرضها ،
يَعْدَلُ إنتاجَ ٩٥٠ مليون عامل ، ولذلك يُمكنُ أن يقال إن عدد عمال
ألمانيا الخافين في ذلك الحين كان ٩٥٠ من الملايين ، أى أكثرَ بمراحلَ
من ملايين السكان ال ٦٥ الذين أشارت الإحصاءاتُ إليهم .

* * *

ويبدو شأنُ السرعةِ العظيمُ في جميع حوادث الحياة الحاضرة ، ولا سيما في
إيجاد الثروة ، وَيَظْهَرُ هذا الإيجاد مرتببًا ارتباطًا وثيقًا في سرعته تداول النقد .
والواقعُ أنه يُمكنُ استبدالُ سرعةِ التداولِ بضخامة رأس المال ، كما أنه
يُمكنُ أن يُعتاضَ من صِغَرِ الجِزْمِ بزيادةِ سرعته ، وليس المهْمُ في التجارة الحديثة
مقدارُ الربح من بَيْعِ إحدى السِّلَعِ ، بل سرعةُ تجديد هذه السلعة ، ومن
الممكن ، كما هو واضح ، أن يؤديَ ربحُ خمسةٍ في المئة من بَيْعِ السلعة
بيعًا مُكرَّرًا في الغالب إلى ثمرةٍ أعظمَ من رِبْحِ خمسين في المئة من ذاتِ
السلعة التي تُتْرَكُ زمانًا طويلًا في الخزن .

والسرعةُ تُمَثِّلُ دورًا مهمًّا في العلاقات الدَّولية أيضًا ، فهي إذ قلَّت
المسافاتِ عمليًّا أسفرت عن تَمَّاسٍ أُمَّمٍ غير متعارفة سابقًا ، فغَيَّرَتْ أحوالَ

معايشها غالباً ، وإلى وقتٍ قريبٍ كان لا بُدَّ من مدةٍ خمسةَ عشرَ يوماً يُقضى في السفر بين باريسَ ومرسيليةَ ، فصار يكفي قضاء ما بين ثلاثِ ساعاتٍ وأربع ساعاتٍ لقطع عينِ المسافة .

ولكن تقريبَ المساوفِ إذا كان قد أوجبَ جَمَعَ ما بين مصالحِ الأممِ فإنه لم يُوحِّدْ بين مشاعرها بعدُ ، فالتواصلُ الاقتصاديُّ لا يُحدِثُ تواصلًا نفسيًا .

وقد امتدت زيادةُ السرعةِ من العالمِ المادىِّ إلى العالمِ النفسىِّ ، ويلوح أن الإنسانَ العصرىَّ حائزٌ نَمَطًا أشدَّ سرعةً في الرؤيةِ والإحساسِ والترجيحِ ، ولو أمكن أن تُقاسَ مدةُ أيامنا بمقدارِ العملِ المُنجَزِ ومجموعِ المشاعرِ المتراكمةِ في هذه الأيامِ لأمكن أن يقال إن طولَ الحياةِ زاد زيادةً بالغةً باكتسابِ السرعةِ .

* * *

والسرعةُ ، على الخصوصِ ، هى التى تَميزُ الحضارةَ الحاضرةَ من الحضاراتِ السابقةِ ، وهى تَبْرُزُ بين أهمِّ القُوَى الاقتصاديةِ التى تَميلُ ، إذ ينضمُّ بعضها إلى بعضٍ ، إلى تكوينِ سلطةٍ عالميةٍ مُعقَّلةٍ بانعةٍ من القدرةِ ما تسيطر معه على إرادةِ الأممِ والمشرعينِ والملوكِ ، وتؤدى هذه القُوَى الجديدةُ إلى تقدمٍ من يَعْرِفُ ملاءمتها من الأممِ ، وتسوقُ إلى انحطاطٍ مُقدَّرٍ مَنْ يَعْرِزُ عن ملاءمتها من الأممِ .

وإذ أننى لا أستطيعُ هنا أن أبحثَ فى سلسلةِ التحولاتِ الاقتصاديةِ التى يعانىها العالمُ فى الوقتِ الحاضرِ فإننى أُلخِّصُ أهمَّها ضمناً تأملاتٍ قصيرةً ، فأقول :

.. لم يَكْدُ يَمُرُّ قرنٌ على الزمن الذي كان بعضُ الأممِ فيه مستقلاً عن بعضٍ، واليومَ لا يستطيع بعضُ الأممِ أن يَسْتغنى في الحياة عن بعضٍ .
 .. من الأدلة على تواصل الأمم في الوقت الحاضر ما حَدَث من اشتراك الولايات المتحدة في الحرب ، وكانت هذه الحربُ التي لاحَ أنها لا تكترث لها من نتائج تطور العالمِ الاقتصاديِّ حديثاً .
 .. من نتائج تواصل الأمم أن تؤدي حربٌ بين أمتين إلى حرب بين جميع الأمم .

.. يولَّفُ مختلفُ بلدانِ العالمِ إمبراطوريةً صِناعيةً عظيمةً في الوقت الحاضر وإن كان بعضها منفصلاً عن بعضٍ ظاهراً .
 .. يتوقَّف غنى الأمة أو فقرها ، في الغالب ، على الصِّلات التجارية البعيدة المستقلة عن الحكومات تماماً .

.. تميل قدرةُ بعض البلادِ الماليةُ إلى تمثيل دورٍ أعظمٍ بمراحل من الدور الذي كانت تمثله قدرتها الحربية ، وينشأ قسمٌ من تفوق الأمريكيين الحاضر عن أنهم أصبحوا أصحاباً لعددٍ كبير من الصِّناعات الأوربية ، وقد تكون هذه الظاهرةُ أكثرَ تأثيراً في حفظ السِّلم من جميع القرارات الفقهية التي تصدر عن جمعية الأمم .

ويكفي التعدادُ البسيطُ السابق لإثباتنا قلةَ أهميةِ عزائمِ الملوكِ والمشرعين ونظري جميع الأحزاب تجاه الضرورات الكبرى التي تهيمن على سيرِ العالمِ الاقتصاديِّ في الوقت الحاضر، ولم يُسجَل التاريخ ، قطُّ ، معلوماتٍ أصحَّ من هذه .

الفصل الثاني

الوضع الحاضر لأهم دول العالم

كان العالمُ، إلى وقتٍ قريبٍ ، خاضعاً لمبادئٍ دينيةٍ وسياسيةٍ واجتماعيةٍ بسيطةٍ إلى الغاية مقبولةٍ على العموم ، ولم تَصنع الثوراتُ غيرَ تغيير الأسماء في الغالب .

والأمرُ غيرُ ذلك في هذه الأيام ، فما أبصر العالمُ ظهوره من قوىٍ جديدةٍ حوّلت شروطَ حياةِ الناس واحتياجاتهم ومشاعرهم وأفكارهم تحويلاً تاماً .

ويجاوزُ العالمُ كلّه دوراً من أسودِ أدوار تاريخه الطويل وأنورها معاً ، من أنورها لِمَا تمّ فيه من الاكتشافات العجيبة التي حوّلت وَجْهَ الحضاراتِ المادى ، ومن أسودها لِمَا يُحيطُ بالأُم من وعيد .
وإذ لم يَعْنِ لى أن أعرضُ مُفصّلاً وَضِعَ مختلف البلدان فإننى أخصّصُ بعضَ السطور لكلِّ منها ، فهى تكفى لبيان الفوضى العامة الناشئة عن التطور الصناعى والاقتصادى والسياسى البالغ من السرعة ما لا يلام مزاجَ الأُم النفسى الموروث .

* * *

وَضِعُ فرنسة — عانت فرنسة ستَّ ثوراتٍ ونُظُمٍ في أقلِّ من قرنٍ ونصفِ قرن ، وقد بلغتُ أخرى حكوماتها من الانقسام ما لم تَبَقَ معه

إلا بمعجزات التوازن المجدّدة بلا انقطاع .

واليوم يُوجدُ في فرنسا أحزابٌ كبيرةٌ كثيرةٌ يَفْصِلُ بينها تناظرُها ،
ويُعَدُّ الحزبُ الجذريُّ (الرايكاكيُّ) والحزبُ النقابيُّ والحزبُ الاشتراكيُّ
والحزبُ الشيوعيُّ أكثرَها نفوذاً ، ويقترِبُ الحزبُ الجذريُّ من الاشتراكية
شيئاً فشيئاً وسيندمج فيها ذاتَ يومٍ حتماً .

وقد استحوذت على هذه الأحزاب المختلفة أوهامٌ يتعذرُ تحقيقُها
ويُعَدُّها أنصارُها من الحقائق الساطعة .

ومع ذلك فإن هذه الانقساماتِ السياسيةَ ليست في غيرِ الظاهرِ ،
فالواقعُ أنه لا يُوجدُ في فرنسا غيرُ حزبٍ واحدٍ ، غيرُ الحكومية ،
وإن اختلفت الأسماءُ ، كما كرّرتُ ذلك غالباً .

فالفرنسيون ، من أيِّ مذهبٍ كانوا ، يَطْلُبونَ تدخلَ الدولة في أدقِّ
الأمرِ ، والاشتراكيةُ هي أكثرُ الأحزابِ طلباً لتدخلِ الدولة ، وليس
في غيرِ هذه النقطة ما تختلفُ عن أقلِّها تقدماً .

ويُعَدُّ الاشتراكيونَ خطرَينَ بأوهامهم كما يُعدُّونَ بمذاهبهم ، ومما لُوْحِظَ
في الغالبِ كَوْنُ الاشتراكيينَ هم الذين حَمَلُوا على الجيشِ عَشِيَّةَ الحربِ
وعلى خدمةِ السنينِ الثلاثِ ، وهم الذين أسقطوا الحكومةَ في يونيه
سنة ١٩١٤ متذرّعين بأنها كانت تبالغُ في تصويرِ الخطرِ الخارجيّ .

وفرنسة هي ، على الخصوص ، ضحيةُ أغاليطِ سياسيتها وما ينشأ عن
هذه الأغاليطِ من القوانينِ ، ومما رُئيَ ذلك المثالُ البارزُ في تطبيقِ قانونِ
التأمينات الاجتماعية المشؤومِ الذي وُضِعَ لغرضِ إنسانيٍّ فأدى من حيث

النتيجة إلى فِتْنٍ وإضراباتٍ وإلى ارتفاعٍ مفاجئٍ في أمان الأَقْوَاتِ في كلِّ مكانٍ .

وبما أن العمال رَفَضُوا ، كما كان يُمكن أن يُبَصَّر ، تأديَةَ ما يَطْلُبُهُ القانون من دَفَعَاتٍ على أجورهم فقد نشأ عن ذلك بحكم الضرورة اضطرارُ رؤساء المشروع إلى الدفع بدلاً منهم ، ومن ثمَّ إلى رَفَعِ ثمنِ المُنتَجَاتِ رَفْعاً مؤدياً إلى زيادة مُعدَّلِ الحياة حَالاً وتَعَدُّرٍ إِصدارِ السِّلَعِ التي يُوجِبُ ارتفاعُ ثَمَنِ التَّكْلِيفَةِ بيعها بأغلى مما يبيعها به المنافسون من الأجانب .
وبأساليبٍ تختلف عن تلك كثيراً عَرَفَ مُستَـصنِعو الولايات المتحدة أن يَصْمِنُوا للعمال ما تقتضيه شيخوختهم من رواتب تقاعد .

ومن الصواب أن قيل إن تطبيق قانون التأمينات الاجتماعيِّ عُدَّ من قِبَلِ جميع أعداء المجتمع ، ولا سيما الشيوعيون والاشتراكيون ، مرحلةً إلى الثورة الاجتماعية التي يَحْمِلُ بها جَحْفَلُ عديمي اللثام .

وكثيرٌ عدُّ هؤلاء الأعداء البالغي العمى ، أى الشديدي الخطر على المجتمع الحاضر ، وكثيرٌ من الصُّحُفِ رَوَى أنه أنشِدَ في المؤتمر الذي عُقِدَ في نِيمَ في شهر يولييه سنة ١٩٣٠ ، جامعاً لمثلئ ثمانين ألفَ مُدرِّسٍ تابعٍ للنقابة القومية كما تُسَمَّى ، النشيْدُ المعروفُ باسم « الأُمِّيِّ » والقاتلُ بتقويض المجتمع .

وزيادةٌ جديدةٌ في الرواتب هي ما يَطْلُبُهُ هؤلاء المدرِّسون ، هذه الزيادةُ المتعدرةُ لأن الزيادةَ المتصاعدة في النفقات العامة هي ، كما قال رئيس الوزراء ، تَقْفِزُ بالميزانية من المليارات الخمسة التي كانت عليها قبل

الحرب إلى اثنين وخمسين ملياراً في سنة ١٩٣٠ .

ويضيف هذا الرئيسُ إلى ذلك قوله : « لا يَصْنَعُ المجلسان غيرَ زيادة النفقات بدلاً من تحديدها » .

* * *

وضعُ إنكلترة - تلُوح إنكلترة أقلُّ ارتجاجاً بسبب ثباتها المتأصل ، ومع ذلك فهي مضطربةٌ كثيراً في حياتها القومية لما تقاسيه من إضراباتٍ وبطالةٍ ، ونزاعٍ شديد بين أنصار حرية المبادلة وأنصار نظام الحماية ، وعصيانٍ ممتلكاتها ومستعمراتها .

ومن أهم نتائج الحرب وجميع المؤتمرات التي عقبتْها نقصانُ سلطانِ إنكلترة السياسيِّ والحربيِّ ، فهي بعد أن أضاعت إيرلندة رَضِيَّتْ بأن تُصبح مستقلةً تقريباً مستعمراتها السابقة التي صارت ممتلكاتٍ ، ولاسيا كَنَدَة وأستراليا ، واليوم تطلبُ مصرُ والهندُ بمثل هذا الاستقلال الذاتي .

وتكون أحكامنا حولَ الأمم الأجنبية مُحْتَمَلَةً حتماً ، وذلك لاشتمالِ هذه الأمم على عروقٍ وأديانٍ ولغاتٍ مختلفة ، كما هي حالُ الهند مثلاً ، فالهندُ قارةٌ واسعةٌ يُمكن أن يُبصرَ فيها ، عند التَّنَقُّلِ البسيط ، جميعُ وجوهِ حياة الإنسان منذ عصر الحجر المنحوت حتى عصر التلفون ، فوحوشُ نِغِيرِي ، ومحاربو راجپوتانا المدججون بالسلاح ، والعبادُ الذين تطلبهم إلهتهم القائمة ، على شواطئ أوريسا ، بأن يَسْحَقُوا أنفسهم تحت عَجَلِ عَرَبَتِها ، ينتسبون إلى أمثلةٍ من البشر لا تَرَبِّطُ بينها أيةُ رابطة

كما يُمكن أن يقال ، وذلك إذا عَدَوَتِ الأوهامَ التي يَعرُوها إليهم مُصلحون صِبيانِيون .

واليومَ تشتمل الهند على ٣١٩ مليون آدميٍّ ، أى تحتوى خُمسَ سكانِ العالمِ بِأسرِهِ ، ويتكلم هؤلاء الأهلون أكثرَ من مئتي لغةٍ يَختلف كثيرٌ منها اختلافاً أعظمَ مما بين اليونانية والفرنسية ، وتَقْتَسِمُ سبعةُ أديانٍ ، أو ثمانيةُ أديانٍ ، عظيمةٍ روحَ المؤمنين ، وَيَفْصِلُ أكثرُ من ألفي طائفةٍ بعضَ هؤلاء السكانِ الكثيرين عن بعضٍ بِجوازِ محكمةٍ ، وتَبْلُغُ هذه الفروقُ الاجتماعيّة من الشدّة ما لا يُمكن معه عقدُ زواجٍ بين أعضاء من طوائفٍ مختلفةٍ ، ويعيش سبعون مليوناً منبوذٍ منفصلين عن بقية الأهلين وخاضعين لقوانينٍ خاصّةٍ ، فجميع هذه العناصرِ المتباينة يَجْعَلُ من المتعذر ما يَحْمِلُ به مصلحو الهندوس من حكومةٍ مستقلة .

وليس وضعُ إنكلترةِ الداخليُّ أصلحَ من ذلك ، فهي قد رأت نفسَهَا مضطرةً إلى معاناةِ حكومةٍ اشتراكيةٍ وتموينِ ثلاثة ملايين بَطالٍ ثقيلٍ الوطأة على الميزانية ، وتَظْهَرُ حكومةُ العمالِ الإنكليزيةُ في وضعٍ حَرَجٍ جِدًّا ، وذلك أنها كانت ، قبل قَبْضِها على زمامِ الأمور ، تَعِدُّ بِمعالجة جميع الأمراضِ التي يَألم منها البلد ، ولا سيما البِطالةُ ، غير أن من الطبيعيِّ ألاَّ تستطيع تغييرَ وضعٍ ناشئٍ عن ضروراتٍ مستقلة عن جميع العزائم .

* * *

وَضَعُ ألمانيا - قطعت ألمانيا بعد الحرب دَوْرًا عَصِيْبًا جِدًّا ، فقد اضطرَّت إلى مكابدةِ إفلاسٍ ماليٍّ جَلَبَ الخرابَ إلى عدد كبير من

المواطنين ، ولَسُرْعَانَ ما نَهَضَتْ بفضل قدرة أرباب صِناعتها ورجالها السياسيين على التنظيم فأخذت تَبْدُو ، من فَوْرها ، أولَ دولةٍ في أوربة من الناحية الاقتصادية .

وَنَمَتْ بحريَّة ألمانية وجيشها وطيرانها نموًّا يقضى بالاعجب ، وتَفُوق ألمانية منافستها القديمة ، إنكاثرة ، في الأسواق العالمية .

وخيالُ ألمانية في التفوق الاقتصاديَّ أنعم عليها بنهضةٍ صِناعية عظيمة ، والآن تُجَهِّزُ مصانعها جميعَ الأمم بالآلات الزراعية والخطوط الحديدية التي كانت تشتريها من الولايات المتحدة ، وَيَزِيد دَخْلُ العامل الألمانيُّ على دخل العامل الفرنسيِّ بمقدار الثلث ، وينشأ هذا عما يكتسبه العامل الألمانيُّ في المدرسة وفي الثُّكْنَة من نظام ، وَيَنْشَأُ عن هذا كَوْنُ أَمْنانِ التَّكْلِفَة في ألمانية أقلَّ منها في البلدان الأخرى ، وهذا ما يُسْفِرُ عن تفوقٍ تجاريٍّ لا جِدالَ فيه .

ووضعٌ رائعٌ مثلُ هذا مما يَضْمَنُ لألمانية عظمةً جديدةً مع نهوضها ، بيدَ أنها تنقاد ، بتأثير المتطرفين من جميع الأحزاب ، لأفكارٍ قائلَةٍ بالانتقام وتعديلِ المعاهدات مُهَدَّدةٍ أوربة بحربٍ أشدَّ هَوْلًا من السابقة مؤديةً إلى ختام حضارات الغرب لاريب .

والمسئلةُ هي أن يُعْرَفَ هل تَتَفَقُّ على إيقادِ حربٍ جديدةٍ ألمانيةٍ الراغبة في الإفلات من الغرامة الثقيلة المفروضة عليها ، وإيطالية الطامعة في التوسع ، وروسية التي ترجو نشرَ إيمانها .

ومن يُمنِ سكونِ أوربة عجزُ ألمانية عن تجديد تسلحها حتى الآن وعجزُ روسية عن القيام بحربٍ خارجِ حدودها ، وليس تحالفُ ألمانية وإيطالية وروسية الممكنُ نظرياً مما يسهل تحقيقه في هذه الأيام ، أجل ، سيقعُ هذا التحالفُ في بضع سنين ، غير أن من المحتمل أن يدرك الألمانُ ، حينئذٍ ، إمكانَ إغناء النزاعِ الاقتصاديِّ للغالبين مع أن مصيرَ الغالب والمغلوب إلى الحرب التامِّ في النزاعِ الحربى .

* * *

وَضَعُ بُولُونِيَّة — اليَوْمَ تَنَمُّ بُولُونِيَّةٌ عَلَى نَاحِيَةٍ قَاتِمَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ الْأُورِيَّةِ ، وَيَعُدُّ هَذَا الْبَلَدَ الْكَبِيرَ مِنَ الْبُلْدَانِ الَّتِي تَدُلُّ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا عَلَى مَا تَصِيرُ إِلَيْهِ الْأُمَمُ الْمَقْسُومَةُ بَيْنَ أَحْزَابِ سِيَاسِيَّةٍ مُتَنَافِسَةٍ ، فَبَعْدَ أَنْ قُسِّمَتْ بَيْنَ جِيرَانِهَا وَوُحِّمَتْ مِنَ التَّارِيخِ السِّيَاسِيِّ أُعِيدَتْ إِلَى الْوُجُودِ بِالْحَرْبِ ، غَيْرَ أَنَّ الْوَحْدَةَ الْمَادِيَّةَ لَمْ تُنْعَمَ عَلَيْهَا بِالْوَحْدَةِ الْأَدْبِيَّةِ ، وَهِيَ لَمْ تَحْفَظْ عَلَى كِيَانِ تَهْدِّدِهِ رُوسِيَّةً وَأَلْمَانِيَّةً كُلَّ يَوْمٍ إِلَّا بِنِظَامِ دِكْتَاتُورِيٍّ فَقَطْ ، وَإِلَيْكَ كَيْفَ دَلَّتْ إِحْدَى الصُّحُفِ الْأَجْنَبِيَّةِ فِي الْأَسْطُرِ الْآتِيَةِ عَلَى الْأَخْطَارِ الَّتِي تُطَوِّقُ حَيَاةَ بُولُونِيَّةِ :

« أَصْبَحَتْ بَرُوسِيَّةُ الشَّرْقِيَّةِ وَاقِعَةً ضَمْنَ بُولُونِيَّةِ ، وَفُصِّلَتْ دَنْزِيغُ ، الْأَلْمَانِيَّةُ بِنِسْبَةِ ٩٧ ٪ ، عَنِ الرِّيخِ مَرَاعَةً لِبُولُونِيَّةِ ، وَخَسِرَ سَكَانُ التَّخُومِ الْأَلْمَانِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مَا وَرَاءَهَا وَوُجِدُوا فِي حَالٍ مِنَ الْإِنْخِطَاطِ الْاِقْتِصَادِيِّ ... وَالْآنَ لَا تَزَالُ الْحَالُ الرُّوحِيَّةُ الْمَعَادِيَّةُ لِبُولُونِيَّةِ وَالسَّائِدَةُ لِأَلْمَانِيَّةِ نَكِدَةً

جِدًّا ، فيجب أن يقال إن العلاقاتِ الألمانيةِ البولونيةِ من أسود نقاطِ السياسةِ الأوربيةِ .

وكان يُمكن أن يصبح شأنُ بولونيةِ السِياسىِّ عظيمًا لو دُعيتْ مع رومانيةِ إلى تأليفِ حاجزٍ أمام ما يُمكن وقوعه من غزواتِ الجيوش البلشفيةِ .

* * *

وَضَعُ النمسة — ذهبت النمسة ضحيةً خطأً سياسىِّ اقترفه رجلُ النظرِ الأمريكىُّ الذى ظَهَرَ دكتاتورَ معاهدةِ الصلحِ الحقيقىِّ ، فقد فُصِّلتْ عن أجل ولاياتها وأخذت تقضى حياةً صعبةً جدًّا ، ومن الطبيعىُّ أن تحلمَ بضمِّها إلى ألمانيةِ التى تعيد إليها ازدهارها الماضى ، ويُعدُّ هذا الضمُّ الذى لا مفرَّ منه من أعظم المشاكلِ السياسيةِ فى الوقتِ الحاضرِ ، ومن الواضح أن يُقلِّقَ هذا الضمُّ بالَ إيطاليةِ وبالَ أمِّ ظافرةٍ أخرى ، ومع ذلك فسيتمُّ بالتدرجِ ضمُّنَ مدةٍ لا تزيد على ستِّ سنين لا ريب .

وستكون نتيجةُ هذا الضمِّ النهائيةُ جعلَ ألمانيةِ أكثرَ قوةً وأعظمَ مما كانت عليه قبل الحرب ، وهناك يُرى تجددُ « إمبراطوريةِ جرمانيةِ ، إمبراطوريةِ شارلكن ، التى كانت مستقرةً بثينة فتستقرُّ الآن ببرلين » كما أنبأ به مسمو تييرُ بعد معركةِ سادووا .

* * *

وَضَعُ بلجيكة — تُعدُّ بلجيكة ، أيضاً ، مثلاً للمصاعب التى تعانها الأمم الأوربية حتى تفوزَ بشيء من الاستقرارِ السياسىِّ ، فهى مقسومة إلى قسمين

متساويين بمبادئ دينية واجتماعية متباينة ، ويزيدُ هذا التنافسُ تعقداً بتنافس العروق .

وكذلك المشاكلُ الاجتماعيةُ زادت في بلجيكة ، وذلك لأن العرقين اللذين يعمُرانها ، وهما فلامانُ الشمال وُقَالونُ الجنوب ، يتكلمان لغتين مختلفتين ويُظهِران مشاعرَ مختلفةً أيضاً ، وللفلّامانِ مناحٍ انفصاليةٌ يُمكن أن تكون حَظَرَةً على مستقبل البلد ، وتبدو مطالبُهُم السياسيةُ عظيمةً جداً أيضاً ، فهم يطالبون بأن تكون مدةُ الخدمة العسكرية سنةً أشهر وبأن تُفَتَّحَ مدارسُ فلامانيةٌ خاصة ، إلخ .

* * *

وَضَعُ إسبانية وإيطالية — لم يُفَلِّتْ هذان البلدان من الفوضى ، التي تنشأ عن تحقيق الاشتراكية ، إلا بفضل دكتاتورياتٍ شديدةٍ رَضِيَ بها جميعُ من أتعبهوم عدمُ النظام .

ولكنه يُجْهَلُ ما يصير إليه هذان البلدان الكبيران إذا عاد لا يكون على رأسهما أولئك السادة الفعّالون الذين وُقِفُوا للقضاء على الفوضى .

والآن تقضى إيطالياُ حالَ سعادةٍ لا عَمَدَ لها به أيام كان مختلفُ الأحزاب السياسية ، كما هو أمرُها في فرنسا ، يناضل للوصول إلى السلطة ، لازيادة سعادة البلد ، وكذلك الصنّاعةُ قد نَمَتْ ضِمْنَ نطاقِ الإمكان لدى هذه الأمة التي ليس عندها فحمٌ حجريٌّ ، وما كان قد ضاع من جهودٍ في الخصومات السياسية سابقاً خُصِّصَ اليوم لإصلاح الوضع الاقتصادي .

ومهما يكن مستقبلُ الدكتاتورية فإنها تؤدي إلى نتيجةٍ ثابتةٍ تُمنَحُ بها

إيطالية عاداتٍ في النظام والتدريب وحبّ العمل واحترام السلطة ، أى أموراً لا يستطيع بلدٌ حديثٌ أن يزدهر بغيرها .

* * *

وَضَعُ دول البلقان الجديدة - لم يكن الرئيسِ ولسُن لِيَتَمَثَل ما كان يُعَدُّ من مصائبَ حينما كان يتصرف ، عند وضع معاهدة الصلح ، في سلطانه المطلق الذي هَيَّأته له الأحوال فيَقَسِّمُ أوربة الوسطى إلى دُوِيَلَاتٍ مستقلة باسم مبدأ القوميات الخائب ، فدولُ البلقان ، كشيكوسلوفاكية ويوغوسلافية ، التي أقيمت على وجه مصنوع هكذا ، والتي كانت تعيش هادئةً أيام كانت من أجزاء النمسة ، تتخاصم دائماً ويتآلف منها خطرٌ جِدِّيٌّ يَهْدِدُ سَلَمَ أوربة ، وما فتئت كِرَوَاتِيَّة تكون على خصامٍ مع صربية منذ سنة ١٩٢٨ مطالبةً بانفصالها عنها ، فيتشاجرُ نُوَّاب الصَّرب والكروات في البرلمان ، ويطالب الكرواتُ بالاستقلال الذاتيَّ ويُعَلِن الصرب مقاومتهم ذلك بالقوة ، ويُصَرِّح الكرواتُ بأن « يُوغُوسلافية لا تستطيع البقاء تحت الطغيان الصربيُّ » .

وفي حديثٍ بين زعيم اتحادى الكروات ومراسل « الدبلي ا كسپرس » يقول

هذا الزعيم :

« هذه هى خاتمة الطاف ، فمن المتعذر تماماً أن نداوم على إخلاصنا الماضى نحو الصرب . . . نحن لا نفكرُ في تجزئة المملكة ، ولكننا نطالب بأن تُحَرَّر كرواتية من تدخُلِ بلغرادَ وفسادها ، وأنتم تروُن بأنفسكم أننا أمةٌ غريبةٌ تماماً وأننا ذوو مزاجٍ نفسىٍ يختلف عن مزاج الصرب اختلافاً تاماً » .

وليس الوضعُ في بقية البلقان أحسنَ من هذا ، فما بين بلغارية

وَيُؤْغِوَسَلَاْفِيَةً مِنْ اِخْتِلَافٍ يَحْمِلُ بَذورَ الوَعِيدِ دَائِمًا .

* * *

وهناك عواملُ شقاقٍ كثيرةٌ أُخرى تُهدِّدُ السَّلْمَ الأوربيَّةَ ، ومن بينها ذكرتُ جريدةٌ كبيرةٌ ما يأتي :

« حَسْرَةٌ إِيْطَالِيَّةٌ الَّتِي تَأْتِي مِنْ سَوْءِ إِنْصَافِهَا ، وَسَخَطٌ هَنْغَارِيَّةٌ الْمَبْتُورَةُ الْبَادِي ، وَغَضَبٌ بَلْغَارِيَّةٌ الْمُضَيِّقَةُ ، وَوَضْعٌ لِيْتَوَانِيَّةٌ تَجَاهَ بُولُونِيَّةٍ ، وَوَضْعٌ لِيْتُونِيَّةٌ تَجَاهَ رُوسِيَّةٍ ، وَادْعَاةُ الألمانِ حَوْلَ مَرِّ دَنْزِيْبِغِ ، وَليْسَ مِنْ شَأْنِ مَطَالِبِ هَذِهِ « الْقَسَائِمِ السَّيْئَةِ » ، مُضَافَةً إِلَى أَلُوفِ الحَوَادِثِ الَّتِي قَدْ تَنَشَأُ كُلَّ يَوْمٍ عَنِ الحُدُودِ الجَدِيْدَةِ البَالِغَةِ سَبْعَةَ أَلْفِ كِيْلُومِترٍ ، أَنْ تُسَهِّلَ الهُدُوءَ وَالوِفاقَ الأوربِيَيْنِ الَّلَّذِيْنَ يَصُعبُ بغيرِها تَصُورُ قِيَامِ السَّلْمِ الأوربِيَّةِ ، حَتَّى مَعَ تَدخُلِ جَمِيعَةِ الأُمَمِ وَتَوَسُّطِهَا » .

وَتَبْذُلُ بِلدانُ أورْبَةِ العَظِيْمَةِ ، بِتَأثيرِ جَمِيعَةِ الأُمَمِ ، جِهودًا مُستَمِرَّةً فِي سَبيلِ اتِّحَادِها وَلوَقَليلًا ، وَمَا يُورِثُ النُفوسَ يَأْسًا مِنْ أَسبابِ العَقلِ أَلَّا يَنْتَهِيَ أَقْطابُ السِّيَاسَةِ المِجْتَمَعُونَ فِي جَنيفِ إِلَى إِدراكِ ضَرُورَةِ التَّعاوُنِ تَجَاهَ الأَخْطارِ المَتَوَعَّدَةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ .

* * *

وَضَعُ رُوسِيَّةٌ — مِنْ العَبثِ أَنْ تُفَصَّلَ حَالُ البُؤْسِ الَّتِي عَرِقتُ فِيها هَذِهِ الإمبراطوريَّةُ الواسِعَةُ بِفعلِ الثُورَةِ البُلْشَفيَّةِ ، وَتَجْعَلُ حُكُومَتُها الشَّرْطِيَّةُ ، القَائِمَةُ عَلَى الهَوْلِ قَطْطًا ، أَمْرَ الحَيَاةِ قَاسِيًا جِدًّا لَدَى جَمِيعِ المِوَاطِنِ ، فَقَدْ قَامَتِ اشْتِراكِيَّةٌ حُكُومِيَّةٌ مُبالِغَةٌ فِي التَّدقيقِ مَقامَ الصَّناعَةِ الخِصاصةِ وَزادَتْ وَطَاءً

الأزمة الاقتصادية التي تَعَقَّبُ أدوارَ السلب والقتل ، وقد وُقِفَت مصادر بيت المال على إيجاد جيش يَقُودُهُ متعصبون يُمكنُ عقائدَهُم السياسية ذاتَ الشكل الدينيَّ أن تكون بالغةَ الخَطَرِ على سَلْمِ أوربة ، وعلى سلام العالم أيضاً .

* * *

وَضَعُ آسية — آسية فريسةُ مصاعبَ أعظمَ من التي تَقَلِّبُ أوربة ، والصينُ ، على الرغم من قِدَمِ نُظْمِهَا ، وبسبب هذا القِدَمِ البالغ على ما يحتمل ، تَذَهَبُ منذ سنينَ كثيرةٍ ضحيةَ الحروب الأهلية التي تُهدِّدُ بتخريبها .
وإذا عَدَوْتَ الحَقْدَ على الأجنبيِّ ، المشتركِ بين جميع الأحزاب ، لم تَجِدْ بَعْدُ ظهورَ أىِّ مبدأٍ جديدٍ في هذه الإمبراطورية الضخمة قادرٍ على تأليف ما بين النفوس .

* * *

وَضَعُ اليابان — لا يزال الدورُ الذي ستمثله اليابان في العالم الآسيويِّ مشكوكاً فيه بعدُ ، ففي الشرق الأقصى ، على الخصوص ، قد أصبحت مُفضِلةُ السكان هائلةً ، وما ذكرتهُ في كتابٍ سابقٍ كَوْنُ زيادة السكان في ذلك الطرف الأقصى من العالمِ ستُؤدِّي إلى حروبٍ جديدةٍ حتماً .

وترى اليابانُ ، الزاخرةُ بالأهلين ، سكانها يزيدون مليوناً في كلِّ عامٍ باستمرار ، فعادت لا تَدْرِي ما تَصْنَعُ لإعاشتهم ، ومن المتعذر إرسالهم ، كما كانت تَحْمِلُ ، إلى الولايات المتحدة التي استطاعت ، بفعل الحرب الأوربية ، أن تَبْنِيَ أسطولاً وتُنشِئَ جيشاً يجعلانها في مأمنٍ من جميع الغارات ، وبما أن الصينَ نفسها أكثرُ زَخراً بالسكان ولا تستطيع أن تَقْبَلَ فائضاً من الأهلين فإن اليابان

ستوجّه جهودها إلى جهة مَنشورية على الأرجح .
ولا يُوجد ما يُحشَى كثيراً من معارضة الروس لذلك ، فقد أصبحت حضارة
اليابان وقوتها العسكرية أعلى مما عند روسية .

* * *

وَضَعُ الجُمهوريات اللاتينية في جَنوب أمريكا — أوضحتُ في كتابٍ قديمٍ
بعضَ القِدَمِ كونَ الجُمهوريات اللاتينية الأمريكية عُرْضَةً لِقَوضى دَائِمَةٍ بسببِ توالدِ
العروقِ الأهليةِ الأصليةِ بعِرْقِ الفاتحين من الإسبان .

وما انفكت هذه النبوءةُ تتَحَقَّقُ ، فقد رأينا في سنينَ قليلةٍ أن البيرو
وَبُوليفِيَّةَ والأرجنتين والبرازيل ، دَعَّ المكسيكَ ، فريسةَ الحروبِ الأهليةِ
وصولاً إلى تغييرِ حكوماتها مرةً أخرى ، ومع ذلك فإن هذه الحكوماتِ ليست
غيرَ دِكْتاتورياتٍ بسيطةٍ على أشكالٍ مختلفةٍ وإن اتخذتْ نُظْمَ الولايات المتحدةِ
نماذجَ لها ، وما كان ليُوجدَ مثالٌ أصْلَحُ من هذا لإثباتِ مقدارِ اتِّباعِ النُظْمِ
السياسيةِ لنفسيةِ الأممِ التي تدعوها إلى الحكمِ ، لا للأوهامِ التي يتصورها
النظريون البالغو الجهل للضروراتِ التي تُسَيِّرُ الناسَ في الحقيقةِ .

ومع ذلك فإن تَدَخُّلَ حكومةِ الولايات المتحدةِ بالتدريج أمرٌ لا مفرَّ منه
إزاء انحطاطِ الجُمهوريات اللاتينية الزائد ، وذلك كما صنعتْ تجاه كوبا وهايتي ، إلخ .
وقد بدأ نفوذُ الشمالِ الأمريكيِّ بالتحكيمِ ، وسينتهى بالاستعمارِ لارِيبِ .

* * *

ويعتقد ممثلو جمعية الأمم أنهم يستطيعون إقرار السلام في العالمِ بنزعِ عامٍ
للسلاح ، ومع ذلك فإن نزعاً للسلاح كهذا لا يُجْدِي نفعاً ، فما يَلوح وضوحه

بالتدريج ، كما هو واقعٌ ، أن الحروب القادمة ستكون حروباً جويةً تقتصر أسلحتها على قنابل مشحونةٍ بالمتفجرات أو على غازات سامةٍ ، والحق أن الطائرة الحربية لا تختلف عن الطائرة التجارية إلا بما تنقل من موادٍ فلا يبصر مقدار ما ينطوى عليه نزعُ السلاح من صحةٍ في الوقت الحاضر .

وبما أن الحروب القادمة تلوحُ أكثرَ تقيلاً من الحروب الماضية بدرجاتٍ فإن من الصواب بذلَ الدُّبلمين جهودهم لاجتنابها ، وقد وُقِّعوا لذلك حتى الآن ، غير أن مجزهم عن خلقِ جَوِّ سَلْمِيٍّ كان من الثبوت ما يُسأل معه عن إمكان حدوث هذا نظراً إلى نفسية أمم أوربة في الوقت الحاضر ، وسينشأ عن هذا كثيرٌ من الصعوبات ، وذلك للقوة الهائلة التي تنطوى عليها المشاعر الجماعية : السخطُ والحقدُ والكرامةُ المكلومة ، إلخ . ، ويُقربُ كثيرٌ من البلاد العظيمة في أوربة ، مع التوكيد ، عن عزمه على اتخاذ العنف وسيلةً لتلافي الإجحاف الذي يعتقد ذهابه ضحيةً له ، حتى إن إيطالية وألمانية لا تحاولان كَسْمَ مشاعرها من هذه الناحية ، وتُرمى روسية ، التي استحوذت عليها أوهاًمٌ سياسيةٌ بالغةٌ قوةً الأوهام الدينية ، مستعدةٌ للاشتراك مع الأمم التي تخوض غمار الحرب . وتقوم المُعضلةُ الحاضرة الكبرى على إحلال سَلْمِ الوفاق محلَّ السَلْمِ المسلَّح ، ولا يزال حَلُّ هذه المُعضلة غيرَ بادٍ .

الفصل الثالث

سادة العالم الجُدُد

التفوقُ الأمريكيُّ

أمريكاُ الشماليَّة وحدها هي تشتمل ، وَسَطَ الانقلابِ العالميِّ ، على سعادةٍ تَقَصَّتْ قليلاً في الوقتِ الحاضر ، ولكن مع زيادتها زمنًا طويلاً في الماضي ، وتقوم هذه السعادةُ ، خاصةً ، على كَوْنِ الولاياتِ المتحدةِ قد لاءمتُ بالتدريجِ ممتضياتِ الاقتصادِ التي لم يُدْرِكْ مُعْظَمُ الأممِ أمرَها حتى الآن .

وعَرَفَتْ أمريكاُ ما يَهْدِدُ الحضاراتِ الأوربيةَ من مخاصمات ، فقد عانت حرباً أهليةً هَلَكَ فيها صَفْوَةٌ مواطنيها ، وكذلك عَرَفَتْ ما بين رأسِ المالِ والعملِ من نزاع ، كما عَرَفَتْ استبدادَ النقاباتِ ووعيدَ الاشتراكيين ، ثم خَرَجَتْ الولاياتُ المتحدةُ من دَوْرِ الفوضىِ نهائياً واهتدت بدوى البضائرِ من أبنائها فأحَلَّتْ تعاونَ جميعِ الطبقاتِ محلَّ المنافساتِ والأحقادِ التي ما فتىء الاشتراكيون يهددون بها أوربة ، وتكاد الولاياتُ المتحدةُ تجهلُ ديانةَ عديمي اللثامِ هؤلاء ، ويخضع عديمو اللثامِ في الولاياتِ المتحدةِ للقانونِ بدلاً من أن يَصْعُوه .

وإذا حُكِمَ في قيمةِ النظامِ بنتأجه ، لا بروعةِ نظرياته ، اعترِفَ بأن مبادئِ الولاياتِ المتحدةِ الحكومِيَّةِ أشدُّ تأثيراً من مبادئِ الاشتراكيين الأوربيين .

وأُسْفِرَ تضامنُ العملِ ورأسِ المالِ عن منحِ الطبقاتِ المُجِدَّةِ يُسْراً لا عهد

لأكثرية البرجوازية الأوربيين الساحقة بمثله .

ويحاول قادة الولايات المتحدة إبقاء المثل العليا القائمة على ما فيها من وهمٍ لِمَا يَعْرِفُونَ من شأنِ المثل الأعلى في مصير الأمة ، وهذا تطبيقٌ اجتماعيٌّ لذرائعية الجامعات الأمريكية القريبة من نَفَعِيَّةِ فلاسفة الإنكليز ، وإذ أصبحت المنفعة مقياسَ القِيمِ الاجتماعية فإن الأمريكيَّ يعاني كثيراً في المحافظة على معتقداته القديمة كما يعاني العقلُ اللاتينيُّ في تقويضها .

أجل ، إن الولايات المتحدة لم تُدَوِّنْ حقوقَ الإنسان باحتفالٍ ، غير أنها تَجَهَّلُ فروقَ الطبقات التي حافظت عليها أوربة بنظام المسابقات القائمة على الاستظهار ، فالعاملُ والقاضي والحامي والأستاذ يتمتعون باعتبار واحد ، ويسهلُ الانتقالُ من طبقةٍ إلى أخرى لأن مُعْظَمَ الوظائف انتخابيٌّ ، وصار أناسٌ من العتالة حكامَ ولايةٍ ، ورؤساءُ جمهوريةٍ أيضاً ، ويرضى فتيانٌ من أسرٍ صالحة أن يكونوا خدَمَةَ قهوةٍ مساءً ليدفعوا أجرَةَ دروسهم .

وماتمَّ من تجديدٍ في العمل أدى إلى جعل العامل الأمريكيَّ متخصصاً كثيراً الإنتاج بالتدرج ، ويبقى هذا الوضعُ نافعاً جداً إلى أن يُسْفَرَ عن فرطٍ في الإنتاج ويؤدي إلى الاستهلاك الأدنى الموجب للبطالة ، ونُبْصِرُ بُدْءَ هذا الدور ، ومن الممكن أن يَنْجُمَ عنه استياءٌ شعبيٌّ شديد من النوع الذي كان مقدماً للانقلابات السياسية في جميع أزمنة التاريخ .

واليومَ تَرَى الولايات المتحدةَ دائنةً لأوربة بعد أن كانت مَدِينَةً لها ، وهي إذ تَبْدُو فخوراً بنجاحها فإنها تعود مخاطبتها بالتدرج كما يخاطب السيدُ مولاه ناظرةً بازدراءً إلى هذه القارة القديمة التي يَقْرُضُها

وعيدُ الصِّراعِ بين الأممِ وتنازعُ الطبقاتِ في قلبِ كلِّ أمةٍ .

ولهم أن يُبدوا هذا الازدراءَ بلا عِقابِ بمقدارِ ما تؤدي إليه قروضُ الحربِ المتتامةُ من انتقالِ مُعظمِ الثروةِ الأوربيةِ إلى الولاياتِ المتحدةِ ، وبفضلِ هذه القروضِ استطاعتِ ألمانيا أن تؤديَ قسماً من دينها كما أصابِ مستر كولدج في ملاحظته .

بيدَ أن خطأَ الولاياتِ المتحدةِ يتجلى في زيادةِ التعريفاتِ الجمركيةِ التي تجعلُ الإصداراتِ متعذرةً تقريباً في آخرِ الأمرِ ، فكلُّ يَعْلَمُ أن الاستيرادَ عند كلِّ الأمةِ لا يُمكنُ دَفْعُ ما يقابلهُ إلاً بالإصدارِ ، فإذا ما أغلقتِ أمريكاُ حدودَها دونِ المُنْتَجَاتِ الأجنبيةِ جَعَلَتْ من الصَّعْبِ على أوربةِ دَفْعَ الديونِ المعقودةِ .

ومع ذلكِ فإن حكوماتِ الولاياتِ المتحدةِ تَعْرِفُ جيِّداً أن العالمَ القديمِ إذا كان لا يستطيعُ أن يستغنىَ عن بعضِ المُنْتَجَاتِ الأمريكيةِ كالثقن فإن أمريكاَ المشتملةَ على ١٢٣ مليونِ إنسانٍ تستطيعُ الاستغناءَ عن المبادلاتِ التجاريةِ ، مادام ٩٢٪ من منتجاتِ أرضها وصناعاتها يُستهلكُ من قِبَلِ سكانها .

* * *

ويستند ما يدَّعيه الأمريكيون من تفوقِ سياسيِّ واقتصاديِّ وأدبيِّ إلى قوةٍ عسكريةٍ هائلةٍ تَزِيدُ كلَّ يومٍ على الرغمِ من التصريحاتِ السَّلميةِ الكثيرةِ ، وبالكلمةِ الآتيةِ أشارَ الرئيسُ كولدجِ إلى قوةِ بلدهِ العسكريةِ قبلِ انتهاءِ سلطتهِ :

« لدى بلدنا من الوسائلِ والأخلاقِ والروحِ اللازمةِ لَجَمْعِ ، وتجهيزِ ،

وحفظ ، ما يحتاج إليه جيشٌ وبحريةٌ ساعدًا ، بقذف أكثر من مليوني نفسٍ في ميادين القتال بأوربة ، على تقرير هُدنة ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨^(١) .
 وإذ نُظِرَ إلى قوة الولايات المتحدة البرية والبحرية ، التي هي نتيجةُ الحرب الأخيرة ، لم يُوجَد ، إذن ، غيرُ ما قد تخشاه في زمنٍ قريبٍ أو بعيدٍ من أخطارٍ يُمكن أن تنشأ عن فضلةِ سكانٍ أو غزوٍ يابانيٍّ .
 وكان اكتشافُ قوةِ الولايات المتحدة الحربية إلهامًا نافعا لأوربة وأمريكة معًا ، فاستمعَ قولَ مستر كُولِدْج :

« لا تَجِدُ بلدًا ، في موضوع القوة وموضوع وَحدةِ بلدنا ، أبدى روحًا أروعَ مما أبدينا وأظهر شعورًا وطنيًا أرفعَ مما أظهرنا ، فما اتصف به أربابُ صِناعتنا من قدرةٍ كبيرةٍ على التنظيم ، وما تنطوى عليه وسائلنا المالية من طاقةٍ لا رَيْبَ فيها ، وما بذله الجميعُ من مساعدةٍ حَوْلَ الخدمة العسكرية الإلزامية والزراعة والصناعة والخطوط الحديدية والبنوك ، وما كان من وجود أربعة ملايين رجلٍ تحت السلاح ووجود ستة ملايين رجلٍ احتياطيٍّ ، أمورٌ أسفرت عن قدرةٍ صائِلةٍ لمواصلة الحرب ، وقد تألف من هذا المجموع قوةٌ أعظمُ مما قَدَرَتْ على جمعه أيةُ أمةٍ كانت » .

ومما لا مرأى فيه أن نفقاتِ أمريكة في سبيل الحرب كانت ضخمةً كما ذَكَرَ مستر كُولِدْج ، فقد مَثَلَتْ « نصفَ مجموع ثروة البلد حين اشتراكه في الصِّراع » .

وفي الخُطبةِ نفسها أسهبَ رئيسُ الولايات المتحدة ، على الرغم من تحفظه

(١) من الخُطبة التي ألقاها مستر كُولِدْج في ٣ من نوفمبر سنة ١٩٢٨ .

السياسي ، في بيان اختلافِ وجهات النظر بين أوربة وأمريكا ، ومع ذلك فإن مبادئ الحكومة الأمريكية حَوْلَ نزعِ السلاح تختلف كثيراً عن المبادئ التي يجادل فيها في جمعية الأمم .

قال مستر كُولْدِج : « تُثَبِتُ تجاربُ الإنسان ، كما يَلُوح ، أن البلد الذي يُعِدُّ دفاعه إعداداً معقولاً يُعَرِّضُ قليلاً لهُجُومٍ مُعَادٍ ، كما يَقِلُّ تَعَرُّضُ حقوقه لانتهاكٍ مؤدٍ إلى حرب .

« . . . وتقتضى سُنَّةُ التقدمِ الأولى أن يواجه العالمُ الحقيقةَ ، ومن الواضح أيضاً كونُ العقل والوجدان لم يسيطرَا على أمور البشر حتى الآن ، ومن البعيد جداً أن تُتَلغى غريزةُ الأثرَةِ الموروثةُ عن الأجداد ، فقوى الشرِّ بالغةُ القدرة . »

وحَوْلَ أوربة وحدها بَصْرَحَ عَيْنُ الخطيب بأن من المفيد تحديدِ التسلحِ ، فقد قال :

« إننا نتمنى السَّلْمَ عن اعتقادِ صوابها فضلاً عن أن الحرب تعوقُ تقدمنا ، وقد بلغت مصالحنا في كلِّ مكانٍ من العالم ما يَضُرُّ بها ضرراً بالغاً كلِّ صِرَاعٍ ساطعٍ حينما يَقَعُ ، ولولم نشترك في الحرب العالمية ، على الرغم من بعض الفوائد التي نلناها منها بالإصدار ، لأصابنا خُسْرٌ كبير ، وذلك بقطع النظر عن الفريق الغالب في نهاية الأمر . »

وهذا التصريحُ يوضحُ السببَ في انضمام الولايات المتحدة إلى الحلفاء في الحرب الأخيرة ، ومن السذاجة أن افترسنا اشتراكها في الصراع العالميُّ دفاعاً عن النظريات اللاتينية الموصوفة بالحقِّ والحرية ، والواقعُ أن أمريكا

ترددتُ حيناً من الزمن حَوْلَ معرفة فريق المحاربين الذى تنحاز إليه ، فإذا كانت قد انضمت إلى الحلفاء نهائياً فذلك لأن مبدأ المنفعة ، أى الدفاع عن مصالحها الخاصة ، قد أملى عليها هذا الخيار .

ونشأ دخولُ أمريكا في الحرب عن اضطرارها إليه كما اعترف بذلك الرئيسُ كُولِجُ نفسه ، غير أن هذا القطبَ السياسىَ أخطأ في توكيده في قسمٍ من خطبته أن أمريكا لم تَفْزُ بغير فائدةٍ قليلة من وراء ذلك .

ومن فَوْرها أصبحت هذه الأمةُ الصَّنَاعِيَّةُ والتجاريةُ المحميةُ بمليشيا ضعيفةٍ حتى ذلك الحين والمُهَدَّدةُ من قِبَلِ المكسيك ، ولا سيما اليابانُ الراغبةُ أن تَصُبَّ عليها ما يَفِيضُ من سكانها ، أُولَى دول العالمِ الحربيةِ ببحريتها وجيشها ، وذلك في مقابل نفقاتها التى عادت لا تَعُوقُها اليومَ ، فصارت اليابانُ ، التى كانت تخشاها كثيراً فيما مضى ، لا تَبْدُو لها غيرَ عَدُوَّةٍ صغيرة ، ولم يَبْقَ على أمريكا إلا أن تَبْسُطَ يَدَهَا للاستيلاء على ثرواتِ المكسيك الضخمة ، وتَخاطِبُ أمريكاُ العالمَ بلهجة السيد ، وأصبحت لا تخاف أحداً مع أن جميع العالمِ يخافُها .

وإذا نَظَرْنَا إلى الأمر من الوجهة التجارية حَصراً وَعُدَّ التفوقُ العالمىُ قَدراً تجارياً أمكنَ الولاياتِ المتحدةَ أن تقول إنها حَقَّقَتْ ، بِنَيْلِها مثلَ هذا التفوقِ ، فائدةً واسعة غيرَ منتظرة .

وعلى العكس خَرِبَتْ أوربة بالحرب ، واجتاحت أغنى ولاياتِ فرنسا فتعيش اليومَ بالقروض ، وسيتمُّ خرابُها إذا ما دَفَعَتْ إلى أمريكا ما هى مدينةٌ به من المبالغ تجارياً ، ولكن مع كَوْنِ استخدامها أوجب قدرة

هذا البلد العظيم الحاضرة على الخصوص .

وفي الكلمات الآتية الصائبة بين السياسي الفرنسي النفاذ ، مسيو تارديو ،

ما يفصل بين القارتين في الوقت الحاضر من اختلاف :

« تفصل هوة من الأحوال المتناقضة بين العالم الجديد والعالم القديم

الدايمي المعوز... وكسبت أمريكا كل ما خسرت أوربة ، وكانت الحرب

نافعة لها قبل دخولها ، وأيام اشتراكها فيها ، وبعد خروجها منها ، فالحرب

أصبحت قوتها أكثر من ضعفين ووضعت أسس إمبراطورية جديدة ، وبالحر

أسفر رخاؤها الذي أثنى عليه منذ زمن السلم السعيد عن معارضة تقدمها

بفاقة أوربة ... وتزيد قدرتها على الإنتاج ، ويزيد إنتاجها نفسه ، زيادة

متوازية ، وتنفص مدة العمل الأسبوعية على حين تزيد الأجور التي يسبق

ارتفاعها ارتفاع الأثمان ... ويوجد بين القارتين تفاوت يفوق الحد ...

وتحسه الأمزجة ، وتقلق أوربة كالضعفاء ، وتتحكم أمريكا كالأقوياء ...

ويسكن الصراع الاجتماعي ، وتثق ملايين العمال بالمستصنعين الذين أوجبوا

رفاهيتها بعقرتهم ، ولا تنال الاشتراكية غير آخر مكان في الولايات المتحدة

حينما توسع رقعتها في أوربة . »

وبما أن المبادئ الموجّهة لسياسة الولايات المتحدة جعلت من هذه الجمهورية

العظيمة أول دولة سياسية في العالم فقد نشأ عن هذا ذلك الميل إلى الصدارة

التي يؤدي إلى حدودها حس القوة .

غير أن النتيجة النهائية لصدارة إحدى الأمم هو أن تتألب على هذه الأمة

جميع الأمم التي تذهب نخيتها ، وقد شعر بهذا كل من إسبانية وإنكلترة

وفرنسة وألمانية مناوَبَةً وَسُجِّرَبُ الولايات المتحدة ذلك ذات يومٍ لا ريب ،
ومن المحتمل أن تساعد الهَيْمَنَةُ الشديدة الوطأةِ بالتدرّج على إحداثِ
ولاياتٍ متحدةٍ أوروبيةٍ مع صعوبة هذا ، وذلك على الرغم من المزاومات
عميقة والأحققاد المتأصلة التي تُفَرِّقُ بين أجزاء القارّة القديمة في هذه الأيام .

* * *

أوضَحَتِ المبادئُ الموجهةُ لسياسة الولايات المتحدة في الوقت الحاضر ، والتي
هي أساسُ عظمتها ، إيضاحاً حسنًا ، من قِبَلِ الرئيسِ مستر هُوڤر ، وذلك
في نشرةٍ أَسْتَعِيرَ خِلاصَتَهَا من السيد فِرْمِنْ روز :

« يُسْتَقُ التقدّمُ الجَماعِيُّ من التقدّمِ الفرديِّ ، ويقوم خطأ الاشتراكية
على الاعتقاد بأن محبة الآخرين واستبدادَ الدولة يكونان دوافعَ كافيةً للنشاط ،
فيجب أن يُضْرَبَ بكلِّ رغبةٍ في تأميمِ الصناعة عُرْضَ الحائطِ .

« وقد كَذَّبَتْ جميعُ المشاهداتِ مبدأً المساواة ، فإمكان التقدّمِ يتوقف

على التفاوتِ .

« ويُعدُّ اصطفاه القابلياتِ الموجهةِ أمرًا ضروريًا لازدهار البلادِ .

« ويتمُّ التقدّمُ بصفوة الرجال ، ولاعمل للجماعة في التقدّمِ ، فالجماعةُ

لا تُخَضِّمُ لغير اندفاعات الإحساس ، ولا يتمسكُ زعماءُ الفِتنِ بغير هذه

الاندفاعات ، ويُحرِّكُ هؤلاء الزعماءُ رغائبَ الشعبِ التي لا تُعْبَرُ عن

الاحتياجات الحقيقية .

« ولا تُدْرِكُ احتياجاتُ الشعبِ إلّا من قِبَلِ القادة الذين يتصفون

بروح البناءِ .

« وَيُعَدُّ حَقُّ التَّمَلُّكِ الَّذِي يَرِيدُ الْإِشْتِرَاكِيُونَ هَدْمَهُ مِنْ أَقْوَى عَوَامِلِ نَشَاطِ الْأَفْرَادِ .

« وَتُصَبِّحُ الْمَصَانِعُ الَّتِي يَزِيدُ نَمُوُّهَا عَلَى إِمْكَانِيَّاتِ الْأَفْرَادِ جَمَاعِيَّةً قَسْرًا ، وَتُوزَعُ الْأَسْهُمُ ، الَّتِي تُتَمَثَّلُ رُؤُوسَ الْأَمْوَالِ الضَّرُورِيَّةِ لِإِنْشَائِهَا ، بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ ، فَتَرَى لِبَعْضِ الْأَعْمَالِ مِنَ الْمُسْهِمِينَ مَنْ يَبْلُغُ عَدَدَهُمْ مِثْقَالَ أَلْفٍ .

« وَلَيْسَ التَّعَاوُنُ سَيْرًا نَحْوَ الْإِشْتِرَاكِيَّةِ مُطْلَقًا .

« وَوُجُودُ صَفْوَةٍ مِنَ الْقَادَةِ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ ، وَلَيْسَتْ الْإِشْتِرَاكِيَّةُ وَالْجَذْرِيَّةُ غَيْرَ شَكْلَيْنِ مِنْ أَشْكَالِ الْحُكُومِيَّةِ ، وَلَا يَصْدُرُ التَّقَدُّمُ عَنِ الدَّوْلَةِ ، بَلْ عَنِ ارْتِقَاءِ الْفَرْدِ بِاسْتِمْرَارٍ » .

وتدلُّ الْخِلَاصَةُ الْقَصِيرَةُ السَّابِقَةُ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ إِذَا كَانَ يُوَاجِهُ مُعْضَلَاتٍ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا مِنْ جَمِيعِ الَّتِي يُحَدِّثُ عَنْهَا التَّارِيخُ فَإِنَّهُ يَظَلُّ خَاضِعًا لِبَعْضِ الْمَبَادِئِ الْمَوْجِبَةِ النَّفْسِيَّةِ ، فَمِنْ تَطْبِيقِ هَذِهِ الْمَبَادِئِ تَنْشَأُ عِظَمَةُ الْأُمَمِ وَانْحِطَاطُهَا .

* * *

ولا ريب في أن الكتب الخاصة بتاريخ القرن الذي نرى سيره ستحدث عن الانقلابات ، ولا ريب في أن أكثر هذه الانقلابات تعقيداً سينشأ عن صعوبة الحكم بتواصل الأمم الزائد والأوهام السياسية الشاملة ، وتزول أشكال الحكومة القديمة واحداً بعد الآخر بتطور الأفكار وسرعة تبادلها ، وقد حلت عزائم الشعب محل نفوذ الخواص المتأصل في كل مكان ، بيد أن عجز الحكومات الديمقراطية يتجلى بالتدريج مع مصاعب الزمن الحديث .

وبما أن العدد لم يُوفَّقْ للقيام مقامَ الذكاء فقد وجب أن يُبْحَثَ عن الوسائل التي يُجْتَنَبُ بها عجزُ الجماعات ، وهنالك ظَهَرَ في كثيرٍ من بلدان أوربة طَغَاةٌ كثيرون أُعِدُّوا للحلول محلِّ الحكوماتِ العاجزة ، ومن دواعي الأسف أن عُدَّتْ فوائدهم بمحاذيرَ بالغةٍ من الشدَّةِ ما تمحُّول دون بقائهم زمناً طويلاً .

إذن ، قُصِرَتِ الأممُ الحديثة الكبرى على مواصلة البحث في الأشكال الجديدة للحكومة ، ويندُرُ أن تُسْفِرَ الأصواتُ الشعبية عن قابلياتٍ ، وكان بعضُ الفلاسفةِ الأنسكلوبيديين يَحْمِلُونُ بمجامع العلماء ، وما تَمَّ لهم من زيادة التخصص لم تَبْدُ به أبقارهم الضيقة أعلى من أبقار الجماعات ، ولذلك ظَلَّتْ مُعْضَلَةٌ الحكومات ذاتِ الصلة باحتياجات العالم الحديث أمراً يتطلَّبُ حلاً .

الفصل الرابع

تطور الحضارات

لقد عانت جميع الموجودات منذ ظهور الحياة على وجه الأرض سُنَّةَ الولادة والنموِّ والانحطاط والموت ، وتعانى الحضاراتُ هذه السُنَّةَ أيضاً . ويتصف التطور الحديث بسرعه العجيبة إذا ما قيست ببطء الحضارات السابقة العجيب .

واقضى تحولُ المادة الجامدة إلى مادةٍ حيةٍ أ كداساً من الأزمان ، وكان لا بُدَّ من انقضاء ملايين من السنين لخروج الأشكال الحيوانية ، التى سَبَقَتْ ظهورَ الإنسان ، من الخَلِيقَاتِ الابتدائية التى بدأت بها الحياة على سطح الكُرَّةِ الأرضية ، وكان لا بُدَّ من انقضاء أقلَّ من مئة ألف سنة حتى وُقِّفَ الإنسانُ للخروج من دَوْرٍ ما قبل التاريخ والوصولِ إلى عَتَبَةِ الحضارات .

وكذلك كان التقدمُ بطيئاً جداً فى سِنِي الحضارة المترجحة بين السبعة آلاف سنة والثمانية آلاف سنة التى عَمَّتْ تلك . ومنذ قَرْنٍ واحدٍ تقريباً ظَهَرَ البخارُ والكهربا وجميعُ الاكتشافات التى حَوَّلت حياةَ الأممِ تحويلاً تاماً .

وجميعُ الاختراعات العظيمة مَدِينَةٌ لِنموِّ الذكاء فقط ، ولم يَعْقِبْ نشوءُ الذكاء نشوءاً مماثلٌ فى المشاعر ، ومن هذه الناحية لم يجاوز الرجلُ المصرىُّ

مستوى الأجداد الفطرين كثيراً ، وكل ما حُقِّقَ من تقدمٍ في هذا المضمار هو اكتسابُ قدرةٍ على مقاومة الاندفاعات الابتدائية قليلاً بتمثُّل نتائجها البعيدة تمثُّلاً زاجراً ، بَيِّدَ أن المشاعر حافظت على قوتها ، ويُجَهِّزُها الذكاء ، العاجزُ عن السيطرة عليها دائماً ، بوسائلٍ تخريبٍ قادرةٍ على إهلاك العالم .

وهكذا يُحرِّكُ الإنسانُ الحاضر بنوعين من الاندفاعات يَرْجِعُ أحدهما إلى ما قَبَلَ التاريخ وَيَرْجِعُ الآخرُ إلى أصلٍ قريب .

* * *

وللحضارات العُظمى كيانٌ موقتٌ نسبياً ، فالحضاراتُ تَدْبُلُ ، ثم تَزُولُ ، بعد ازدهارٍ يدوم قليلاً أو كثيراً ، وترى نينوى وبابل ومدناً أخرى مدفونةً تحت الغبار .

ومن الطبيعيُّ أن اختلفت سرعةُ تطور الحضارات باختلاف شروط الحياة ، وفي بعض الأحيان يَعْقُبُ أدوارَ الانقلابات العميقة وجوهٌ للتطور البطيء ذاتُ ثباتٍ في المظهر .

وفي الغالب تُتمثِّلُ أزمنةُ السكون النسبيُّ هذه أدوارَ تاريخ الأمم العالية ، شأنُ اليونان في عهدِ بركليس ، والإمبراطورية الرومانية في عهد أغسطس ، وإسبانية في عهدِ فليپ الثاني ، وفرنسة في عهد لويس الرابع عشر .

ومع ذلك فإن أدوار السكون الموقت خاتمةٌ للحوادث السابقة ، وكان لا بُدَّ من سلسلةٍ منازعاتٍ اجتماعيةٍ لتظهر دكتاتوريةُ أغسطس ، وكان

لا بُدَّ من سلسلةِ منازعاتٍ دينيةٍ وسياسيةٍ لتمامِ ملكيةِ لويسَ الرابعَ عشرَ المطلقةِ .

وتُجاوِزُ أوربةِ الحديثةُ دورَ انقلابِ شوهدَ مثلهُ غيرَ مرةٍ في مجرى تاريخها ، أى شوهدتْ انقلاباتٌ في المعتقداتِ السياسيةِ والدينيةِ وانقلاباتٌ في الأفكارِ ، وقد أوجبَ ضَعْفُ المثلِ العليا القديمةِ الموجهةِ والبحثُ عنِ مُثلٍ عاليةٍ جديدةٍ اضطراباً عميقاً في النفوسِ ، ويَهْزُ الجَزَعُ والهَلَعُ النفوسَ ، وَيُظْهِرُ الوعيدُ في كلِّ مكانٍ ، ولا يُبَصِّرُ أَمَلُ السكونِ النسبيِّ أيضاً .

* * *

ومن العواملِ الأساسيةِ في انحطاطِ الحضاراتِ ذلكَ العاملُ الذي يلاحظُ في جميعِ الأزمانِ ، وهو ذُبُولُ مبدأِ السلطةِ ، وما يوجبُه من نفوذٍ ، شيئاً فشيئاً .

وسواءً أكانتِ هذهِ السلطةُ سلطةَ الآلهةِ أم سلطةَ العاداتِ أم سلطةَ الملوكِ تُنْعِمُ وحدَها على الأمةِ بالتحامٍ لا تستطيعُ أن تدومَ بغيره .
وبما أن الناسَ يحتاجون احتياجاً عاماً إلى الشعورِ بأنهم مَقودون عندَ عدمِ اتباعهم عدداً قليلاً جداً من الأفرادِ قادراً على توجيهِ نفسه بنفسه فإن من الثابتِ أن النُظْمَ السياسيةِ لا تزولُ بزيادةِ الاستبدادِ ، بل بضعفِها ، وكان لويسُ الرابعَ عشرَ سيداً لأنه عَرَفَ أن يسيطرَ على طبقةِ الأشرافِ والإكليروسِ والبرلمانِ ، وعاد لويسُ الخامسَ عشرَ ، ولويسُ السادسَ عشرَ على الخصوصِ ، لا يكونان سِيدَيْنِ لأنهما تَرَكا السلطاتِ المتنافسةَ تسيطرَ عليهما بالتعاقبِ مع أن سَلَفَهُما عَرَفُوا أن يَزَجُرُوها .

وعملُ مبدأِ السلطةِ الأساسىُّ هذا ينشأ عن كونه وحده هو الذى ينطوى على القدرة الضرورية لإيجاد وحدة الفكر والفعل التى تُحوّلُ نَقْعاً من الناس إلى جماعةٍ متجانسة ، ولذا يُمكنُ عدُّ مبدأِ السلطةِ ، فى السياسة والدِّين والأخلاق ، من القواعد الأساسية لحياة الأمة .

وكان من أكثر العوامل التى يتوارى بها مبدأ السلطة تأليفُ أحزابٍ مختلفةٍ ذاتِ منافعٍ متباينةٍ ضمنَ المجتمع ، ومتى شَعَرَت هذه الأحزابُ المتنافسةُ بأنها بَلَغَت من القوة ما تَدْخُلُ معه الصِّراعَ ضَعَفَ مبدأُ السلطةِ وبدأ دَوْرُ الأَفولِ ، وهكذا هَلَكَت اليونانُ فى الزمن القديم عندما أضعفت استقلالها بعد ازدهارٍ لا يزال يَبْهَرنا ، وهكذا هَلَكَت الجمهورية الرومانية عندما مُحِلَّت ، بعد سلسلةٍ من المنازعات التى لا تُعرِفُ الرحمة ، على معاناةٍ دكتاتوريةٍ الأباطرة المهيمنة .

وهكذا هَلَكَت ، فى القرون الوسطى ، جمهورياتُ إيطاليا ، ولا سيما فلورنسة ، نتيجةَ مخاصماتٍ داخليةٍ ، فبما أن الخصوماتِ بين النقابات المتنافسة كانت يوميةً فى هذه المدينة الأخيرة فإن حياتها أصبحت مثلَ الجحيمِ فكان من عواملِ السُّلْوانِ الشاملِ قَبْضُ آلِ مِدِيسِيس على السلطةِ وقضاؤهم على الجمهورية .

وهكذا هَلَكَت بُولُونِيَّة بعد حينٍ عندما قُسِّمَت بين جيرانها نتيجة انقساماتٍ ومنازعاتٍ داخليةٍ مستمرة .

* * *

وإذا أمكن أن يكون انحطاطُ الحضارة سريعاً جداً فإنه يَقَعُ بطيئاً

جدًّا في بعض الأحيان ، شأنُ الإمبراطوية الرومانية تمامًا ، ولا مرءٍ في أن دِكْتاتوريةَ الأباطرةِ وَضَعَتْ حَدًّا للمنازعاتِ المدنيةِ ، ولكنها لم تَصْنَعْ غيرَ عَوَقِ الانحطاطِ ، وقد أصبحَ هذا الانحطاطُ تامًّا عندما جُهِلَ أمرُ السلطةِ فاتتحت الكتائبُ حَقَّ انتخابِ الأباطرةِ وعزلهم بعد أن كان خاصًّا بالسَّناتِ .

وَيَلُوحُ أن أوربةَ الحديثةَ محكومٌ عليها بقطعِ أدوارٍ مماثلةٍ ، وتُجاوِزُ أوربةَ دوراً من أعقدِ أدوارِ التاريخِ على الرغمِ من وجوهها الساطعةِ المدينةِ بها لتقدمِ العلمِ ، وتَفَرِّقُ أوربةَ في فوضى عميقةٍ ، فيزِيدُ فيها كلَّ يومٍ حقدٌ بين الأممِ وحقدٌ بين طبقاتِ الأمةِ الواحدةِ .

وَبَلَغَتْ الفوضى مقداراً اضْطُرَّ معه كثيرٌ من الدولِ كإيطاليةِ وإسبانيةِ واليونانِ ، إلخ . ، إلى معاناةِ دِكْتاتورياتٍ ثقيلةٍ ، وليس وَضَعُ بلادِ أوربةِ الأخرى أحسنَ من ذلكِ ، وتحاولُ دُوِيَّلاتِ شِبهِ جزيرةِ البلقانِ استئْثافَ منازعاتِها المتأصلةِ ، وتُخَرَّبُ روسيةَ تماماً بتطبيقِ أحلامِ المتعصبين الذين يَوَدُّونَ فَرَضَ دينهم الجديدِ .

ولا تزالُ فرنساُ وإنكلترةُ وألمانيةُ تقاومُ الفوضى بفضلِ بُنيانها القديمِ ، ولكنها تُقْضِمُ مقداراً فمقداراً بفعلِ أوْهامِ الاشتراكيةِ التي يَعْظُمُ نفوذُها يوماً بعد يومٍ ، وتقومُ قوةُ أمريكةِ البالغةُ على قليلٍ من المبادئِ الصائبةِ التي يُوَجِّهُ بها سَيْرُ أناسٍ فَوْضٍ إليهم توجيهُُ مصيرها .

وكان يَلُوحُ بقاءُ أوربةِ مركزاً للحضارةِ واثرةً للإغريقِ ولرومةِ ولعشرين قرناً من الجُهودِ ، وتُبْصِرُ أوربةُ ، بفتنةٍ ، ابتعادها عن أن تكونَ قطبَ

العالم ناظرةً في النصف الآخر من الكرة الأرضية قيامَ عالمٍ جديدٍ يختلف في أفكاره ومشاعره ومختلفٍ عناصرِ حياته عما لديها اختلافًا تامًّا .

* * *

ويَبْدُو العالمُ الحديثُ مُثَقَّلًا بما لم يكن له عهدٌ به من المُضِلَّاتِ بفعلِ تطورِ شروطِ الحياةِ الناشئِ عن اكتشافاتِ العلمِ ، وسرعةِ وسائلِ النقلِ على الخصوصِ ، وترى الشعوبُ ، التي كان بعضها مفصولاً عن بعضِ بحواجزِ يتعدَّرُ اقتحامُها ، اتحادَ مصالحها أو تصادمها ، وينحلُّ بالتدريجِ مختلفُ عناصرِ المجتمعاتِ المُسنَّةِ التي وَحَدَّتْ بينها ، لزمنٍ طويلٍ ، سلطةُ الآلهةِ أو الملوكِ ، أو العاداتِ فقط ، وبما أن أشدَّ البلادِ ثباتًا نُظِمَ بماضٍ لم يتغيَّرَ قطُّ فإنه يواجه أحوالاً غيرَ منتظرة .

ولمَّا تعرَّفِ الأحزابُ السياسيةُ أنْ تلائمَ الضروراتِ التي نشأتْ عن تحولاتِ العالمِ ، ومن العبثِ محاولةُ الجذريين والاشتراكيين والمحافظين وغيرهم حَلَّ المُضِلَّاتِ الحديثةِ بصيغتهم القديمة ، وما فتئت المبادئ البسيطة تسيطر على الحياة السياسية ، وبما أن مبدأ الدولة الرِّبَّانية أكثرُ ما يُسيعُه ذكاه الجماعات الأوربية فإن الحكومية قد امتدَّتْ أمرُها على صيغٍ مختلفة في نهاية الأمر ، واليومَ كلُّ يطالب الدولة بما لا تقدر عليه من حَلِّ المشاكل .

أجلُ ، إن العالمَ سيلائم في نهاية الأمر شروطَ الإنتاجِ والمبادلةِ الجديدةَ ، غير أن الانقساماتِ العميقة باقيةٌ بين دول أوربة حيث يتألفُ من طبقاتٍ كلِّ بلدٍ عاملٌ تهديدٍ بالانحطاط ، ويقترح فريقٌ من ذوى الفضل معالجة ذلك بإقامة اتحادٍ أوربيٍّ بين الحكوماتِ التي تهْدِفُ إلى إيجادِ نظامٍ تضامنيٍّ

مادى وأدبى ثابت ، ومن الصواب أن لوحظَ أن مثلَ هذا الاتحاد يقوم فقط على تميمِ شركةٍ موجودةٍ لبعضِ الخدمِ الأُمَمِيَّةِ منذ حينٍ ، كالبريد والبرق والهاتف والطرق والقنوات والخطوط الحديدية ومسائل النقود ، إلخ .

ولا تقومُ صعوبةُ تحقيقِ هذا البرنامجِ الواسعِ على اقتحامِ الفروقِ النفسيةِ التي تَفْصِلُ بين الأممِ فقط ، بل تقومُ على اختلافِ المصالحِ الاقتصاديةِ أيضاً ، ومع ذلك فإنَّ الضرورةَ قوةً نفسيةً بالغةً من العِظَمِ ما قد تنتهى به الأممِ الأوربيةِ إلى إدراكها وجوبَ تفاهمها في آخرِ الأمرِ خَشِيَّةً أن تَرى زوالَ حضارتها .

وهناك مصاعبُ مختلفةٌ ، ولكن مع إمكانِ تذليلها ، تَعَرِّضُ كذلك مشروعَ الاتحادِ الفِدرالىِّ الجديدِ ، ومن ذلك ، مثلاً ، أن إنكلترةُ تَفْضَلُ على الوحدَةِ الأوربيةِ وحدةً بريطانيةً يؤأف بها بين مختلفِ أجزاءِ العالمِ الخاضعِ لنفوذها ، ولذلك فهي تَنْظُرُ بتلِيلِ عطفٍ إلى مشروعِ اتحادٍ يُمكنُ أن يُوَدِّىَ إلى تَخَلِّي كلِّ دولةٍ عن قسمٍ من سلطانها في سبيلِ الدولةِ العليا .

ولا يُمكنُ أن ينشأ توحيدُ أوربةٍ عن مناقشاتٍ كالتى تَقَعُ في جمعيةِ الأممِ ، بل ينشأ عن جمعياتٍ اقتصاديةٍ ذاتيةِ عَرَضِ ما بينها من صِلاتٍ صناعيةٍ أمثلةً كثيرة .

وتنتأجُ مثلُ تلكِ أعلى ، تماماً ، من التى ظَفِرَ بها بعد جهودٍ عَشْرِ سنينِ بَدَلها اثنانِ وخمسونِ ممثلاً في جمعيةِ الأممِ ، فهؤلاءِ إذْ غاصوا في نظرياتِ

وهيَّة ظَهَرَ أَنَّهُمْ يَجْهَلُونَ مَا يُسِيرُ الْعَالَمَ مِنْ ضَرُورَاتٍ .
 وَإِذَا عَدَوْتَ هَذَا الْإِتِّحَادَ الْاِقْتِصَادِيَّ بَيْنَ الْأُمَمِ الْأُورِيبَةِ وَجَدْتَ الْمُنَاهِجَ
 الْوَحِيدَةَ الَّتِي اقْتَرَحَتْ حَتَّى الْآنَ لِحِفْظِ السَّلْمِ مُؤَلَّفَةٌ مِنْ مَشْرُوعَاتٍ نَزَعِ
 السَّلَاحَ ، بَيِّنِدَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ يُعْتَرَفَ أَمَامَ الْأَخْطَارِ الَّتِي
 تَحِيطُ بِجَمِيعِ الْأُمَمِ بِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أُمَّةً أَنْ تَتَّبِقَ عِزْلَاءً مِنَ السَّلَاحِ .
 وَعُقِدَتْ مُؤْتَمَرَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي عَوَاصِمَ كَثِيرَةٍ بِالتَّبَاعِ فَأَثْبَتَتْ تَعَذَّرَ
 نَزْعَ السَّلَاحِ فِعْلًا ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ضَرُورَةِ اسْتِقْرَارِ نَزْعِ السَّلَاحِ بِالنَّفُوسِ فِي
 بَدَأِ الْأَمْرِ .

* * *

كَانَ غَلِيوْمُ الصَّمُوتُ يَقُولُ : « لَا ضَرُورَةَ لِلْأَمَلِ فِي الْإِقْدَامِ . . . » ،
 وَقَدْ أَثْبَتَ الْفَوْزُ صِحَّةَ هَذَا الْمَثَلِ .
 وَمَا يَزِيدُ فِي تَعْنَى إِقَامَةِ سَلْمٍ دَائِمَةٍ فِي أَوْرِبَةِ كَوْنِ كُلِّ حَرْبٍ
 جَدِيدَةٍ تَعْتَمِدُ عَلَى تَقَدُّمِ الْأَسْلِحَةِ الْحَدِيثَةِ تَوْدِيَّ إِلَى تَخْرِيْبِ عَوَاصِمِ الْعَالَمِ
 الْقَدِيمِ الْكَبْرَى وَتَدَلُّ عَلَى نِهَايَةِ حَضَارَتِهِ .
 وَكَانَتْ حُرُوبُ الْمَاضِي تَتَّمُّ بِأَسْلِحَةٍ قَلِيلَةٍ الْعَدَدِ لَا يَكْتَرِثُ لَهَا غَيْرُ
 قِسْمٍ ضئِيلٍ مِنَ الْأَهْلِينَ ، وَلَا تُوَاجِهُ الْحُرُوبُ الْحَدِيثَةُ بَيْنَ بَعْضَةِ
 آلَافٍ ، بَلْ تَقَابِلُ بَيْنَ مِلَايِينَ مِنَ الْآدَمِيِّينَ ، وَلَا تُعَمَّمُ أَنْ تَعَمَّ مَخْتَلَفَ
 بِلْدَانِ الْقَارَّةِ .

وَحَتَّى الْآنَ لَمْ تُسْفِرْ عَنْ نَتِيجَةِ جَمِيعِ الْجُهُودِ الَّتِي بَدَّلَهَا السِّيَاسِيُّونَ
 وَصُولًا إِلَى نَزْعِ السَّلَاحِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَاسْتِبْدَالًا لِلتَّحْكِيمِ بِمَا يَقَعُ مِنْ

نزاعٍ مسلّح ، ومن الصواب قولُ رئيسِ جمهورية الولايات المتحدة إن أمل الأمة العزلاء ، أو السيّئة السلاح ، في ألاّ تهاجم ضعيفاً جداً ، ومن الواضح ، مثلاً ، كَوْنُ روسية ، التي تحلّم بوقوع حربٍ عالمية لتضمّن نصراً لمبادئها ، شديدة الخطر بجيشها المؤلف من ستمئة ألف رجل على أوربة العزلاء من السلاح .

وفي معارفنا الحاضرة يقوم الأملُ الوحيد في سَلْمٍ دأمةٍ على اكتشاف أسلوبٍ في التخريب بالغٍ من السرعة ما لا تريد أمةٌ معه أن تُعرّض نفسها لنتائج ، ومن ذلك ، مثلاً ، اكتشافُ وسيلةٍ لجمع الموجات الهرتزية في نقطة واحدة^(١) .

ومنذ زمنٍ بعيد أبصر مُونتسكيو ، كما يَظْهَرُ ، هذه الاكتشافاتِ الحَظِرة حينما قال :

« أرتجفُ ، دائماً ، من الانتهاء في آخر الأمر إلى اكتشاف شيءٍ مكتوم يُجهزُّ بأسلوبٍ وجيزٍ يَهْلِكُ به الناس ويُقضى به على جميع الأمم والشعوب » .

(١) ما انفكت هذه الفكرة تساورني منذ زمن طويل ، ولذلك قمت بتجارب ذكرتها في كتابي « تطور القوة » ، فقد استعنت بأجهزة ذات تمدد بالغ الارتفاع فاستطعت أن أستحصل ، لمسافة ، على تيارات كهربية إنتاجية يمكن أن تظهر على شكل شرر حول جميع الأدوات المعدنية في غرفة طولها عشرة أمتار .

وبما أن الموجات الهرتزية تخرق جميع الحواجز غير المعدنية فإنه يفجر بالقذف على هذا الوجه مستودعات البارود في حصن والمهمات وفرقة الجنود .

ولا تزال هذه النتيجة متعذرة الوقوع لما يجب وجوده من مرايا عظيمة يجمع بها إشعاع كهربى على مسافة كبيرة .

ومع ذلك فإن اكتشافاتٍ مثل تلك حُقِّقَت اليومَ تقريباً ببعض المتفجِّرات ، ومما لاحظَه وزيرُ إنكليزيٍّ أن من الممكن أن يتمَّ تقويض الحضاراتِ الأوروبية نتيجةً لها .

* * *

وفي أقلِّ من نصف قرنٍ أبصرَ العالمُ في ميدانِ العقل تقدماً أعظمَ من جميع ما حُقِّقَ منذ أقدم الأزمان حين كانت تُرَسَّمُ الحضاراتُ الأولى على ضفاف النيل وسهول كَلدَة .

وما حُقِّقَ من تقدمٍ في حَقْلِ المشاعر التي ما انفكَّت تسيطر باندفاعاتها على الناس كان ضعيفاً جدًّا ، وما كان العقل الذي يجب أن يُوجَّه الأمم لينفع ، غالباً ، في غير تحقيق النواحي اللاعقلية لسيرها .

وأثبتت الحربُ العالمية ، التي خَرَّبَت أوربة باندفاعاتٍ غريبةٍ عن البديهيات العقلية ، إثباتاً جلياً مقدارَ الشكِّ في المبادئ السياسية والأدبية التي تصلح للحكم .

وإذا نُظِرَ إلى اختلاطات الساعة الحاضرة وُجِدَ تَعَذُّرُ كلِّ شعورٍ بالأطوار القادمة لتطورِ حضارتنا أو بما ستعانيه من أوجه الأفول ، أجل ، إن من الممكن أن تُوجَّه حياةُ الأمم ، باكتشافاتِ العلم ، توجيهاً شافياً ذات يومٍ ، غير أن العلم لا يزال من الجِدَّةِ ما لا تُبْصَرُ معه نتائجه ولا سيما حدوده ، وليس مجهولُ قدماء الفلاسفةِ سوى حاجزٍ موقتٍ يتقهقر أمام العلم كلَّ يومٍ ، فنحن نعيش في عالمٍ من الظواهر يَظَلُّ تفسيرُها الوهميُّ على حَسَبِ ذكائنا دائماً .

ومع ذلك فإن من غير المفيد أن يُبْحَثَ في مستقبلِ مجهولِ يَقَعُ متأثراً بعواملَ خارجةٍ عن عقلنا ، أَجَلُ ، إنه مشحون بما لا يُعْرَفُ ، ولكن مع الأمل أيضاً ، وقد زال الآلهةُ ، الذين عَمَرُوا السماءَ منذ فجر الحضارات ، واحداً بعد الآخر ، والأملُ هو الربُّ الوحيد الذي ظلَّ باقياً ، ولن يزول الأملُ إلّا مع آخر إنسان ، وإذ يُوحى الأملُ بجميع الاكتشافات فإنه ينتقل من المعابد إلى المختبرات ويدعّم الجهودَ التي تنشأ عنها تحولاتُ العالم الذي نَرَى كِلاَهُ .

وَيُمْكِنُ أن يُشْعَرَ من الآن بِعِظَمِ التحويلاتِ القادمة ، فلما وُقِّتُ ، بعد جهودٍ متصلةٍ دامت عشرَ سنين ، لإثباتي أن المادةَ الجامدةَ لم تكن في الحقيقة غيرَ تكثيفٍ عظيمٍ لقوةٍ لا جِدالَ فيها وأن من الممكن ، ذات يومٍ ، أن تنطلق الطاقةُ الذرّيةُ السكّانةُ أعلن من فوق المنبرِ البرلمانىُّ أستاذُ الاشتراكية الأكبرُ في هذا الزمن أن نتائجَ مثلِ هذه المباحث قد تؤدي إلى تحوّلٍ تامٍّ في أحوالِ الحياة الاجتماعية .

لا جَرَمَ أن العلم لا يزال في دور البحث ، ولكنه يُبْصِرُ الطريقَ التي يجب أن يَسْلُكها بالتدرّيج ، ويتطور العلمُ ، بفعل الاكتشافات المفاجئة ، بسرعةٍ لا مثيلَ لها مطلقاً ، وقد تَمَّ للفكرِ البشرىُّ من التحويلات في أقلِّ من قرنٍ أكثرَ مما تَمَّ له في ثمانية آلافٍ من سِنِي التاريخ التي مرّت قبله ، وإذا ما حُكِمَ في الأمر بما تَمَّ من فتحٍ حتى الآن كَشَفَتْ لنا المِنْطَقَةُ المجهولة التي يتقدم العلمُ فيها خُطوةً كلَّ يومٍ عن أسرارِ يُمكِنُ أن تُبْصَرَ عَظَمَتُهَا .

ولذلك يمكننا أن نَحْلُمَ بِإِنْسَانِيَةٍ قَادِمَةٍ تَخْتَلِفُ عَنِ الْإِنْسَانِيَةِ الْحَاضِرَةِ
اِخْتِلَافًا هَذِهِ الْأَخِيرَةَ عَنِ آدَمِيٍّ مَا قَبْلَ التَّارِيخِ الْإِبْتِدَائِيِّينَ ، وَهَذَا حُلْمٌ
لَا رَيْبَ ، وَلَكِنَّهُ حُلْمٌ أَقْرَبُ إِلَى الْحَقِيقَةِ مِنَ الْأَحْلَامِ الَّتِي سَيَطَّرَتْ عَلَى الْعَالَمِ
حَتَّى الْآنَ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُطْعَنَ فِيهَا مَا رَفَعَتِ الْإِنْسَانَ مِنَ الْوَحْشِيَّةِ
إِلَى الْحَضَارَةِ .

تعلیقاتُ حَتَامِيَّة

١ - مختارات من رسائل تبادلها المؤلف وبعض أقطاب

السياسة مع نقل آراء لهم حول بعض المسائل

التي جاءت في هذا الكتاب



أسس الحق الصحيحة

ناقش مسيو كليمنسو ، بالعبارة الآتية التي جاءت في كتابه « فرسة
أمام ألمانية » ، كلمة غوستاف لوبون القائلة « إن الحق قوة تدوم » :
« كان غوستاف لوبون قاسياً في تشريحه أحد آلهتنا الأخيرين حينما
قال إن الحق ليس غير قوة تدوم ، فيا للتدنيس في تحليل الإنسان إلهه !
« أوليس حق الخلق الآتى إله الإنجيل الحديث الذى لم يصنع
غوستاف لوبون غير رده إلى مصدر جميع آلهة الأرض ، وذلك بتوحيده
مع قوة الأشياء الدائمة التى ينشأ عنها كل نظام الموجودات ؟ ولم يمكن
في المذهب الجديد ، أكثر مما فى العلوم اللاهوتية الأخرى ، تعيين غير
المعين ومس ما لا يمس وبلوغ ما يفرض وتثبته » .

مبادئ مختلفة حول كلمة « ديمقراطية »

سألت أقطاب السياسة الأفاضل : جورج كليمنسو وموسولينى وهرزيو

وجان دوكستلان ، عن تعريفهم كلمة « ديموقراطية » إيضاحاً لمختلف
المبادئ التي يُمكن أن تدور حولها ، فاسمع أجوبتهم :
« أستاذي العزيز ، حقاً أنك رجلٌ باهر ، ولكنك تسألني عما يقعُ
وراءِ وسائلي ، وأنت الذي تجبُّ وقتاً للتأمل ووضِعَ كُتُبٍ أمكني أن
أقومَ بها كثيراً من أفكارى ، وهذا ما أعزب لك به عن شكرى .
« أنت تطلب مني أن أعرفَ الديموقراطية ، ولا تسألني أكثرَ
من ذلك !

« لقد اعتصرتُ دماغى ، وإليك ما استطعتُ أن أجده : زيادةُ
أقسامِ الذكاءِ فى الأعلى مُصفاةً بزيادةِ الذكاءِ فى الأسفل ، رجوعاً إلى
نقطة انطلاقيهما إلى جهاتٍ عامة مقبولة مسورة فى سبيل مجموع الأمة .
« المُعجَب بك :

« ج . كليمنسو »

« أستاذي العزيز ،

« بصفتي جذرياً^(١) أقول إن الديموقراطية هى النظام الذى يبحث
فى المجتمع عن تقويم مبدأ العدل الذى أنعمت به الطبيعة ، ولكن بالعقل ،
وإن شئت فقل إنه ذلك النظام الذى يجبُ أن يُبحثَ به عن تقريب
ما بين الأخلاق والسياسة حتى تمتازا .
« المُجِلُّ لكم :

« هريو »

« أستاذى العزيز ،

« أحيب عن كتابك ، فالديموقراطيةُ هي الحكومةُ التي تمنحُ الشعبَ ، أو تحاول أن تمنحه ، وهم كونه سيداً ، أجل ، إن أدواتِ هذا الوهم كانت مختلفةً باختلاف الأزمنة والشعوب ، غير أن الأساس والأهداف لم تتغير قط ، وهذا هو رأي الصريح ، وهذا يُتيح لي فرصة تقديم تحياتي القلبية إليك .

« موسوليني »

وإلى التعريفات السابقة أُضيف ما تفضل بإرساله إلى رئيس مجلس بلدية باريس المفضل ، مسيو جان دو كستيلان ، فقد قال :

« دلت التجربة على أن « الديمقراطية » الحقيقية كانت تقوم على الحكم في سبيل الأمة بواسطة صفوة تُضيفُ إلى هبة السلطة مُحصلاً من الفنية الكافية ، وذلك أكثر مما على الحكم بالشعب لتعذر هذا .

« وتزدهر ديموقراطيات المستقبل ضمن النطاق الذي تتكوّن به هذه الصفوة وتلقى به قيادها إليها .

« جان دو كستيلان »

ولم أحتج إلى سؤال البلاشفة لأعرف أن دكتاتورية الصعلكة ، أى كون حكم الطبقات العليا من قِبل الشعب ، يُلخّصُ مبادئهم حول كلمة الديمقراطية .

مبدأ القوميات

يُوجِبُ مبدأ القومياتِ ، الذي قُسمَتِ النمسةُ باسمه إلى دُوِيَلَاتٍ منفصلٍ بعضها عن بعضٍ ، نتائجَ جالبةً للنوائبِ ، ومن أشدِّ هذه النتائجِ خَطَرًا تَوَسُّعُ ألمانيةٍ كثيراً بأن تَضُمَّ إليها جُمهوريةَ النمسة التي ضُمَّتْ بِبَتْرِهَا كثيراً لَتَبْقَى مستقلةً .

وبما أن هذه النتائجُ لمعاهدةِ السَّلْمِ تَلُوح واضحةً لى فقد أطلعتُ مسيو كلِيمَنسو على انتقاداتى ، فاسمع جوابه :

« أستاذى وصديقى العزيز ،

« أُعْجَبُ بِألميتكِ المدهشة دائماً .

« ولكن كيف تستطيعُ ألاَّ تبالى بما تنطوى عليه روحُ القومياتِ

البعيدةُ الغورِ والكثيرةُ الصوابِ ؟ أو لماذا تقول بها من أجلِ بعضهم وتجاهلها لدى الآخرين ؟

« المُجِلُّ لَكُمْ :

« ج . كلِيمَنسو »

أَجَلْ ، كانت النمسةُ تشتمل على قومياتٍ مختلفةٍ كثيراً ، ولكن فرنساُ تشتمل ، أيضاً ، على قومياتٍ كالبريتون والنورمان والأفرينيين والبروثنسيين ، إلخ . ، فهذه القومياتُ كثيرةُ الاختلافِ وإن كانت تَنِمُّ على عروقٍ أقلَّ انفصلاً من مختلفِ قومياتِ إمبراطورية النمسة على ما يحتمل ، فلو تَمَّ

النصر لألمانية فقسمت فرنسة باسم القوميات كما قسمت النمسة لقضي على عمل ألف سنة من التاريخ .

الانتفاع بالوثائق النفسية

في حكومة الأمم

طبّق جميعُ أعظمِ أقطابِ السياسةِ علمِ النفسِ تطبيقاً غريزياً ، غير أن هذا العلمَ بقيَ ، إلى حدِّ ، كما كانت عليه الكيمياء قبل لا فوازيه . ومن ذلك ، مثلاً ، كونُ مدرسةِ العلومِ السياسيةِ بباريسَ ، المشتملة على عددٍ كبيرٍ من كراسيِ التدريسِ ، لا تحتوى أيَّ كرسىٍ خاصِّ بتعليمِ علمِ النفسِ .

ومع ذلك فقد أبصرتُ مقدارَ أكثرِ رجالِ السياسةِ لعلمِ النفسِ بما رأيتُ من إقبالٍ كثيرٍ منهم على مطالعةِ كُتبي وترجمتها ، وقد تُرجمَ كثيرٌ من كُتبي ، ولا سيما روحُ الجماعاتِ والسننُ النفسية لتطور الأمم ، إلى كثيرٍ من اللغاتِ الأجنبية ، فنُقِلَ إلى العربية من قِبَلِ وزيرِ العدلِ بالقاهرة فتحي باشا^(١) ، وإلى اليابانية من قِبَلِ سفيرِ اليابانِ بباريس السيد موتونو ، وإلى التركية من قِبَلِ مديرِ أهمِّ صحفِ استانبول ، وإلى الروسية من قِبَلِ الدوكِ الأعظمِ قسطنطين الذي كان مديراً للمدارس الحربية ، وإلى الهندوستانية من قِبَلِ رئيسِ وزراءِ نظامِ حيدرآباد ، إلخ .

(١) أعدنا ترجمة ما نقله المرحوم فتحي زغلول إلى العربية لأسباب ذكرناها في مقدماتنا .

و « روحُ الجماعات » على الخصوص هو أكثرها مداراً لتأمل أقطاب السياسة ، ففي محادثة وقعت مع السنيور موسولينى ونشرتها « آفاقُ العالم » تجدُ العبارة الآتية :

« لديكم في الحقل الفلسفي والعلمي رجالٌ تفاخروا البشرية بهم كثيراً كغوستاف لوبون الذي قرأتُ جميعَ كتبه ، وما لا يحصى عددُ المرات التي طالعتُ فيها كتابه « روح الجماعات » فكنت أُرَجِعُ إليه في الغالب .
وفي محادثةٍ أخرى نشرتها « الأنال » في ٨ من يونيه سنة ١٩٢٤ عبَّرَ رئيسُ جمهورية الشيلي ، دون أرثورو الساندري ، عما في نفسه بما يأتي :

« إذا أُتِبحَ لكم ذاتَ يومٍ أن تتعرَّفُوا بغوستاف لوبون فقولوا له إن رئيسَ جمهورية الشيلي أشدُّ الناسِ إعجاباً به ، فقد تغدَّيت بكتبه ، وأطلبُ أن تبُلِّغوه أنني ما فتئتُ أجِدُ في عملي السياسيِّ فرصةً وقوفى على صحة ملاحظاته العجيبة . »

ومثُلُ هذا الرأي ما أبداه غيرَ مرةٍ رئيسُ جمهورية الولايات المتحدة السابق ، مستر رُووزفيلت ، حَوْلَ كُتُبِ غوستاف لوبون ، ولا سيما « السنن النفسية لتطور الأمم » ، هذا الكتابُ الصغيرَ الحجمِ الذي لم يفارقه قطُّ في رحلاته والذي كان يستوحيه في سياسته كما قال .

وقد كرَّرَ الادعاءَ نفسَه في وليمةٍ غداءٍ أقامها له مسيو هانوتو في رحلته له إلى باريس .

وكذلك رجالُ السياسة الفرنسيون يُعدُّون من القراء المواظبين على

مطالعة روح السياسة ، وذلك كما يدلُّ عليه بوضوح ما تلقيته من رسائلٍ أكثرهم فضلاً .

ولا يُخَصِّي عددُ مُفضِّلاتِ علم النفس التي تُعَرِّضُ على رجال الحكم كلَّ يومٍ فيُمَكِّن أن تتوقف على حلِّها حياةُ الأمة ، وما ذكرته في كتابٍ آخرَ أن الصدر الأعظم العثمانيَّ كان قُبَيْلَ الحرب قد عَرَضَ عليَّ بواسطة سفيره بباريسَ أن أذهب إلى الآستانة لإلقاء عددٍ من المحاضرات في روح السياسة .

ومما أثار أسفي كثيراً كَوْنُ حالي الصحية لم تَسْمَحْ لي بقبول هذا العَرَضِ ، فهو يُثَبِّتُ على الأقلِّ أن التُّركَ لم يكونوا سيِّئِي الوَضْعِ نحو فرنسا . ومن الراجح جدًّا أنه لو وُجِدَ في الأسطول الفرنسيِّ قائدٌ بالغٌ من الإقدام ما يَتَمَقَّبُ معه « غُوبلِن » و « برسلاو » حين إبحارهما إلى الآستانة لظلَّ التُّركَ محايدين ولكانت الحرب قصيرةَ الأمد .

تعيينُ التطور الاجتماعيِّ بدراسة

أحوال الأمم

جاء في تقريرِ لسيو دُلَا تُوْر تُبَلِي في تَجْمَعِ العلوم الأدبية والسياسية في

١٦ من مايو سنة ١٩٢٥ ما يأتي :

« دَرَسَ الدكتور غوستاف لوبون في أحد كتبه الأولى ، « الإنسان

والمجتمعات وأصلهما وتاريخهما » ، تطورَ الإنسان والمجتمعات منذ أصولهما

البعيدة حتى أيماننا ، ومما بحث فيه كيف وُلِدَت الصَّنَاعَةُ والفنون والأسرة
والمجتمعات ومبدأ الخير والشرِّ ، وكيف تكونت النُّظُم والقوانين ، وما
عِلَلُ تَحَوُّلاتِها مع الزمن ، ثم كيف كان طرازُ تفكير كلِّ دَوْرٍ وأمةٍ
ومعتقداتِهما وأخلاقِهما وحقوقِهما ...

« وبدراسة الحضارات الأولى يُطَّاعُ على الأطوار القديمة لنُظْمنا وعاداتنا
ومعتقداتنا .

« ... وفي كتابٍ عن «روح الأزمنة الحديثة» ، نُشِرَ في سنة ١٩٢٠ ،
ذَكَرَ الدكتور غوستاف لوبونُ كَوْنَ معظم المسائل السياسية والحربية
والاقتصادية والاجتماعية من نطاق علم النفس ، وكونَ الألمان خَسِرُوا الحربَ
عن جَهْلٍ به ، وكونَ خَطِّهم في روح الشعوب أقام ضدهم أمماً لم تطلب غيرَ
البقاء على الحياد » ، (أثر غوستاف لوبون) .

الاشتراكية معتقد ديني

أثبت غوستاف لوبون منذ زمنٍ طويلٍ كَوْنَ ما تنطوي عليه الاشتراكية
من قوةٍ عظيمة ناشتاً عن أنه يتألف منها دينٌ جديدٌ قريبٌ من النصرانية
في أوائلها ، لا عن أنها أمرٌ سياسيٌّ .

واليومَ عَمَّ هذا الرأي تماماً بعد أن كان موضعَ جدلٍ ، ويُمكن أن
يُحكَمَ في هذا بالكلمات الآتية التي اقتطفتُ من مقالةٍ نُشِرَت في
« صديق الشعب » :

« طاف ابنُ مستر رَمْسِي مَكْدُونَلد بعد أبيه في الولايات المتحدة ،

فَصَرَّحَ أَمَامَ أَعْضَاءِ النَّادِي الْإِشْتِرَاكِيِّ فِي جَامِعَةِ شِيكَاغُو قَائِلًا : « لَيْسَ مَذْهَبُ إِشْتِرَاكِيِّي إِِنْكَاتَرَةً وَعَمَلُهُمُ السِّيَاسِيُّ لَعِبًا أَوْ عَرَضًا ، بَلْ دِينٌ » ، وَلَيْسَتْ الْكَلِمَةُ جَدِيدَةً ، فَقَدْ قَالَهَا غُوسْتَاثُ لُوبُونُ مِنْذُرَ مِزْنٍ طَوِيلٍ ، وَذَلِكَ « أَنْ الْإِشْتِرَاكِيَّةَ مَعْتَمَدَةً دِينِيًّا أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَكُونَ نَظَرِيَّةً عَقْلِيَّةً بِدَرَجَاتٍ . . . » ، وَيَتَأَلَّفُ مِنَ الْإِشْتِرَاكِيَّةِ وَالْبُلْشَمِيَّةِ خَطَرٌ عَظِيمٌ لِانْتِشَارِهَا عَلَى نَمَطِ الْأَدْيَانِ ، « مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ وَبِالتَّوَكِيدَاتِ وَالخِيَالَاتِ وَالوَعُودِ الْوَهْمِيَّةِ » كَمَا قَالَ غُوسْتَاثُ لُوبُونُ .

عجز المنطق العقليّ تجاه بعض

القوى الجماعية

يَبْرُزُ بَيْنَ الْمَصَاعِبِ الْعَظِيمَةِ لِلسِّيَاسَةِ الْحَدِيثَةِ حَرَكَاتٌ رَأْيِي نَاشِئَةٌ عَنِ حَسَّاسِيَّةِ الْكِرَامَةِ الْجَمَاعِيَّةِ .

وَمِنْ أَطْرَفِ الْأَمْتَلَةِ عَلَى مِثْلِ هَذَا الصَّدَامِ مَا وَقَعَ فِي الْمَوْتَمَرِ الْبَحْرِيِّ بِلَنْدُنِ فِي يَنَايِرِ سَنَةِ ١٩٣٠ لِنَقْصِ التَّسَلُّحِ .

وَكُلُّهُ يَعْلَمُ أَنَّ مُحَادَثَاتِ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ انْتَهَتْ بِمَجْبُوطٍ تَامٍ .

وَقَدْ اسْتَنْدَتُ إِلَى مَبْدَأِ عَجْزِ الْعَقْلِ عَنِ مَنَاهِضَةِ الْحَسَّاسِيَّاتِ وَالْبُطْلَانَاتِ الْجَمَاعِيَّةِ فَاتَّيْحَ لِي مِنْذُ افْتِتَاحِ الْمَوْتَمَرِ أَنَّ أُنْبِيَّ سَفِيرِ إِِنْكَاتَرَةَ فِي فَرَنْسَةِ بَانَ حَبُوطُهُ سَيَكُونُ تَامًا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ جَمِيعِ جُهُودِ السِّيَاسِيِّينَ .

حَتَّى إِنْ إِيْطَالِيَّةً وَجَدَتْ مِنْ مَقْتَضِيَّاتِ نَفُوذِهَا أَلَّا تُوَافِقَ ، بِأَيِّ ثَمَنِ

كان ، على رفض حَقِّها النظريِّ في أن يكون لها أسطولٌ مساوٍ لأسطول
فرنسة .

فأمام كلمة « المساواة » البسيطة تحطمت جميعُ جهود أرفع سياسي العالم .

مبادئ التاريخ الممكنة

تَبْلُغُ معارفنا عن العالمِ والموجوداتِ من التَّجَزُّؤِ والتحولِ ما يُفِيدُ معه ،
دائماً ، أن يُعرَفَ ما يَصُوغُه مختلفو الأزمنة من تفسيرٍ حَوْلِ الكونِ .
وإذ تَصَلُحُ العواملُ العقائيةُ والعواملُ الوجدانيةُ أساساً لهذه التفسيراتِ فإنك
تَجِدُهَا مُلَخَّصَةً في الرسالتين الآتيتين اللتين تبادلهما المؤرخُ الفضالُ غبريال
هانوتو وغوستاف لوبون نتيجةً أسْوَالٍ وضعه هذا الأخير .

فِيلولَا رُوْكَبْرُون كَاب مَارْتِن (أَلِپ مَارِيْتِم)

في ١٥ من فبراير سنة ١٩٣٠

« صديقي العزيز ، أُتَّخِذُ كلمةَ « الحكمة الإلهية » وكلمة « صادر عن
الحكمة الإلهية » ضَمِنَ المعنى الذي كان يتخذها بوسُويه وبَسْكَال .
« هذه ضمانات !

« ولا أزعِمُ أنني أُمْتَلُّ « المؤرخين المعاصرين » ، ولكن التاريخَ عَمَّني
أنه لا يوجد تَمَدُّنٌ إلَّا عند الأمم التي تحتفظ بالإيمان على أنه مَثَلٌ إلهيٌّ
عالٍ ، أي بالإيمانِ بِخالقٍ صانعٍ للناموسِ الأدبيِّ .

« وهل حَرَّرَ العلمُ من غوامضه هذا الأمرَ الخفيَّ أو ذاك ، أى أمرَ الخلقِ وأمرَ الروحِ ؟ ... »

« ولا أدري أهذا عن عدمِ عِلْمٍ ، ولكن بما أننى اقتصر قبل كلِّ شيءٍ على الانسجامِ العامِّ والأدبىِّ فإننى أظنُّ مخلصاً لِمَا اختاره آباؤنا وللمعتقداتِ التى أقامت المجتمعاتِ البشريةَ والتى تحمَّظها .
« أخافُ مُوسكو .

« صحَّةٌ وعافية ، فتعمَّقْ ، إذنْ ، فى هذه المعضلاتِ ! ولا تخفَّ !
وثقْ بأننى صديقك البالغ الإخلاص :
« هانوتو »

والتأملاتُ الآتيةُ هى ما أثاره هذا الكتابُ لدى المرسلِ إليه :

باريس ، فى ١٧ من فبراير سنة ١٩٣٠

« صديقى العزيز ، إدراكك للتاريخ سهلٌ جدًّا ، ولكنه يتعدُّ كثيراً عما قال به كثيرٌ من العلماء .

« فالعالمُ عند هؤلاء العلماءِ يتعمَّدُ كَلِمًا أريد التَّبَحُّرَ فيه .

« وقد قام مقامُ مبدأِ الخِلْقَةِ مبدأُ كَوْنٍ لا نهايةَ له ، أى عالمٍ لا أولَ له ولا آخرَ .

« يَفْضِلُنَا سبعون مليون سنة عن الدَّوْر الذى نشأت فيه على السَّدِيمِ المبرَّدِ خَلِيَّاتٌ دقيقةٌ تُعدُّ أوَّلَ الموجوداتِ ، فكان آخرَ نَسْلِ لها أولئك الأجدادُ الوُضْعَاءُ الذين ظهروا قبل حضارتنا التى هى بنتُ ستة آلاف سنة ، وذلك فى أثناء ما قبل التاريخ الذى دامَ مئةَ ألف سنة .

« وأما الناموسُ الأدبِيُّ الذي تتكلمون عنه فإن من المستحيل أن يُتصوَّر كما كان يُصنَّع في زمن كنت ، ولكن كضرورة اجتماعية تلاحظُ في جميع المجتمعات ، حتى الحيوانية .

« ولم يعرف مجتمعٌ بشريٌّ أديباً أشدَّ من الذي يسيطر على بعض مجتمعات الحشرات ، وليس الأدبِيُّ غريزياً فقط ما اختلف باختلاف مقتضيات الوقت ، أى بهذه الظاهرة التي هي من مميزات العقل .

« وتجدون في كتاب زميلكم الأستاذ في المؤزيموم ، بوفيه ، صفحاتٍ مُمتعةً عن حياة الحشرات الاجتماعية ، حتى إنه انتهى إلى النتيجة القائلة بأن الإدراك لدى الحشرات مماثلٌ لِمَا عند الإنسان .

« وهكذا ترانا ، أيها الصديق ، بعيدين من الحكمة الإلهية ، كما أنك ترانا بعيدين من الأسباب الأولى للأشياء .

« وترى العالم الذي كان يسهل إدراكه في زمن بوسويه مُعقداً كثيراً في هذه الأيام .

« إن اختلافنا حول فلسفة التاريخ كبيرٌ كما ترون ، ومع ذلك فهو غير تامٍ لانفاقنا على الأمر القائل بضرورة وجود مثلٍ عالٍ لتوجيه حياة الأمم . ومع ما يبتغوى عليه المثلُ الدينيُّ الأعلى من أوهامٍ فإنه بقيَ الأقوى حتى الآن .

« والواقعُ أن التاريخ يُعلمُ أن الحضارات الجديدة تولدُ مع الآلهة الجدد وأن هذه الحضارات لا تبتقى حيةً بعد موت آلهتها .

« صديقكم القديم :

« غوستاف لوبون »

٢ - مختاراتٌ من كُتُبِ المؤلفِ السابقة

حوالَ بعضِ المسائلِ التي جاءت

في هذا الكتاب

يتضمن التاريخُ معرفةً مختلفَ العلومِ التي لم يكن غيرَ جَمْعٍ لها في الحقيقة ولو قُصِرَ على بَصَرٍ سطحيٍّ بالأُمورِ المدوّنة في الكتب .
ويدلُّ البحثُ ، الذي هو أعمقُ من الذي رَضِيَ به الإنسانُ في أوفِ سِنِي الحضارةِ السّتِّ ، على أن العالمَ بالغُ التعقيدِ ، وما وُفِّقَ له هذا البحثُ ، على الخصوصِ ، إيجادُ بعضِ صُوَى^(١) ساطعةٍ في غابةِ الحوادثِ المُظلمةِ .
وتعدُّ معرفة تفسيرِ العالمِ الصادرةُ عن المختبراتِ أمراً ضرورياً لإدراك التاريخِ .

ومباحثُ علمِ النفسِ ، أي العلمِ الذي يُفسَّرُ به تكوينِ الأعمالِ ، هو ما يجب ذِكرُهُ على الخصوصِ ، ولذلك وَجَدْنَا من المفيدِ أن نَنقُلَ بعضَ مختاراتٍ من الكتبِ التي نشرناها حوَالِ فصولٍ مختلفةٍ من هذا العلمِ .

(١) الصوى : جمع الصوة ، وهي الحجر الذي يكين دلبلا في الطريق .

القوى الموجهة للعالم وإيضاح الحوادث

« يَلُوحُ العالمُ ، البسيطُ إلى الغاية في الزمن الذي كان الآلهة يسيطرون فيه على مجراه ، أكثرَ تعقيداً مقداراً فقديراً ، وذلك كما بَحَثَ العِلْمُ عن الأسباب ، فقد أصبحت الحوادث البسيطة ظاهراً ، كسقوط الحجر وكهربة قضيب من الصَّمْعِ ، مسائلَ يتعَدَّرُ على العالمِ حلُّها .

« وَيَعْدِلُ العِلْمُ الحديثُ عن اكتشاف عنصرٍ ثابت في العالم ، أى صُورةٍ ثابتة في مجرى الحوادث ، وكلُّ شيءٍ زال مناوبةً ، حتى إن المادة ، التي هي آخرُ عنصرٍ كان يُعْتَقَدُ إمكانُ الاعتمادِ عليه ، خَسِرَتْ أبديتها ، وهكذا يَعْقُبُ الثباتَ عَدَمُهُ ، فتقوم تقلباتُ التوازنِ الدائمةُ مقامَ السكون .

« ويتفهم السببُ الأولُ للأشياء في لانهايةٍ منيعةٍ ، والصلّاتُ بين الحوادث وحدها هي ما يُمكن أن يُعرَف .

« والعِلْمُ ، إذ يَتَرَكُ الإيضاحاتِ الكثيرةَ الاختصار ، يقيم الآن تَجَمُّعَ ما لا حَدَّ له من العِلَلِ الدقيقةِ إلى الغايةِ مقامَ النواميس العامة الكبرى ، والعِلْمُ يُعَلِّمُ أن العالمَ الفيزيويَّ والعالمَ البيولوجيَّ والعالمَ الاجتماعيَّ من عَمَلٍ ذاتياتٍ بالغةٍ الصَّعْرَ تكون غيرَ مؤثرةٍ إذا بقيت منفردةً ، ولكنها تكون قويةً جِدًّا عند ما تقترن ، ومن الدقائق التي لا حَدَّ لَصِغْرِها ظَهَرَتِ القارَّاتُ ونَبَتَتِ العَلَّاتُ وقامت الحياة ، وَيَبْنِي مختلفُ الذاتياتِ ، كالذراتِ

الفيزيوية والخلقيات الحية والوحدات البشرية إلخ ، لا عمل له إذا لم تأت قوَى موجهة لتوجب أعماله وتقتنى أفعاله .

« ولا يُهمُّ كثيراً كونُ العناصر المقصودة من الحقل الفيزيويّ أو الحقل البيولوجيّ أو الحقل الاجتماعيّ ، فلا بدّ من وجودِ عواملٍ مُدبّرةٍ لتوجيهها دائماً ، وتحول العناصر الفردية إلى عُبارٍ لا طائل فيه عند ما تعود غير متأثرةٍ بهذه العوامل .
« وفي خَلِيَّاتِ الجسم العضويّ ينطوي التوجيه المدبّر على الحياة ، وينطوي سكونه على الموت ، وعينُ هذه السُنّةِ أمرُ وحداتِ الموجود الاجتماعيّ .
« وفي الدائرة النفسية نرى تعاقبَ القوَى الموجهة ، كالمعتقدات والمثل الأعلى ، إلخ . ، وذلك من غير أن تزول مطلقاً .

« أَجَلٌ ، يُمكن أن تُغيّرَ اسمها ، ولكن مع بقائها دائماً ، ولا بدّ ، في التوجيه بالإيمان ، من السيف أو العلم أو الفكر في جميع وجوه التاريخ ، فحرمانُ المجتمع قوَى موجهةً أو إخضاعه لقوَى تابِئةٍ للهوى ، مترجحةٌ دائماً ، يعني الحكم عليه بالهلاك » ، (روح السياسة) .

غيرُ المنتظرُ في التاريخ

« يسيطر غير المنتظر على التاريخ .

« أَجَلٌ ، كان يُمكن الرجلَ البصيرَ أن يُذَيِّقَ قبل الحرب بانحلال النمسة ، وكذلك بانحلال روسية وتركية على ما يحتمل ، ولكن كيف كان يُمكنه أن يتصوّرَ مصيبة ألمانيا الهائلة بفتة ؟ كانت ألمانيا قد بلغت أوج القدرة ، وكان العالم يُلوح مهدداً بعمانة سلطانها ، ثم غلبت في كلِّ مكانٍ فانهارت في بضعة أسابيع بين الخزي والحزن .

« ويؤدي توالى الانقلابات هذا إلى غَدِّ هائل لا ريب ، ولكن ما يكون هذا الغدُّ ؟ وفي النمسة ما يُصْبِح ، مثلاً ، هذا النَّعْمُ من الأمم الصغيرة المتخاصمة التي خَرَجَتْ من الدولة العُظمى بعد أن جَمَعَتْ بينها في قرونٍ من الجهود كثيرةٍ ؟

« وإذا كانت دروسُ الماضي صالحةً لتكون دليلاً أمكن أن يقال إن أوربة مهددةٌ بحروب تذكرنا بما اشتعل منذ القرون الوسطى وذلك ليؤلَّف من الدول الصغيرة ما انحلَّ اليوم من الإمبراطوريات العظيمة .

« بَيَدَ أن العالمَ بَلَغَ من التطور ما لا تَكْفِي معه سُنُّ ماضٍ بسيطٍ جِدًّا لإيضاح مستقبلٍ كثير التعقيد ، وقد ظَهَرَ بعضُ المبادئ الجديدة ، وباسم هذه المبادئ سَتُعَانِي النُّظْمُ والمعتقداتُ تحولاتٍ غيرَ منتظرةٍ لا ريبَ ، (روح الأزمنة الحديثة) .

العوامل النفسية

« تتحول جميع العوامل الخارجية التي تؤثرُ في الناس ، كالعوامل الاقتصادية والتاريخية والجغرافية ، إلى عواملٍ نفسيةٍ في آخر الأمر .
« ويسيطر على هذه العوامل أنواعٌ للمنطق مختلفةٌ .

وما حَدَثَ من عدم قدرةٍ على حَلِّ ما بين هذه الأنواع من تأثيرٍ متقابلٍ أساء كثيرٌ من المؤرخين به إيضاحَ بعض الأدوار ، ولا سيما دَوْرُ الثورة .
« والواقع أن العنصرَ العقليَّ الذي يُدْكَرُ ، على العموم ، كوسيلةٍ للإيضاح كان أضعفَ عَمَلًا ، فهو وإن أعدَّ الثورةَ الفرنسيةَ لم يَبْدُ في غير أوائلها .

« ولَسُرَّعَانُ مَا تَوَارَى الْعَامِلُ الْعَقْلِيُّ أَمَامَ عَامِلِ الْعَنْصَرِينَ : الْعَاطِفِيُّ وَالِدِينِيُّ .
 « وَهَنَالِكَ أَصْبَحَ شَأْنُ الْعَوَامِلِ الدِّينِيَّةِ عَظِيمًا ، فَقَدْ أَلْقَتْ بِذَوْرٍ التَّعْصَبِ
 فِي الْجِيُوشِ وَنَشَرَتِ الْمُعْتَقَدَ الْجَدِيدَ فِي الْعَالَمِ .
 « وَلَا تَجِدُ فِي حَيَاةِ الْبَشَرِ دَوْرًا قَدَّمَ سِلْسِلَةَ تَجَارِبَ كَهَذِهِ جُمِعَتْ فِي
 وَقْتٍ بِالْعَمِّ ذَلِكَ الْقِصْرِ .

« وَتَسْوَعُ الْمَجَالِسُ الثَّوْرِيَّةُ جَمِيعَ مَا تَعْرِفُهُ رُوحُ الْجَمَاعَاتِ مِنْ سُنَنِ ،
 فَالْجَمَاعَاتُ إِذْ تَتَدَفَعُ وَتَخَافُ فَإِنَّهُ يُسَيِّطِرُ عَلَيْهَا عَدَدٌ قَلِيلٌ مِنَ الزُّعَمَاءِ وَتَسِيرُ ،
 غَالِبًا ، عَلَى مَا يَخَالِفُ عِزَائِمَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَعْضَائِهَا عَلَى انْفِرَادٍ .
 « وَكَانَ الْمَجْلِسُ التَّاسِيسِيُّ مَلَكِيًّا فَقَضَى عَلَى الْمَلَكِيَّةِ الْقَدِيمَةِ ، وَكَانَ
 الْمَجْلِسُ الْاِشْتِرَاعِيُّ إِنْسَانِيًّا فَأَغْضَى عَنْ وَقُوعِ مَذَابِحِ سِبْتَمْبَرِ ، وَكَانَ مُسَالِمًا
 فَالْتَقَى فَرَنْسَةَ فِي حُرُوبٍ هَائِلَةٍ ، وَوَقَعَ مِثْلُ هَذِهِ الْمُتَنَاقُضَاتِ فِي زَمَنِ مَجْلِسِ
 الْعَهْدِ ، فَقَدْ كَانَتْ أَكْثَرِيَّتُهُ السَّاحِقَةَ تَرْفِضُ الْعُنْفَ ، وَكَانَتْ مُؤَلَّفَةً مِنْ
 فَلَاسِفَةِ عَاطِفِيْنَ يُمَجِّدُونَ الْمَسَاوَاتَ وَالْإِخَاءَ وَالْحُرِّيَّةَ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَدَّى
 هُوْلَاءُ إِلَى اسْتِبْدَادٍ هَائِلٍ .

« وَمِنَ النَّادِرِ ، كَمَا قَالَ بُوْشُوِيَّةِ ، أَلَّا يَعْمَلَ الْفِكْرُ الْبَشَرِيُّ لِعَايَاتِ
 تَبَيِّنِ مَقْصِدِهِ فَضْلًا عَنْ سَبْقِهَا إِيَّاهُ .

« وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَنَاقُضِ الظُّوَاهِرِ لَا تَكُونُ مَنَازَعَاتُ الْمُسْتَقْبَلِ صِرَاعًا
 بَيْنَ الْمَصَالِحِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ فَقَطْ ، بَلْ مَصَادِمَةٌ بَيْنَ الْأَوْهَامِ النَّفْسِيَّةِ أَيْضًا .
 (رُوحُ الثَّوْرَاتِ) .

أنواع المنطق المسيطرة على التاريخ

« يُوجَدُ ، خلافاً لِمَا يشتملُ عليه علمُ النفس الكلاسيُّ من معارفَ ، أنواعٌ للمنطق تختلف عن المنطق العقليِّ اختلافاً كبيراً ، ومنها المنطق الدينيُّ والمنطقُ العاطفيُّ على الخصوص .
« وتَبْلُغُ هذه الأنواع من الاختلاف ما لا يُمكن معه الانتقالُ من أحدهما إلى الأخرى .

« وعلى المنطق العقليُّ تُبَنَى جميعُ أشكال المعرفة ، ولا سيما العلومُ الصحيحة .
« وعلى المنطق العاطفيُّ والمنطق الدينيُّ تُبَنَى معتقداتنا ، أى أهمُّ العواملِ فى سَيْرِ الأفراد والأمم .

« ويُهَيِّمَن المنطقُ العقليُّ على مِنطقة الشعور حيث يُوقَى بتفسير أفعالنا .
« وفى مِنطقة اللاشعور ، التى تسيطر عليها المؤثراتُ العاطفية والدينية ، تَنضَجُ عللها الحقيقية .

« وتدلُّ المشاهدةُ على أن المجتمعاتِ تُقَادُ بالمنطقِ العاطفيِّ والمنطقِ الدينيِّ على الخصوص ، وأن المنطقَ العقليَّ لا يؤثرُ فيها ولا يُحوِّلها مطلقاً .
(روح السياسة) .

الإرادةُ الشاعرة والإرادة غيرُ الشاعرة

« إن الحوادث التى تُدركُ بالشعور هى انعكاسٌ لِكَيانِ نفسىِّ باطنىِّ لا نَعْرِفُهُ ، وفى هذا الكيانِ تَنضَجُ أهمُّ بواعث السَّيْرِ .

وتنشأ الإرادة عن نضج البواعث هذا ، وهي تبدؤ على شكلين :
 الإرادة الشاعرة ، وهي التي قال بها علماء النفس ، والإرادة غير الشاعرة .
 « وتنطوى الإرادة الشاعرة على التفكير الحرّ وعلى النقاش في الدوافع
 الخارجية ، واللاشعور في الإرادة اللاشاعرة هو الذي يُفكر من أجلنا ،
 وهناك ينتهي الحكم تامّ التكوين إلى ميدان الشعور الذي يتقبّله على
 العموم وإن كان يستطيع رفضه .

« وتتجلّى الإرادة اللاشاعرة على شكل شهواتٍ واندفاعاتٍ تُعدُّ أدلّاءً
 اعتياديةً للسّير ، وبما أنه ليس لدى مُعظّم الناس دليلٌ غيرُ إرادتهم اللاشاعرة
 فإن هذه الإرادة هي التي يجب أن يؤثرَ فيها لتسييرهم .

« وإذا ما استقرّت الإرادة غيرُ الشاعرة لدى شعبٍ بما فيه الكفاية
 منحتّه قوةً عظيمةً ، وبما أحسنت ملاحظته كَوْنُ جميع الأمم يُقادُ بالقوى
 الغريزية التي تُستقُّ من عرقها .

« فبإحداثٍ عزايمٍ غيرِ شاعرةٍ في روح الجماعات يُوجّهُ قادةُ الناسِ
 الجُموعَ كما يشاءون » ، (معارفُ نفسية عن الحرب) .

شأنُ اللاشعور في حياة الأمم

« يُعدُّ اللاشعورُ في مُعظّمه بقيةً موروثَةً عن الأجداد ، وتقوم قوتهُ
 على كونه يُمثّلُ تراثاً لسلسلةٍ طويلةٍ من الأجيال يُضيفُ كلُّ واحدٍ منها
 شيئاً إليه .

« ويكون اللاشعور دليلاً لنا في مُعظّم أفعال حياتنا اليومية ، وتقوم

التربية على تزويج اللاشعور خاصة ، ومنه يتألف رأسُ مالِ نفسِي حقيقي .

« وعن اللاشعور تصدُرُ المعاينة التي هي أصلُ الإلهامات العبقريّة » ،
(الآراء والمعتقدات) .

صفاتُ الجماعاتِ الأساسيةُ

« يجب أن يُذكرَ بين صفاتِ الجماعاتِ سرعةُ تصديقها الذي لاحدٌ له ، وحساسيتها البالغة وعدمُ تبصُّرها وعجزها عن التأثرُ بالبرهان ، ويتألف من التوكيد والعدوى والتكرار والنفوذ وسائلُ وحيدةٌ لإقناعها تقريباً ، ويُمكن أن تُحمَلَ الجماعةُ على تصديق كلِّ شيء ، فليس لديها شيءٌ مستحيل .

« والإنسانُ في الجماعة يهبطُ كثيراً في سُلْمِ الحضارة ، فهو يصير من البرابرة ، ويظهرُ ما يتصفون به من عيوبٍ ومحاسنٍ ، أى يبدى عنفاً خاطفاً كما يبدى حماسةً وبطولة .

« والجماعةُ في الحقلِ العقليِّ تكون دون الإنسان وهو منفردٌ دائماً ، والجماعةُ في الحقلِ الأدبيِّ والعاطفيِّ قد تكون أعلى منه .

« والجماعةُ تأتي عملاً إجرامياً بعين السهولة التي تأتي بها عملاً زُهدياً .

« وتأثيرُ الجماعاتِ عظيمٌ في الأفراد الذين تتألف منهم ، ففيها يصبح البخيلُ مبدراً والمليحُ مؤمناً والصلاحُ مجرماً والجبانُ بطلاً .

« والأمثلة على مثل هذه التحولات كثيرةٌ في التاريخ ، ولا سيما في دور الثورات .

« وتؤدى الروح الفردية والروحُ الجماعية إلى أعمالٍ شديدة الاختلاف ، فالأثريُّ يُصبح إشارياً باندماجه في جماعةٍ ، فيُضحى بحياته في سبيل قضيةٍ اعتنقتها الجماعة التي يكون جزءاً منها .

« والجماعاتُ لا تتمثلُ الحكوماتِ إلاً على شكلٍ استبدادى ، وفي هذا سرٌّ هُتافها للطغاة دائماً .

« ثم إن الحكومة الشعبية لا تعني حكومةً يقوم بها الشعب ، بل حكومةً يقوم بها زعماءه .

« وتبعُدُ الحكوماتُ الحاضرة في معظم البلدان من أن تكون شعبيةً حقاً ، فهي تُمثلُ حكومةً من الزعماء فقط .

« والدولةُ العصرية ، مهما يكن رئيسُها ، ورثتُ في نظر الجماعات وزعمائها ما كان يُعزى إلى قدماء الملوك من سلطانٍ دينيٍّ ، وذلك عندما كانت الإرادةُ الإلهية مُتجسِّدةً فيهم .

« وليس الشعبُ وحده هو المُشبع من الاعتماد على قدرة الحكومة ، فجميع مشرعينا مشبعون منه أيضاً .

« ولم ينته سياسيوننا إلى إدراكهم أن النظمَ ، إذ كانت معلولاتٍ ، لاعِللاً ، لا تنطوي على فضيلةٍ في ذاتها ، (روح الثورات) .

استعمالُ الأسلحة النفسية

« تشمل الأسلحة النفسية على قدرةٍ أرفعٍ من المدافع في الغالب ، غير أن استعمالها صعبٌ .

« ولا يمكن استعمالُ مِفْتَاحِ العوامل النفسية إلاّ بكثيرٍ من المهارة .

« وما كان من عجز الألمان في الحرب الأخيرة عن استعمال الأسلحة النفسية أدى إلى قيام أعظم الأمم ضِدَّهم ، وفي مقدمتها إنكلترة التي كان من السَّهْلِ ضمانُ حيادها ، ثم إيطاليا والولايات المتحدة .

« ومن أفظع الأغاليط النفسية التي اقترفها الألمان هو اعتقادهم أن جميع الناس يَخَضَعُونَ لعواملٍ واحدةٍ ، ولم يكن لِمَا تتألَّف منه أسلحتهم النفسية المهمة ، من تهديدٍ وهولٍ ورشوةٍ ، نتيجةٌ غيرُ تدفُّق ثلاثة ملايين متطوعٍ من الأرض الإنكليزية وغيرُ نَسفِ حِيادِ الولايات المتحدة الذي كان على ألمانيا أن تَعْمَلَ على حِفْظِهِ بأىِّ ثمنٍ كان » ، (روح الأزمنة الحديثة) .

تأثير الماضي في حياة الأمم

« لتغيير النُظْمِ السياسيةِ تأثيرٌ ضعيفٌ إلى الغاية في حياة الأمم ، فمزاجُ الناس النفسيُّ ، لا نُظْمُهُمْ ، هو الذي يُعَيِّنُ تاريخهم .

« وبما أن الحال الحاضرةَ لأىِّ موجودٍ كان مُعَيَّنَةً بتراث أحواله الماضية فإن ما يُمكن تحقيقه من تحوُّلٍ في كلِّ جيلٍ ضئيلٌ في كلِّ وقت .

« وليست التغيرات المطلقة التي تحلم بها الأحزاب السياسية أمراً
يُمكن تحقيقه » ، (تَقَلُّبات الساعة الحاضرة) .

ثبات المركبات النفسية التي تتألف
الأخلاق منها وتحوّل هذه المركبات

« يُمكن المركبات التي تتألف الأخلاق منها أن تكون شديدة الارتباط
أَوْ ضعيفة المِلَاط .

« وَيُطابِقُ المَرْكَبَاتِ المِئِنَةَ أَقْوِيَاهُ الأَفْرَادِ الذِّينَ يَدْبُتُونَ عَلَى الرِّغْمِ
مِن تَقَلُّبَاتِ الأَحْوَالِ ، كَالإِنْكَلِيزِ مِثْلًا .

« وَيُطابِقُ المَرْكَبَاتِ السَّيِّئَةَ المِلَاطِ ذُوو الأَمْرَجَةِ النفسية الرَّخْوَةَ
الترددة المتقلبة كالصقالبه مِثْلًا .

« حَتَّى إِنَّهَا تَتَغَيَّرُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ بِفَعْلِ أَخْفِ العَوَامِلِ إِذَا لَمْ تُوجَّهْهُمَا
بَعْضُ مَقْتَضِيَّاتِ الحَيَاةِ اليَوْمِيَّةِ كَمَا تُفَنِّي ضِفَافُ النَهْرِ مَجْرَاهُ .

« وَالذَّاتِيَّةُ بِلَا صَلَابَةٍ تَكُونُ بِلَا ثَبَاتٍ ، وَالذَّاتِيَّةُ بِلَا لِيَانٍ تَعْجِزُ عَنِ
مِلَامَةِ تَحْوِلَاتِ البِيئَةِ النَاشِئَةِ عَنِ تَقَدُّمِ الحِضَارَةِ .

« وَفَرَطُ اللِّيَانِ فِي الرُّوحِ القَوْمِيَّةِ يَحْفِزُ الأُمَّةَ إِلَى ثَوَرَاتٍ مُتَّصِلَةٍ ،
وَفَرَطُ الصَّلَابَةِ يَحْوُلُ دُونَ تَقَدُّمِهَا وَيَسْوِقُهَا إِلَى الانْحِطَاطِ ، وَتَزُولُ الأَنْوَاعُ
الحَيَّةُ ، كَمَا تَزُولُ العُرُوقُ البَشَرِيَّةُ ، عِنْدَمَا تَتَثَبَّتُ فِي مَاضٍ طَوِيلٍ ثَبَاتًا
عَظِيمًا فَتَصْبِحُ عَاجِزَةً عَنِ مِلَامَةِ شُرُوطِ الحَيَاةِ الجَدِيدَةِ .

« وقليلٌ من الأمم من استطاع إقامة توازنٍ مُحكَمٍ بين الصفتين المتناقضتين : الصَّلابة واللِّيان » .

انتشار المعتقدات

والعدوى النفسية

« تتألفُ من العدوى النفسية ظاهرةً نفسية تكونُ نقيجتها تتمبَلُ بعض الآراء والمعتقدات قبولاً غيرَ إراديٍّ ، وبما أن اللاشعورَ مصدرُها فإنها تتمُّ من غير أن يشترك فيها أيُّ بُرهانٍ كان .

« وتلاحظُ العدوى لدى جميع الموجودات المترجحة بين الحيوان والإنسان ، ويسيطر عملُها الواسعُ على التاريخ ، والواقعُ أنها تمثلُ العنصرَ الجوهرىَّ في انتشار الآراء والمعتقدات .

« وتكون قوتها من العِظَمِ في الغالب ما تحمِلُ الإنسانَ معه على العملِ ضدَّ أكثرِ مصالحه وضوحاً .

« وهى تُحوِّلُ الأشخاصَ المسالمين إلى محاربين باسليين ، وهى تُحوِّلُ أبناءَ الطبقة الوسطى الهادئين إلى متذهبين طاغين .

« وليس تماسُّ الأفراد ضرورياً ليؤدى إلى العدوى النفسية ، فيمكنُ أن تنشأ عن الكتب والجرائد والأبناء البرقية ، وعن الشائعات وحدها أيضاً . . .

« وتنتقل المشاعرُ الحسنَةُ والسيئةُ بالعدوى ، وفي هذا سرُّ أهمية القرين

في التربية .

« وتكون العدوى النفسية من القوة الكافية ما تُعَبِّدُ معه جميعَ العقول ... »
 « ومتى عُرِفَ نظامُها معرفةً جيدةً امتلِكَ أحدُ المفاتيحِ المهمةِ لعوامل
 التاريخِ الأساسيةِ » ، (الآراء والمعتقدات) .

المثلُ الأعلى والعقل

في حياة الأمم

« تغييرُ مبدأِ سعادةِ الفردِ أو الأمةِ ، أى مَثَلِهِ الأعلى ، يَفْنِي تغييرَ
 مبدئه في الحياة ، ومن ثمَّ تغييرَ سيرِهِ .

« وليس التاريخُ غيرَ قَصَصِ الجهودِ التي يَبْذُلُها الإنسانُ لإقامةِ مَثَلٍ
 عالٍ ثم هَدْمِهِ عندما يَبْلُغُهُ فَيُبْصِرُ بَطْلانَهُ .

« وَيُعَدُّ الشَّكُّ ، الممكنُ لدى بعضِ الأفرادِ ، شعوراً لاعهدَ للجماعاتِ
 به ، فالجماعاتُ تحتاجُ إلى مَثَلٍ عالٍ مُبْدِعٍ لِلآمالِ .

« ويحتاجُ قيامُ المجتمعِ على أساسِ متينٍ إلى حيازةِ مَثَلٍ عالٍ مشتركٍ ،
 سواءً أكان هذا المَثَلُ الأعلى دينياً أم عسكرياً أم شيئاً آخر ، وهناك ،
 فقط ، تُولَدُ الروحُ القوميةُ ، وتَبْقَى الأمةُ ، حتى تكويناها ، نَقْعاً من
 البرابرةِ يستطيعُ أن يلتحمَ ، لوقتٍ ، تحتِ إمرةِ رئيسٍ ، ولكن من غيرِ
 تماسكٍ دائمٍ .

« وَيَتِمُّ الانتقالُ من البربريةِ إلى الحضارةِ باعترافٍ مَثَلٍ عالٍ مشتركٍ .
 « وَتَعُودُ الأممُ إلى البربريةِ عند انحلالِ الروحِ القوميةِ ، فقد هَلَكَ
 الرومانُ حينما زالت من قلوبهم عبادةُ رومةِ والنُّظْمُ التي عَيَّنَتْ عَظَمَتَهَا .

« وفي أيامنا أضاعت المُثُلُ العليا القديمةُ سلطانَهَا ، فقد استُبدِلَ بها حِقْدُ حَسَدٍ على جميع الأفضليات ، وبالتدرج تمثّلُ الأمانى الشعبيةُ صِراعاً ضدَّ تفاوت الذكاء والثراء .

« وفي كلِّ وقتٍ كان شأنُ العقلِ في حياة الأممِ دون شأنِ المثلِ الأعلى ، وفي كلِّ وقتٍ جُعِلَتِ هذه الخاصيةُ خادمةً لأقلِّ ما يُدافعُ عنه من الاندفاعات العاطفية والدينية .

« ولم تقم الآراء والمعتقدات التي تألّف منها مثلُ عالٍ ضدَّ العقل ، بل قامت مستقلةً عن كلِّ عقلٍ » ، (الآراء والمعتقدات) .

العوامل الحديثة في تطور الأمم

« مميّزاتُ الزمنِ الحاضرِ الحقيقيةُ هي : أولاً إقامةُ سلطانِ العواملِ الاقتصاديةِ مقامِ سلطانِ الملوك والقوانين ، ثانياً اشتباكُ المصالحِ بين الأممِ التي كانت منفصلةً فلم يكن عند بعضها ما تستعيره من بعض .

« ويُصبحُ تأثيرُ الحكومات ، العظيمُ في الماضي ، أكثرَ ضعفاً في كلِّ يومٍ أمامِ العواملِ الاقتصاديةِ التي تزيد أهميةً ، والآن تخضعُ الحكوماتُ للضروراتِ الحاضرةِ وعادت لا تقوُد .

« وولِدَ مع تقدم العلم والصناعة والصلّات الأُمّية سادةً بالغو القدرةِ يجب على الأممِ وملوكها أن يطيعوهم » ، (روح السياسة) .

مقتضيات العدد

« لا تَعْرِفِ الأَمْزِجَةَ النَفْسِيَّةَ الأَبْتَدَائِيَّةَ جَوْرًا وَلَا بَاطِلًا وَلَا مُسْتَحِيلًا ،
وبما أن الأَكْثَرِيَّةَ تتأَلَّفُ مِنْهَا فَإِنَّ الإِنْسَانَ يُلْزَمُ بِمَعَانَاةِ أَهْوَاءِهَا الَّتِي يُفَسِّرُهَا
عَبِيدُ العَدَدِ » ، (روح السياسة) .

نزاعُ حديث بين الجماعة والصفوة

« لم يُمَكِّنِ الاغْتِنَاءُ فِي الزَمَنِ القَدِيمِ إِلاَّ بِإِفْقَارِ الأُمَّمِ الأُخْرَى ، كما
صَنَعَ الرُّومَانُ .

« ومن الصَّعْبُ فِي الوَقْتِ الحَاضِرِ أَنْ يَفْتَنِيَّ الإِنْسَانُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزِيدَ
الرِّخَاءَ العَامَّ فِي الوَقْتِ نَفْسَهُ ، وَهَذَا الاغْتِنَاءُ الجَمَاعِيُّ مَدِينٌ لِنَفُوذِ الصَّفْوَةِ ،
فَمَا كَانَتْ الحَضَارَاتُ الحَدِيثَةُ الَّتِي أوجَدَهَا خِيَارُ النَّاسِ لِعَيشِ وَتَنَمُّوِ بغيرِهِمْ .
« وما كان هؤلاء الأَخْيَارُ أُلْزَمَ فِي زَمَنِ لَزومِهِمْ فِي الوَقْتِ الحَاضِرِ ،
وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ لَمْ يُحْتَمَلُوا بِصُعُوبَةٍ احْتِمَالِهِمْ فِي الوَقْتِ الحَاضِرِ .

« ومن المَشَاكِلِ الحَاضِرَةِ أَنْ يُذْتَهَى فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ إِلَى إِعَاشَةِ الأَخْيَارِ
الَّذِينَ لَا يَسْتَطِيعُ بَلَدٌ أَنْ يَبْتَقِيَ بغيرِهِمْ ، مَعَ أَنَّ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ العَمَالِ يَوَدُّ لَوْ
يَسْحَقُ هَؤُلاءِ الخِيَارِ بِصَوْلَةٍ كَالَّتِي أَبْدَاهَا البَرَابِرَةُ لِتَخْرِيبِ رُومَةِ فِيمَا مَضَى ...
« وَيَزُولُ الخِلَافُ يَوْمَ تَشَعَّرُ الجَمَاعَاتُ بِمِصَالِحِهَا الحَقِيقِيَّةِ فَتُبْصِرُ أَنَّ
تَوَارِيَّ الخِيَارِ أَوْ ضَعْفَهُمْ يُوَدَى بِسُرْعَةٍ إِلَى فِقْرِهَا أَوَّلًا ثُمَّ إِلَى هَلَاكِهَا
ثَانِيًا » ، (روح السياسة) .

شأنُ الرأى العامِّ في حياة الأمم

« سَيَطَرَ الرأىُ العامُّ على العالمِ دائماً، ولكنه لم يُسَيَطِرْ عليه في زمنٍ كما في الوقت الحاضر .

« وكان نابليونُ قد أبصر تأثيرَ الرأى العامِّ العظيمِ ، وعنده أن للرأى العامِّ سلطاناً لا يُقَهَرُ ولا يقاوم كما لسلطان الدين .

« ومن يُصْبِحُ سيداً للرأى العامِّ يُمكنه أن يسوقَ أمةً إلى أكثر الأعمالِ بُطولةً ، كما يُمكنه أن يسوقها إلى أكثر المغامرات مخالفةً للصواب .

« وعَرَفَ أعظمُ أقطاب السياسة في كلِّ وقتٍ أن يوجِّهوا الرأى العامِّ ، ويقتصر محترفو السياسة الوُضْعاء على اتباعه » ، (روح الأزمنة الحديثة) .

تأثيرُ الروح الشعبية في الحكومات

« اليومَ يُتَمَلَّقُ الشعبُ ذو السيادة كما كان يُتَمَلَّقُ أسوأ المستبدين ، وتَجِدُ شَهَوَاتِهِ الصاخبةُ ورَغْبَاتُهُ الطائشةُ مُعْجَبِينَ وعابدين .

« وعند محترفي السياسة ، الخادمين للعوامِّ ، لا وُجُودَ للوقائع ، ولا قيمةَ للحقائق ، فيجب على الطبيعة أن تخضع لأهواء العَدَد » ، (روح السياسة) .

الروح الجذرية والروح اليقوبية

« الروح الجذرية الحديثة قريبةٌ تماماً من الروح اليقوبية في زمن الثورة الفرنسية ، فاليقوبىُّ ليس عقلياً في الحقيقة ، بل مؤمنٌ ، ويُبعد اليقوبىُّ من إقامة معتقده على العقل فينسكب براهينه العقلية في معتقده ، ولا يتأثرُ اليقوبىُّ بالمعقول مطلقاً مهما كان هذا المعقول صائباً .

« وبما أن نظره إلى الأمور قصير إلى الغاية دائماً فإنه لا يُبيحُ له مقاومة ما يُسيرُه من الاندفاعات العاطفية القوية .

« والواقعُ أن اليقوبىَّ متدينٌ أقام آلهته الجُدد مقامَ آلهته المُسنين ، وإذ أن اليقوبىَّ مشبع من قدرة الكلمات والصيغ فإنه يعزُو إليهما سلطاناً دينياً ، وهو لا يتقهقر ، مطلقاً ، أمام أعنف التدابير خِدمة هؤلاء الآلهة الكثرى الأطلاب » ، (روح الثورات) .

تطور المبادئ الثورية الكبرى

تقدمُ الاستبداد الحديثُ

« لم يدخُل الإنسانُ في دورٍ من الحرية ولا الإخاء ، وبما أن الحرية نُبذتُ من قِبَل الاشتراكيين وأنصار الحكومية فإنها عادت لا تتمثلُ غيرَ رمزٍ حائر ، وبما أن الحرية دُحِرتُ من قِبَل جميع المدافعين عن نزاع الطبقات فإن الإخاء يَبقى وهماً بلا نفوذ .

« وبين الثالث الثورى المنقوش على جُدُرنا دائماً ترعى المساواة أن سلطانها وحدَه هو الذى يَعظُم ، وبما أن المساواة أصبحت إلهَ الأزمنة الحديثة فإنها استتمتْ ، لاريبَ ، على طَرَدِ الملوك من عروشهم وطَرَدِ الآلهة من زُؤونهم^(١) ، وذلك إلى اليوم الذى تهلك فيه بدوَرها لعجزها عن تحقيق أمانى الأمم .

« وما انفكَّ جميعُ الخطباء السياسيين ، منذ أوائل الثورة الفرنسية حتى أيامنا ، يُعلنون فى خُطبهم حقدَهم على الاستبداد وحُبَّهم للحرية .

« وعلى العكس يَكشِفُ تاريخ هذا الدور عن مقتِ عظيم للحرية ، ولا سيما حرية الآخرين ، كما يكشف عن ميلٍ إلى الاستبداد .

« وتَدور جميعُ المعارك السياسية ، حَصراً تقريباً ، حَوْلَ مَعْرِفَةِ أىِّ الأحزاب سيارس هذا الاستبداد وأية طبقاتٍ من المواطنين ستحتمله » ،
(روح السياسة) .

(١) الزون : الموضع تجمع فيه الأصنام .

خلاصة عامة

بالشواهد السابقة ينتهي هذا الكتاب الذي حاولت أن أثبت فيه بعضَ مناحي التاريخ العظيمة والضروراتِ التي تُوجِّهُ مجراه .
وتحوَّلَ العالمَ مراتٍ كثيرةً منذ الزمن البعيد الذي لم يكن فيه للإنسان ، الفائصِ في ظلماتِ ما قبل التاريخ ، دافعٌ للعملِ غيرُ احتياجه إلى الغذاء والتناسل ، وبالتدرُّج أضيفتُ عواملٌ سَيرٌ أخرى إلى شروط الحياة الأولى التي وَجَّهت الإنسانيةَ في فِجْرها ، والتي تَبَقَى وحدها مُوجِّهَةً لمُعظَم الناس في كلِّ حين ، وكانت الأوهامُ النافعةُ أو الضارَّةُ أقوى هذه العوامل التي وَجَّهت الأمم بتعاقب الأجيال .

* * *

وعلى ما ألقاه كثيرٌ من الاكتشافات من نُورٍ يَبْقَى تفسيرُ الحوادث التاريخية العظيمة ناقصاً ، وَيَظَلُّ مُعْظَمُ المسائل بلا جواب ، فكيف وُفِّقَ أعظم المتهوسين الخالقين للأوهام لإيجاد آلهةٍ شَتَّى سيطروا على التاريخ؟ وكيف يُخْرِجُ الحقيقيُّ من غير الحقيقيِّ؟ وكيف تُولَدُ العزائم الشعبية وتتحول؟ وما السبب في أن شأن الأغاليط الجَماعيةِ في حياة الأمم أعلى من شأن العقل؟ وإذا كان التاريخ مملوءاً إبهاماً وتفسيراتٍ وهميةً فلأنه ليس ، في الحقيقة ، غيرَ تعبيرٍ باطنِيٍّ عن بعض الحوادث الوَجْدِيَّة التي تتألَّفُ الحياةُ من

مجموعها ، فدراسة الحياة أمرٌ ضروريٌّ لفهم التاريخ ، ولذلك رأينا أن نتكلمَ في هذا الكتاب عن الشئِن التي تسيطر عليه .

والتاريخُ ، الذي هو قَصَصٌ لبعض مظاهر الحياة ، يَصُدْرُ ، إِذَنْ ، عن مِنطَقةٍ حافلةٍ بالأسرار دائماً ، وذلك لأن جميع الحوادث المترجِّحة بين تكوين خلية بسيطة ونموِّ الفكر الدِّماغِيّ تَظَلُّ غيرَ مُدْرَكَةٍ من هذه الناحية فيتمدَّرُ صَوْنُغٌ فَرَضِيَّةٌ لتفسيرها ، ويفوقُ إدراكُ حياةٍ أحقر عضوٍ وسائلَ الذكاء كثيراً .

ومع ذلك فلا يجوز أن يُقنَطَ من النفوذ ، ذاتَ يومٍ ، في هذه المنطَقة المستغليقة ، فما يُدْرِكُ اليومَ مؤلَّفٌ من غيرِ المُدْرَكِ بالأمسِ .

ودراسةٌ مثلِ هذا التطور تَحْتَمِلُ مرحلتين مختلفتين ، ففي الأولى تُحَقِّقُ الحوادثُ فقط ، وهي تُدْرِكُ في الثانية ، ودرجاتُ المعرفةِ المختلفةة هذه تلاحظُ بسهولةٍ في سواء الفكر الحديث ، ولا بُدَّ له من القول ببعض الإيضاحات التي لا يُمكنُه إدراكُها بعدُ ، ومن ذلك ، مثلاً ، انتشارُ فكرةِ كَوْنِ دائمِ التحوُّلِ فلا يوجدُ له أولٌ ولا حدٌّ ولا آخر ، وتُضَافُ إلى الأبدية القائمة أمامنا ، والسهلِ إدراكها نَسْبِيًّا ، أبديةٌ قائمةٌ وراءنا فيلوح أن النفس مُلزَمةٌ بقبولها ، ولكن من غير أن تتمثلها ، وتقوم الهندسةُ نفسها على تعريفاتٍ أُلزِمَ العقلُ بقبولها من غير أن يُدْرِكها ، كما أثبت ذلك منذ زمنٍ طويل .

ولا ينبغي لمن يريدُ تعمِّقًا في معرفة التاريخ أن يفصلَ الإنسان عن بيئته ، بل يجب عليه أن يربطه بسلسلةِ الموجودات الطويلة التي يُعدُّ متممًا لها

وبالكَوْنِ الذِي لَا يُمَثِّلُ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ مَظَاهِرِهِ .
وهكذا سِيرْنَا إِلَى دِرَاسَةِ مَوْضُوعَاتٍ يَلُوحُ بِعُدْهَا مِنَ التَّارِيخِ وَإِنْ
كَانَتْ أُسُسَهُ الْحَقِيقِيَّةَ .

الفهرس

صفحة

٧	مقدمة المترجم
٩	المقدمة : الأسس الجديدة لفلسفة التاريخ

الباب الأول

فلسفة الكون الحاضرة ، قلب العالم وتطوره

		الفصل الأول : القوى المبدعة ، طبيعة الإنسان وحدود معارفنا
٢٣	الحاضرة
٣٠	الفصل الثاني : حوادث الحياة وأشكال الذكاء المجهولة
		الفصل الثالث : أصل نشاط الموجودات ، حياة الحيوان والإنسان
٣٦	غير الشاعرة
٤٣	الفصل الرابع : قلب الذاتيات الفردية والجماعية

الباب الثاني

تفاسيرُ التاريخ المختلفة

٥٣	الفصل الأول : مبادئ التاريخ الروائية واللاهوتية والفلسفية
٦٠	الفصل الثاني : التعميمات في التاريخ
		الفصل الثالث : مصادر الخطأ في التاريخ ، ما يمكن تبصره وما لا
٦٧	يمكن
٧٤	الفصل الرابع : روح النقد في التاريخ

الباب الثالث

إصلاحات التاريخ العلمية

صفحة	
٨٥	الفصل الأول : أشكال التطور الاجتماعي العامة
٩٢	الفصل الثاني : تعيين الحوادث بالشهادة
	الفصل الثالث : تعيين حوادث التاريخ بدراسة المباني والكتابات والأوسمة
١٠٠	
١٠٥	الفصل الرابع : تعيين بعض الحوادث الاجتماعية بالإحصاء
١٠٨	الفصل الخامس : تعيين مزاج الأمة النفسى بدراسة إنتاجها الأدبي
١١٥	الفصل السادس : تعيين معنى الكلمات فى دراسة التاريخ

الباب الرابع

العناصر المُوَجِّدة للتاريخ

١٢١	الفصل الأول : قوى الأجداد
١٢٧	الفصل الثاني : الخلق والذكاء
١٣٢	الفصل الثالث : المعتقدات الوجدية ذات الشكل الدينى
١٣٨	الفصل الرابع : المعتقدات الوجدية ذات الشكل السياسى
١٤٤	الفصل الخامس : العادات والأخلاق والتربية
١٥٠	الفصل السادس : النظم السياسية

الباب الخامس

العناصر التى تنحلُّ بها حياة الأمم

١٦١	الفصل الأول : زوال المعتقدات
-----	--

صفحة

١٦٥	الفصل الثانى : الأوهام السياسية
١٧٣	الفصل الثالث : اصطراع المبادئ الحديثة فى المساواة وزيادة التفاوت فى الذكاء
١٨١	الفصل الرابع : شأن الجماعات الحاضر

الباب السادس

عوامل التاريخ الجديدة

١٩١	الفصل الأول : تطور العالم الاقتصادى وعناصر اليُسَر الحديثة
٢٠٢	الفصل الثانى : الوضع الحاضر لأهم دول العالم
٢١٦	الفصل الثالث : سادة العالم الجدد ، التفوق الأمريكى
٢٢٦	الفصل الرابع : تطور الحضارات

تعليقات ختامية

٢٤١	١ - مختارات من رسائل تبادلها المؤلف وبعض أقطاب السياسة مع نقل آراءٍ لهم حول بعض المسائل التى جاءت فى هذا الكتاب .
٢٥٣	٢ - مختارات من كتب المؤلف السابقة حول بعض المسائل التى جاءت فى هذا الكتاب .
٢٧١	٣ - خلاصة عامة .

تصويب

صواب	س	ص	صواب	س	ص
الرجعية	١	١٤٢	فهو	١	١٩
سرعة	١٢	١٩٩	يمكننا	٤	١٠٩
وبالحرب	٧	٢٢٢	هى	١	١٢٢

للأستاذ المترجم

- (١) روح الشرائع (جزءان) لمونتسكيو
 (٢) العقد الاجتماعي بلخان جاك روسو
 (٣) أصل التفاوت » » »
 (٤) حضارة العرب (طبعة ثانية) لغوستاف لوبون
 (٥) حضارات الهند » »
 (٦) روح الجماعات » »
 (٧) السنن النفسية لتطور الأمم » »
 (٨) فلسفة التاريخ » »
 (٩) روح التربية » »
 (١٠) حياة الحقائق » »
 (١١) الآراء والمعتقدات » »
 (١٢) روح الثورات والثورة الفرنسية (طبعة ثانية) » »
 (١٣) روح الاشتراكية » »
 (١٤) روح السياسة » »
 (١٥) اليهود في تاريخ الحضارات الأولى » »
 (١٦) النيل لإميل لودفيغ
 (١٧) البحر المتوسط » »
 (١٨) كليوباترة » »
 (١٩) بسمارك » »
 (٢٠) نابليون » »
 (٢١) ابن الإنسان » »
 (٢٢) الحياة والحب » »
 (٢٣) حياة محمد (طبعة ثانية) لإميل درمنغم
 (٢٤) تاريخ العرب العام لسيديو
 (٢٥) الآلهة عطاش لأناتول فرانس
 (٢٦) حديقة أبيهتور » »
 (٢٧) أصول الفقه الدستوري لإيسمن